روايات تاريخ الإسلام

عبد الرحمن الناصر

تشتمل على وصف بلاد الأندلس وحضارتها
وعادات أهلها في زمن الخليفة عبد الرحمن
الناصر الأموي، مع وصف ما بناه من القصور
الفخمة، واستقباله وفود ملوك أوروبا، وغير ذلك

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

obeikandl.com

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بولينار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٣٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٩م - ١٤٣٠هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

obeikandl.com

أبطال الرواية

* **عبد الرحمن الناصر** : الخليفة الأموي بالأندلس .
* **الزهراء** : محظية الخليفة .
* **الحكم** : ولي العهد .
* **عبد الله** : الابن الثاني للخليفة .
* **ابن عبد البر الكسيباني** : من كبار فقهاء قرطبة .
* **سعيد** : جاسوس للخليفة الفاطمي في القيروان
* **ياسر** : خادم أمير المؤمنين .
* **ساهر** : خادم للأمير عبد الله .
* **عابدة** : جارية من مولدات بغداد .
* **سالم** : شقيق الزهراء

obeikandl.com

مراجع رواية عبد الرحمن الناصر

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ المقريزي .
* طبقات الأدباء .
* المؤرخ كوندي .
* تاريخ رومي .
* الأحكام السلطانية .
* العقد الفريد .
* الأمالي للقالي .
* كتاب الحوشي .
* الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .
* نفح الطيب .
* تاريخ ابن خلدون

obeikandl.com

- ١ -

فذلكة تاريخية

قرطبة - عاصمة الأمويين بالأندلس - في شمالي نهر الوادي الكبير في جنوب إسبانيا. وقد بلغت غاية حضارتها وأوج مجدها في زمن عبد الرحمن الناصر الذي ملك منذ سنة ٣٠٠ إلى ٣٥٠ للهجرة. وهو أول من لُقّب بالخلافة من ملوك الأندلس. تولى الملك والأحوال مضطربة، والبلاد قائمة قاعدة، لاختلاف الأحزاب وكثرة الطامعين في السلطان من العرب والبربر، عدا الإفرنج المجاورين له في اشتوريا وغليكية ونافار وبمبلونة وغسكونية وغيرها. فما زال يحارب ويناضل ويجد ويجتهد، حتى دانت له الرقاب واستقر له الملك، واستتب الأمر، فتقرّب إليه ملوك عصره بالهدايا، وأوفدوا إليه الوفود من القسطنطينية وروما وفرنسا وروسيا وغيرها.

ولما أنس في نفسه القوة، ورأى الخلافة العباسية قد تضعضعت، والجند التركي قد استبد بخلفائها، لقّب نفسه بأمير المؤمنين فلم يلق معارضة. واتفق أثناء ذلك أن قامت الدولة الفاطمية (العبيدية) في المغرب، وهم شيعة يطلبون الخلافة باسم علي، فأصبحت الخلافة الإسلامية تدعيها ثلاث دول: العباسيون في العراق، والفاطميون في المغرب، والأمويون في الأندلس.

وزهت قرطبة في أيام الناصر واستبحر عمرانها، وكثُرت قصورها ومنتزهاتها. ويكفي من ذلك قصرها الكبير، فقد كان آية من آيات الزمان، مؤلفاً من ٤٣٠ داراً، بينها قصور فخمة، لكل منها اسم خاص كالكامل والمجدد والحائر والروضة والمعشوق والمبارك والرستق وقصر البديع. وقد غالوا في زخرفها واتقانها، ونقشوا فيها صوراً مختلفة الأشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس

المموه، وأنشأوا فيها البرك والبحيرات والصهاريج والأحواض، وجلبوا إليها الماء في قنوات الرصاص من الجبال البعيدة، ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها بوساطة تلك القنوات تؤديه إلى المصانع والبحيرات العظيمة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة في أحواض الرخام الرومية المنقوشة، ينصب فيها الماء من أنابيب الذهب أو الفضة، في صور الحيوانات الضارية أو الطيور الجميلة على أشكال بديعة!

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير، ولم يكن في بلاد الإسلام أعظم منه ولا أعجب بناء. وكان في مكانه كنيسة للنصارى قاسمهم موضعها المسلمون عند الفتح، كما فعلوا بالجامع الأموي بدمشق، ثم أخذوا يوسعونه ويزيدون فيه حتى بلغت سعته في أيام الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥، وأغرب ما فيه مئذنته التي لم يكن في مسجد المسلمين مئذنة تعدلها، فطولها إلى موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً، وإلى أعلى الرمانة ٧٣ ذراعاً وعرضها ١٨ ذراعاً.

ومما بناه الناصر من القصور قصر الزهراء، وقد ذكروا أنه بناه نزولاً على طلب جارية له اسمها الزهراء، وهو على مسافة أربعة أميال من قرطبة، عظيم الاتساع كأنه بلد كبير، طوله من الشرق إلى الغرب ٢٧٠٠ ذراع، وعرضه ١٥٠٠ ذراع، وعدد أعمدته ٤٣٠٠ بعضها حمل إلى قرطبة من رومة وأفريقية وتونس، وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية إلى الناصر، وفيها الرخام الأبيض والأخضر والوردي والمجزع. وكان في الزهراء مسجد فخم وحدائق عدة، ومجالس، وفيها البحيرات تسبح فيها الأسماك بألوانها وأنواعها، وأحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى بين مذهب وغير مذهب، وفي جملتها حوض منقوش بتماثيل أنسية، جيء به من القسطنطينية ونصبه

الناصر في بيت المنام بالمجلس الشرقي المعروف بالمؤنس، وجعل عليه ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس الغالي صنعت بدار الصناعة في قرطبة على صورة أسد بين غزال وتمساح، يقابلها ثعبان وعقاب وفيل. وفي الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة نسر، وكلها من ذهب مرصع بالجواهر يجري الماء من أفواهها. وقد أنفق في بناء القصر ما يزيد على عشرين مليون دينار.

وكان الناصر إلى هذا معروفاً بتشجيعه العلم وترويج سوقه حتى أصبحت قرطبة في عهده كعبة الأدباء ومجتمع العلماء ومقصد باعة الكتب. وكان اقتناء الكتب من مقومات الحياة عندهم، يفعلون ذلك اقتداء بخليفتهم وأبنائه.

في مكتبة قرطبة

قال جوهر خادم المكتبة: «ما لي أرى الناس في شاغل عن النسخ والمطالعة اليوم يا سيدي؟».

فأجابه صاحبها سعيد: «أنهم في شاغل عن كل شيء بالتشوّف إلى رسل قيصر الروم الذين جاؤوا بالهدايا من قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينية إلى مولانا أمير المؤمنين الناصر، فخرجوا من قرطبة لمشاهدة الوفد قبل وصوله. كأنك كنت غائباً عن قرطبة!».

قال الغلام: «لم أكن غائباً، ولكنني لم أبرح هذه الدار منذ أسبوع يا سيدي».

فانتبه سعيد وقال: «صدقت. فالخليفة لما بلغه قدوم رسل ملك الروم أمر أن يستقبلوا أحسن استقبال، وبعث جماعة من خاصته يلاقونه في بجاية، ويحسنون خدمة الطريق، وقد وصلوا أمس إلى مقربة من قرطبة، فأمر بإرسال الجند والعدة والحاشية لملاقاتهم، فاشتغل أكثر الناس بالوقوف لهم في الطرق ومشاهدة موكبهم، فلم

يأتنا أحد منهم».

فقال جوهر: «ومَن هم رسل ملك الروم؟».

فاستغرب سعيد سذاجة خادمه وقال: «أنهم أناس مثلنا. هل تحب أن تراهم؟».

قال: «كيف لا؟».

قال: «ولكن ذلك غير ميسور لأحد، لأن الخليفة الناصر أمر أن ينزلوا في الربض خارج المدينة بمنية الحكم ولي العهد، وأن يمنع اتصال الناس بهم، ويُقام الحجاب على أبوابهم حتى لا يخاطبوا أحداً ولا يراهم أحد».

فقال: «يا للعجب! وهل يخافهم على دولته؟».

قال: «كلا. ولكن للملوك سياسات لا تفهمها». ثم تطلع إلى الحديقة وقال: «أرى الفقيه ابن عبد البر قادماً، فأعد له المسند وضع الدواة على المنضدة في غرفة المطالعة».

ولم يتم سعيد كلامه حتى وصل ابن عبد البر، وهو من كبار الفقهاء في قرطبة، وقد شبّ في حاشية الحكم، ولي العهد، ثم لازم أخاه عبد الله بن الناصر، وكان عبد الله يحب العلماء وأهل الأدب ويكثر من مجالستهم.

وكان ابن عبد البر هذا يتردد على هذه المكتبة مثل كثيرين من الأدباء ومحبي المطالعة. وقرطبة يومئذ في أوج مجدها، واقتناء الكتب فيها من لوازم الحياة وضرورات الحضارة، كالأثاث لا يستغني عنها في بيت من البيوت، لأن الخليفة نفسه كان محباً نفسه كان محباً للعلم مقرباً للعلماء، وقد شبّ أولاده على ذلك ولا سيما الحكم ولي العهد وأخاه عبد الله، واقتدى بهم سائر أهل الدولة ـ والناس على دين

ملوكهم. فأصبحت تجارة الكتب من أروج التجارات، فكثر الوراقون الذين يشتغلون ببيع الكتب ونسخها.

وكان سعيد قد نشأ هذه المكتبة في الربض خارج قرطبة في بيت على ضفة الوادي الكبير، فهي تطل على قرطبة عن بعد، وبينهما النهر، وقد جعلها أشبه بنادي مطالعة منها بمستودع كتب أو دار نسخ. فكان أدباء قرطبة يتوافدون إليها للمطالعة والشراء أو النسخ، فيرون من سعيد مؤانسة ولطفاً وتساهلاً، ويلتذون بمعاشرته لسعة اطلاعه ودماثة أخلاقه. وكان كثير الاحتفاء بابن عبد البر، وهذا يحسب احتفاءه به لرغبته في كتاب يبيعه على يده لولي العهد أو لأخيه عبد الله الناصر، لأن الفقيه كان معدوداً من خاصة عبد الله، وكان هذا مغرماً باقتناء الكتب، فإذا سمع بكتاب بذل في سبيله الأموال الطائلة حتى يقتنيه. وكثيراً ما كان يبتاعها من سعيد على يد ابن عبد البر. على أن احتفاء سعيد به كان لغرض آخر يقصر ابن عبد البر عن إدراكه.

فلما أطل الفقيه من باب الحديقة خف سعيد لاستقباله في الدار ورحب به، فدخل وعلى وجهه أمارات العجلة، فتجاهل سعيد هذا وهشّ له وقال: «ما بال الفقيه قد أبطأ علينا اليوم؟ لعله كان في جملة الذين خرجوا لمشاهدة رسل القسطنطينية؟». فقال وهو يخرج يده من جيب جبته وفيها لفافة من الورق: «كلا لم أذهب معهم، ولكني شغلت بالمطالعة. هل في مكتبتك كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ؟».

قال: «كيف لا؟! أظنك تشتغل بإعداد خطبة تتلوها في حضرة الخليفة يوم الاحتفال باستقبال أولئك الرسل».

فضحك ضحكة إعجاب بنفسه ولم يجب، وظل ماشياً وهو

يصلح عمامته ويخرج منها قلماً كان قد غرسه فيها لما قام مسرعاً من منزله لمراجعة شيء في كتاب البيان والتبيين ومشى سعيد أمامه إلى خزانة الكتب، وهي غرفة واسعة فيها رفوف مسمرة بالحائط وعليها الكتب مرتبة حسب موضوعاتها وأكثرها من كتب الأدب. ولم يكن يجرؤ على إظهار كتب الطبيعيات والفلسفة لأن أصحابها كانوا متهمين بالكفر. وبدلاً من أن يأمر الخادم الموكل بحفظ الكتب أن يستخرج كتاب البيان والتبيين ويقدمه للفقيه، أسرع هو بنفسه وحمله إليه مبالغة في الإكرام، فتناول ابن عبد البر الكتاب وجلس على المسند المعدل له وهو يقول: «إن عندنا من هذا الكتاب نسخاً عدة في مكتبة مولانا الأمير عبد الله، ولكنني أحببت أن أخلو به هنا إلى جوارك يا صاحبي».

فقال سعيد: «إن ذلك من حسن حظي يا مولاي». وتركه وانصرف إلى ناحية من المنزل تشرف على النهر، وكانت الشمس قد مالت إلى الأصيل، فرأى الناس في القورب عائدين من استقبال الوفد. وفهم من حديثهم أن الرسل وصلوا إلى الربض، ونزلوا في منية الحكم. فوقف هنيهة ساكتاً، واستغرق في تأملاته حتى نسِيَ موقفه، ولم يتنبه حتى ناداه جوهر الخادم، فالتفت فإذا هو يشير إليه أن يأتي، وأسرع نحوه وهو يقول والدهشة بادية في وجهه: «إن ياسراً فتى أمير المؤمنين...». وتلعثم لسانه من الدهشة.

فاستغرب سعيد قدوم ياسر في ذلك اليوم، وكان قد سمع بخروجه هو وتمام زميله لاستقبال رسل الروم مبالغة في إكرامهم، لأن ياسراً وتماماً كانا كبيري الخصيان في القصر. وكان للخصيان في ذلك العهد سطوة ونفوذ لأنهم أصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه، وبيدهم القصر السلطاني، فإرسال كبيري الخصيان لملاقاة أولئك

الرسل يعد من المبالغة في الإكرام. وكان ياسر طويل القامة، أبيض الطلعة لأنه من الصقالبة البيض، أزرق العينين غائرهما، عريض ما بينهما، بارز الوجنات، أجرد الوجه مثل سائر الخصيان. وقد استقبله سعيد وهشّ له ورحب به، غير أنه رأى في وجهه انقباضاً، فذهبت به الظنون كل مذهب، وقال: «أهلاً بالأستاذ ياسر». ودعاه للدخول إلى قاعة المطالعة للاستراحة. فردّ ياسر التحية بصوت رفيع كصوت الأحداث، مثل أصوات سائر الخصيان، ولم يبتسم كعادته، ولكنه أطاع سعيداً ومشى معه حتى جلس على كرسي قدّمه له فجلس وهو يتلفت، فقال سعيد: «هل يأمر مولاي بشيء أقدمه من كتاب أو قلم أو ورق؟».

قال: «لا، ولكني حسبت الفقيه محمد بن عبد البر دخل هذا المكان».

قال: «نعم يا سيدي، وهو يطالع في الغرفة الأخرى. هل أدعوه؟».

قال: «كلا. دعه في عمله».

فأراد سعيد أن يستطلع أخباره فقال: «ألم يخرج الأستاذ لملاقاة رسل صاحب القسطنطينية اليوم؟».

قال وهو يحاول أن يكتم ما في خاطره: «بلى خرجت! وأنا عائد الآن، وقد وصل القوم إلى الربض، فأقمنا عليهم الحرس حتى يأمر أمير المؤمنين باستقدامهم إليه».

فقال سعيد: «سيكون يوم استقبالهم حافلاً. أين يكون ذلك يا ترى؟».

قال: «في القصر الزاهر من قصور الخلافة، إنهم يعدون المكان

منذ أيام».

قال: «وكنت أحسبه سيستقبلهم في قصر من قصور الزهراء الفخمة».

قال: «ولكنه أمر أن يهيئوا القصر الزاهر لهذه الغاية».

قال: «إنه سيكون مشهداً جميلاً داخل القصر».

فأدرك ياسر أنه يعرض برغبته في الحضور فقال: «إذا شئت الحضور فادخل برفقة الفقيه ابن عبد البر فلا يعارضك أحد. وإن كنت أنا في جملة المرحّبين فلا بأس عليك». قال ذلك وبلع ريقه كأنه يخفي امتعاضاً أقلقه. وكان سعيد يراقب كل حركة تبدو منه، فلما لحظ امتعاضه قال وهو يظهر الاستغراب: «أرى الأستاذ يشك في كونه أحد المرحبين، وهل يتقدمه أحد في ذلك؟ لا ريب أنك ستكون في مقدمة المرحبين».

فقال ياسر، وفي صدره شيء يود التصريح به ليشفي ما في نفسه من الغيظ، ولكنه أمسك: «من الممكن ألا أكون هناك».

فضحك سعيد وأظهر أنه لم يصدق كلامه وقال: «كلا أنك ستكون في صدر البهو. أنا أعرف منزلتك عند أمير المؤمنين».

فنهض ياسر فجأة ووضع أنامله على فم سعيد كأنه يتلطف في إسكاته وابتسم وقال: «كانت تلك المنزلة ولكن..». وخاف أن يخونه لسانه فيقول ما يندم عليه، فتظاهر بتغيير الحديث وقال: «إني أرى أناساً قادمين إليك، ولا أحب أن يعلم أحد بمجيئي إلى هنا اليوم. أستودعك الله». قال ذلك وخرج، وغادر سعيداً يفكر في سبب مجيئه وفيما بدر منه من الألفاظ القليلة المبنى الكثيرة المعنى، وقد ود الاطلاع على ما في نفس ياسر.

وبعد قليل أخذ الناس يتوافدون إلى منزل سعيد، وكل منهم يشتغل بشيء من كتابة أو نسخ أو مطالعة، وإذا أحوجهم الاستفهام عن أمر أشكل عليهم عمدوا إلى سعيد فيرشدهم إلى ما يريدون. وكانوا يعتقدون الصدق فيما يقوله ولو خالف المعقول، لأنه كان قوي الحجة حاضر البديهة، وكان في عينيه شيء كالمغناطيس إذا تفرس في عيني جليسه تغلب عليه كأنه نومه تنويماً مغناطيسياً فلا يشعر الجليس إلا وهو طوع إرادته.

وكان سعيد هذا في نحو الأربعين من عمره، صحيح البنية، عريض الكتفين، قوي العضل، كبير الدماغ، تتجلى الرزانة في جبينه، والذكاء في عينيه، والثبات حول شفتيه. ويكفي التعبير عن حدة عينيه بالذكاء فإن فيهما قوة الإقناع، أو الجاذبية، لأنه لا يباحث أحداً إلا أقنعه. وكان خفيف العارضين واللحية، قلما يضحك ولكن الابتسام خلقة في وجهه. وقد مضت عليه بضع سنين يشتغل بالوراقة ويتجر بالكتب، ولم يعامله أحد إلا أُعجب بأخلاقه العالية وذكائه المفرط. فكان الأدباء من الفقهاء وأهل الدولة يترددون إلى منزله كما يجتمع الناس في نادٍ للمطالعة والاستفادة، ولكنه كان يشترط أن يكون ذلك في النهار فإذا غربت الشمس أقفل الباب.

فلما رأى الناس يتوافدون في ذلك اليوم أمر خادمه بتقديم ما يحتاجون إليه، ولم يكن جوهر الخادم خصياً مثل سائر خدم قرطبة، فإن أهلها قلدوا أميرهم في اقتناء الخصيان على اختلاف أجناسهم، وهي كثيرة يومئذ، وكانوا يحملونهم من أطراف العالم إلى ديار الإسلام ولا سيما الأندلس، لأنها كانت أكثر الممالك الإسلامية رخاءً في ذلك العهد، وإنما كان خادم سعيد بربرياً من أهل المغرب على جانب عظيم من السذاجة.

اشتغل جوهر بتقديم ما يحتاج إليه القوم، وتوجه سعيد إلى الغرفة التي فيها ابن عبد البر، فرآه منهمكاً في المطالعة والكتابة في كاغد بيده، وقد نزع عمامته واستغرق في التفكير، وبينما هو ينظر إليه إذ سمع وقع خطوات وراءه، فالتفت فرأى «تليدا» أمين مكتبة الحكم ولي العهد قادماً على عجل، فتحول سعيد للترحيب به فرآه يشير إليه بوضع سبابته على شفتيه إن يسكت فسكت. وتقدم تليد حتى أطل على ابن عبد البر خلسة، فلما رآه مستغرقاً في الكتابة همس في أذن سعيد: «إن الفقيه يهيء خطاباً ليتلوه بين يدي أمير المؤمنين غداً فينال منصب قاضي القضاة». قال ذلك وهز رأسه استخفافاً، ورجع وهو قابض على يد سعيد حتى دخلا غرفة أخرى، وابن عبد البر مستغرق في تفكيره لم ينتبه لهما. فمشى سعيد معه وهو ينتظر ما يبدو منه، فقال له: «بلغت أن رجلاً من بني أمية اسمه أبو الفرج الأصفهاني ألّف كتاباً في الأغاني، هل سمعت عنه شيئاً؟».

قال: «سمعت أنه يؤلف هذا الكتاب من عهد بعيد، ولا أدري إذا كان قد أتمّه أم لا". قال: "سمعت أنه أحسن كتاب في الأدب».

قال سعيد: «يُقال أنه قضى معظم حياته في جمعه وتأليفه، وهو يغني عن سائر الكتب».

قال: «بلغ مولاي الحَكَم خير هذا الكتاب، وأن مؤلفه أموي مثله. فأحب اقتناءه، وهو يبذل ما تشاء للحصول عليه».

قال: «سأبعث في طلبه من العراق، لأن صاحبه مقيم هناك».

قال: «افعل. ولا تذكر خبر قدومي إليك ولا خبر هذا الكتاب. فهمت؟».

فقال: «نعم». وأدرك أنه يريد أن يخفي ذلك خصوصاً على ابن عبد البر لاتصاله بعبد الله شقيق الحَكَم. وكان عبد الله ينافس أخاه

الحَكَم في اقتناء الكتب، فإذا سبق أحدهما إلى اقتناء كتاب جديد عُدّ ذلك فخراً له.

ثم ودع تليد سعيداً بالإشارة وهَمّ بالخروج، فتبعه سعيد إلى الباب وقال له: «هل كنت في جملة مَن خرجوا لاستقبال رسل الروم؟ يا حبذا لو كنت معكم».

قال: «لا لم أكن من مستقبليهم».

فقال: «لو كنت هناك لما حدث شيء يغضب ياسراً». قال ذلك وهو لا يعرف شيئاً مما أغضبه، وإنما أراد الاستطلاع.

فقال تليد: «وهل عرفت ما حصل؟ إني أرى ياسراً محقاً في غضبه، لأن تماماً ـ على قرب عهده بخدمة القصر ـ يشمخ بأنفه عليه. ويريد أن يتقدمه في المجالس. ولكن ياسراً عاقل وما أظنه يكترث لمثل هذه الصغائر». قال ذلك وودعه وهو يقول: «لا تذكر خبر قدومي لأحد».

فأدرك سعيد سبب غضب ياسر وكتمه، وعاد إلى عمله. ولما دنت الشمس من المغيب أخذ الزوار في الانصراف، وابن عبد البر مستغرق في درسه وكتابته، ولم يشأ سعيد أن ينبهه. وخرج الجميع ولم يبقَ هناك غيره، فانتبه لنفسه ولما غابت الشمس وخيّم الظلام، وهَمّ بالنهوض فرأى جوهر الخادم يحمل إليه سراجاً مضيئاً وهو يقول: «أن مولاي قد بعث إليك بهذا السراج تستضيء به حتى يتم عملك».

عابدة

شكر ابن عبد البر لسعيد ما خصّه به من الإكرام، وظل جالساً يكتب وقد خفت الضوضاء. وفيما هو في ذلك سمع وقع أقدام خارج غرفته فالتفت فلمح شبحاً مرّ ببابها يشبه أن يكون امرأة حاسرة

الوجه جميلة الطلعة. فاستغرب ذلك، وأنصت لعله يستطلع شيئاً، فسمع سعيداً يرحب بالقادم بصيغة التأنيث، فحمله حب الاستطلاع على رؤية الفتاة، فنهض وأطل من الباب فرأى فتاة كالقمر طلعة والخيزران قواماً تخاطب سعيداً بلسان فصيح يدل على علم وأدب، وسمع سعيداً يقول لها: «أتيت أهلاً ووطئت سهلاً يا عابدة، لقد طال انتظاري قدومك».

فقالت: «تأخرت مكرهة إذ شغلت بمطالعة كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه ونسخَه، فإن هذا الرجل قد جمع فيه ما لا مثيل له في سواه من الشِعر والأخبار والأمثال والتاريخ، ناهيك بالفوائد الصحية والعظات الدينية، وقد نظّم أعمال أمير المؤمنين شعراً، وتوفي وهو ينظمها منذ ثماني سنوات أي سنة ٣٢٨ هـ». قالت ذلك وأخرجت من تحت ردائها صرة كبيرة وقالت: «وهذه هي النسخة التي نسختها».

فتناولها سعيد وهو يقول: «أنت نسختها بيدك؟».

قالت: «نعم نسختها بيدي، وعساها تعجبك».

فأخذ سعيد يتصفحها وهو يقول: «إن هذا الكتاب نادر المثال، ومع أن صاحبه توفي في هذه المدينة منذ بضعة أعوام فإني لم أجد نسخة منه بمثل هذا الخط وهذا الضبط». وهَمّ بالمسير نحو غرفة ابن عبد البر وهو يقول: «أظن أن هذه النسخة تليق بخزانة الأمير عبد الله بن أمير المؤمنين».

ورآه ابن عبد البر يتقدم نحوه فعاد إلى مجلسه، وأظهر أنه كان مشتغلاً بالكتابة، فلما وصل سعيد إلى الباب قال: «هل يأذن الفقيه في الدخول؟».

قال: «تفضّل. ادخل».

فدخل والكتاب بيده، وأشار إلى الفتاة أن تدخل، فدخلت وهي حاسرة الوجه، والذكاء يتجلى في عينيها، فدُهش الفقيه لرؤيتها واستغرب كشف وجهها على هذه الصورة، وظنها أول وهلة نصرانية أو يهودية، لأن اليهود كانوا يُعنون بالأدب العربي. والتفت إلى سعيد وهو ينتظر ما يبدو منه فإذا هو يقدم له الكتاب ويقول: «جاءتني هذه الأديبة بهذا الكتاب مكتوباً بخط يدها، وهو العقد الفريد لابن عبد ربه، وأظن أن في مكتبة مولانا الأمير عبد الله نسخاً منه».

فتناول الفقيه الكتاب الضخم، وأخذ يقلبه على ضوء السراج، ويُعجب بجمال خطه وضبطه، ثم قال: «نعم، فيها منه نسخ عدة، ولكن ليس بينها مثل هذه النسخة، وأظن مولانا الأمير يرغب في اقتنائها إذا أرادت هذه الحسناء بيعها. وهل هي بخطها؟». ورفع بصره إليها.

قال سعيد: «نعم. وهل تستغرب ذلك؟ فكيف إذا عرفت أنها تعي هذا الكتاب وعشرات مثله في ذهنها؟.. فلا تسألها عن شعر جاهلي أو إسلامي إلا وجدتها على علم به».

فقال ابن عبد البر: «ما شاء الله. إن ذلك نادر في النساء».

فقال سعيد: «وفوق ذلك فهي تُحسن الغناء والضرب على العود».

فدُهش الفقيه، وجلس يفكر فيما يسمعه ثم قال: «وأغرب من ذلك أنها نصرانية أو إسرائيلية على ما أظن».

قال: «كلا بل هي مسلمة».

قال: «ولكني أراها مكشوفة الوجه، وأضن بهذا الجمال أن تبتذله العيون».

فالتفت سعيد إلى الفتاة، كأنه يطلب إليها أن تجيب عن نفسها، فقالت بألفاظ رخيمة لها وقع على النفس أشد من وقع معانيها: لا أدري داعياً إلى تغطية الوجه إلا ضعف النفس. وإني على رأي عائشة بنت طلحة، فقد كانت تجالس الرجال، ولا تحجب وجهها عنهم. ولما سئلت في ذلك قالت: «إن الله تبارك وتعالى وسّمني بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم، فما كنت لأستره، ووالله ما في وصمة يقدر أن يذكرني بها أحد».

فلما سمع الفقيه كلامها دُهش إعجاباً، والتفت إلى سعيد وقال همساً: «مَن هي؟».

قال: «هي جارية من مولدات بغداد».

فهز الفقيه رأسه إعجابا وقال: «لله در بغداد! كم يخرج منها! أن هذه الجارية جديرة أن تكون في دور الخلفاء أو الأمراء...».

فقطع سعيد كلامه قائلاً: «ألا تظن مولانا الأمير يحب اقتناء هذه النسخة من العقد الفريد؟». وأشار إلى الكتاب بيده.

ففهم الفقيه أن سعيداً لا يحب أن يذكر خبر اقتناء الجارية بين يديها، فأجابه: «لا أشك في ذلك. فإذا قدمته إليه بعد الانتهاء من الاحتفال القادم أخذه وأكرمك. وأنا أذكر له خبرك قبل قدومك، وإذا رأيت أن تأخذ هذه الحسناء معك ليراها ويسمع حديثها كان ذلك باعثاً على رضاه وسروره».

قال: «سنفعل. والآن متى يكون الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية؟».

قال: «أظنه لا يكون قبل بضعة عشر يوماً على عادة أمير المؤمنين من تأجيل المقابلة زيادة في الإرهاب».

قال: «إني شديد الرغبة في حضور الاحتفال».

قال: «سأصطحبك. ومتى آن الوقت أنبأتك وذهبنا معاً».

فشكر له وهَمّ بالخروج فقال الفقيه: «قد آن لي أن أنصرف فأذن لي إذا شئت».

قال: «الخيار بيدك يا سيدي. ولا بأس عندي من بقائك هنا في عملك، وإذا أردت كتباً أخرى غير البيان والتبيين قدمتها مع السرور. وهذا كتاب العقد الفريد بين يديك، ولعله يفيدك فيما تحتاج إليه في خطبتك من الشواهد التاريخية أو الأمثال.. تفضل اجلس».

فشكر له ابن عبد البر احتفاءه وقال: «كفاني الآن ما قرأته».

قال سعيد: «أظن خطبتك ستكون جامعة واعية، وأرجو أن تنتفع بها، فإذا انتفعت عادَ النفع على أصحابك، ولكنني لا أدري إذا كنت تعدني من الأصحاب؟».

فخجل ابن عبد البر من هذا الإطناب وقال: «إنك من أعز الأصدقاء يا سعيد، وإذا وفقني المولى ونلت المنصب الذي أتمناه بعد هذا الاحتفال رأيت مني ما يسرك فادع لي».

قال: «إني أدعو لك بكل خير، وأراك أهلاً لأكبر المناصب العلمية. فمن أولى منك برياسة القضاة أو الخطباء؟».

تظاهر ابن عبد البر بالتواضع، وأسرع فوضع أوراقه في جيبه وخرج، فشيعه سعيد إلى الباب، ثم أمر خادمه أن يوصد الباب وراءه، فلما سمع إيصاده تنهد طويلاً، وعاد إلى موقف الجارية فإذا هي ما تزال واقفة في انتظاره. فلما استقبلها نظرت إليه بعينين براقتين تكادان تنطقان وقالت: «هل تأذن في انصرافي أيضاً؟».

فأشار إليها أن تجلس، وتلفت حتى يتحقق من خلو المكان من

الرقباء، فجلست على وسادة في غرفة ليس فيها غير بساط ومناضد صغيرة لوضع الأقلام والكتب وأدوات الكتابة وسراج قائم على مسرجة يخفق لهيبه فيتطاير سناجه في تلك الغرفة همساً كما تتصاعد زفرات عابدة، ولا يشعر بها سعيد أو لعله يشعر ويتجاهل!

فلما قعدت قعد أمامها وهي تنظر إليه، فلما التقى بصرها ببصره بادرت إلى الإطراق لأنها لا تطيق التفرس في عينيه لحظة، فإذا فعلت أحست كأن سهاماً تخترق بصرها إلى أحشائها، أو كأن أشعة كهربائية تنتفض لها جوارحها. ولم يكن هو يجهل ذلك، ولكن مطالبه غير مطالبها. فلما أطرقت قال لها: «ما بالك لا تنظرين إليَّ؟».

قالت: «ألا تعلم أني لا أستطيع النظر إلى عينيك؟».

قال: «كنت أحسبك تفعلين ذلك حياء».

قالت: «لم يبقَ باعث على الحياء بيننا، ولقد تفاهمنا وأطلعتك على مكنونات قلبي».

قال: «يسرني أنك فهمت مرادي وذهب عنك سوء الظن».

قالت: «نعم فهمت. ولكن يظهر لي أن هذا الانتظار لا آخر له، وأنت قانع ببيع الكتب ونسخها ومقابلة الناس ومحاسنهم». قالت ذلك وأبرقت عيناها، وظهر الارتباك على شفتيها كأنها تُخفي شيئاً تريد أن يفهمه سعيد دون أن تقوله.

أما هو فأحس بحدة ذلك التأنيب فتغيّرت سحنته وقال: «لست وراقاً ولا نساخاً كما تعلمين، ولكني..». وتلفت حوله كأنما هو يخشى أن يسمعه أحد، وسكت هو يحرق الأرم.

فقالت: «لا تغضب يا سيدي. ولا تحسبني أعاتبك، ولكني أستبطىء النجاح. فقد كاد شبابنا ينقضي في هذه الديار متسترين!».

فرفع بصره إليها وقال: «يعجنبي منك حماستك في سبيل الأمر الذي جئنا هذه الديار من أجله، ولا تظنيني جاهلاً مرادك، فأنا أعلم أنك أرقى نفساً من أن يكون مطلبك مني مثل مطلب سائر النساء الجاهلات. وقد تعاقدناوتعاهدنا على ذلك. وأما استبطاؤك النجاح فقد يكون في محله، وقد تكونين مخطئة، فإن لكل أجل كتاباً. وهل تحسبينني غافلاً؟ ولكن اعلمي يا عابدة أن الساعة دنت، وإن باب الفرج قد فُتح الآن، وأصبح إتمام العمل منوطاً بك». قال ذلك وتفرس في وجهها. فتحمست وقالت: «عليَّ أنا؟ إني طوع إشارتك. متى بلغ الأمر أن أصبح قضاؤه عليَّ فقد قضى».

فأعجب بقولها الدال على قوة العزيمة والحزم وقال: «أتطيعينني؟». فتنهدت وقالت: «وهل أقدر أن أعصاك؟ لا أعلم ما بعينيك من التأثير في خاطري. إني لا يقع بصري على بصرك إلا شعرت كأنك غلبتني على أمري وقيدت إرادتي بإرادتك فأشعر كأني عضو من أعضائك يخضع لإرادتك ويعصاني، فكيف تسألني عما إذا كنت أطيعك؟». قالت ذلك وأطرقت حياء.

فقال: «تطيعيني حتى الموت؟».

فقالت: «حتى الموت، وبعد الموت!».

قال: «لا أعني أن تعرضي نفسك للموت، بل أعني إذا اقتضت الحال أن تقتلي أحداً بيدك فهل تفعلين؟».

قالت: «إذا كان ذلك في إمكاني فعلته». قالت ذلك وقد أحست بقشعريرة خيفة، وسكتت، فتحفز للوقوف وهو يقول: «إني ذاهب الساعة إلى الاجتماع».

فتنهدت وقالت: «ألا يزال القوم يجتمعون كالعادة؟».

قال: «نعم، وهم يزدادون عدداً وقوة، حتى دخل في جمعيتنا هذه كل رؤساء القبائل الناقمة على الناصر، وفيهم آل حصفون الذين غلبهم على أمرهم، وجماعات كتامة وغيرهم من البربر، ونحن نترقب الفرص».

قالت: «وهل يعتقدون حتى الآن أنهم يجتمعون لإصلاح شؤون بلادهم؟».

قال: «إن المفهوم من أغراض هذه الجمعية عند أعضائها أنها تشكو من إيثار الناصر خصيان الصقالبة على أبناء العرب أو غيرهم من الأحرار، وتنتقد بذخه وإسرافه. هذا كل ما يفهمونه من الأغراض، وليس في هذه البلاد مَن يفهم حقيقة الغرض الأصلي إلا أنت وأنا، فأبقي على الكتمان».

فأطرقت لحظة وقد بدا الاهتمام في جبينها وقالت: «دعني أذهب معك».

قال: «ولماذا؟».

قالت: «افعل كما تفعلون. لعَلّي أستحث القوم على العمل».

قال: «أحسنت، هيا بنا». ونهض فنهضت معه وقد التفت بردائها، فأمسك بيدها وخرج من باب آخر في المنزل، ومشيا في الظلام وهي لا ترى شيئاً، ولو مشى بها إلى الجحيم وهو قابض على يدها لمشت لا تبالي شيئاً لأنها أسيرة إرادته كما يخضع مَن ينام نوماً مغناطيسياً لإرادة منوّمِه.

مشى سعيد، وعابدة معه، بين صعود وهبوط، حتى بعُدا عن الأبنية، وبعد حين وقف بها في مكان سمعت فيه طنين ساقية وخرير ماء، فقال: «وصلنا».

فنظرت عابدة إلى ما حولها فرأت بين يديها ماء يجري في نهر يلمع سطحه في الظلام فقالت: «نحن على ضفة الوادي الكبير، نهر قرطبة. أليس كذلك؟».

قال: «اصبري». وأخذ بيدها وأدخلها دهليزاً شديد الظلام بجانب الساقية، فتلمسا الحائط حتى وصلا إلى باب، فأخرج سعيد من جيبه مفتاحاً فتحه به ودخل وأغلقه وراءه، وعابدة تحملق بعينيها من شدة الظلام، فإذا هي ترى شعاعاً ضعيفاً ما زال يشتد حتى ظهر فرأت نفسها عند باب مغلق، فتقدم سعيد وقرعه قرعاً خاصاً ففتح له، ونظر إلى عابدة على النور فرأى سحنتها قد تغيرت قلقاً واضطراباً أثناء الطريق، فأشار إليها أن ترخي النقاب ففعلت، ودخل أمامها ثم أمرها أن تدخل، ومشى بها إلى مجلس في صدر القاعة فأجلسها على وسادة إلى جانبه، وتفرست في الوجوه فرأت شيوخاً وشباناً عرفت بعضهم، ورأت أناساً بينهم من رجال الدولة المروانية أنفسهم، فتهيبت برهة، ثم سمعت سعيداً يتكلم فقال: «يا قوم نحن الآن في جلسة مقدسة، وقد أتيت بهذه الأديبة من أهل دعوتنا لتعلموا أن النساء يشاركننا في النقمة على الحالة الحاضرة. فإلى متى نحن صابرون؟».

فنهض رجل من الحضور، وهو في عنفوان الشباب، وقال: «نحن صابرون لصبرك، قم بنا فإننا قائمون».

قال: «صدقت. ولكن العجلة لا تجدي. إن الأمر الذي نحن ساعون فيه يحتاج إلى أعمال الفكر. نحن ساعون في المطالبة بحق ضائع. إن هذا الرجل الذي جعل نفسه خليفة، وتلقب بأمير المؤمنين، قد استبد بالأحكام، واغتصب المناصب من أهلها، فسلمها إلى جماعة من الخصيان والعبيد حملوا إليه حمل الأغنام من أقصى

الشمال، فاشتراهم كما يشتري الماشية، ثم اختصهم بقربه، وأغفل أهله وأبناء عترته. ولم يبق إلا أن يولي القضاء فتى من فتيانه الصقالبة أو الإفرنج. إنه ينفق الأموال في بناء القصور وإقامة التماثيل، ويصنع حجارة البناء من ذهب، وقد نهى الله عن ذلك. إن الذين فعلوا هذا قبله أضاعوا الدولة والمملكة، فتبصروا في أمركم».

فنهضت عابدة، والنقاب لا يزال على وجهها، وقالت: «إني فتاة لا أعلم علمكم، ولكنني أعلم أن طول الصبر عجز وإن المبادرة حزم. إن عبد الرحمن صاحب هذا البلد، قد أفرط في الإسراف، وحط من قدر العرب وغيرهم من المسلمين الذين هم أصل هذا الدين وعماده، فعهد في أكثر مناصب الدولة إلى الخصيان والعبيد، واستكثر من هؤلاء حتى غصت بهم قصوره. وابتنى قصر الزهراء على اسم جاريته، وملأه بالخصيان والجواري والعبيد. إن في هذا القصر وحده ١٣٧٥٠ فتى من الخصيان، وفيه من الصبيان الصقالبة ٣٧٥٠، وعدد النساء فيه ٦٣١٤. ما فائدة الدولة من هؤلاء، وهو ينفق عليهم ألوف ألوف الدنانير من مالها؟.. أتعلمون كم ينفق؟ إن إحصاء هذا فوق طاقتي، ولكنني أذكر لكم مقدار ما ينفق لإطعام أسماك إحدى بحيرات الزهراء.. علمت أن ذلك قد بلغ في اليوم ١٢ ألف خبزة وستة أقفزة من الحمّص ـ تلك هي نفقة طعام أسماك إحدى البحيرات، فكم يكون مقدار النفقة على سائر حيوانات تلك القصور من الخيل والأسود والكلاب؟ بل كم هي نفقة أولئك الأولوف من الخصيان والعبيد؟ وإنما البلية من كثرة النساء، لأن كثرتهن تكثر الخصيان. هل فيكم مَن يقدر أن يضبط هذه النفقات ويحصيها؟ كلا. ولكنكم تعرفون جميعاً أنها باهظة».

كانت تقول ذلك بصوتها الرخيم، فلما وصلت إلى هذا الحد

بلعت ريقها وسكتت هنيهة، ثم عادت إلى الكلام فقالت: «وهؤلاء الخصيان الذين اشتراهم أصبحوا الآن كبار رجال الدولة، كصاحب الخيل، وصاحب الطراز. وقد اتخذ منهم جنده وحاشيته، وجالسهم وقرّبهم، وأصبح إذا أراد أن يكرم وافداً بعث منهم خصياً يستقبله، كما فعل اليوم بانفاذه ياسراً وتماماً لاستقبال رسل ملك القسطنطينية. وقد اتخذ من العبيد أيضاً جنداً وحاشية، وأهمل العرب والبربر الذين فتحوا هذا البلد، وجاهدوا في سبيل الإسلام، إن أعماله هذه دليل على قرب سقوط هذه الدولة. لا يغرنكم ما تسمعون به من الذنب، ولا ما تشاهدونه من أسباب الرخاء والترف، فقد كان مثل ذلك أو أكثر منه في الدولة العباسية على عهد الرشيد والمأمون. ولكنهم أهملوا أهل عصبتهم فاستقووا بالأتراك ليحاربوا بهم. فصار النفوذ إلى الأتراك، وهو صائر هنا إلى الخصيان إن لم تمنعوه بمبادرتكم، ويكفي لفتاة مثلي أن تقول ذلك، وإذا رأيتم أني أستطيع عملاً فاندبوني له والسلام».

وكانت تتكلم والحضور كأن على رؤوسهم الطير، وقد أحسوا بإهمالهم وتهاونهم فنهض شاب متحمس وقال: «إني أفدي الأمة بنفسي. اندبوني للقتل أو الفتك. إن أهلي وعترتي يعدون بالمئات، وهذا دمي بين أيديكم».

وصاح صائح بمثل ذلك، وعلت الضوضاء، فوقف سعيد وقال: «لا حاجة بنا إلى العجلة، انظروني فأخبركم بالوقت المناسب، لكنني أتقدم إليكم أن تجعلوا نصب أعينكم أن هذه الدولة لا بأس من بقائها، وإنما العيب في أميرها، ولا نرى ولي العهد إلا مثله، فإن أقرب المقربين إليه خصي صقلبي هو جعفر، فإذا صارت الخلافة إليه فلا يُرجى منه غير ما تراه من أبيه. لقد أعمى عبد الرحمن أبصار

الناس بالأبهة والزخرف والقصور التي بناها لجاريته. وسيكون ابنه الحكم مثله، ولا بد من النظر فيمن يصلح للملك سواهما. على أني أشكر لهذه الفتاة التي أتتنا وبثت فينا روح النشاط والهمة، وهي نفسها سيكون لها شأن في هذا العلم الجليل».

وبعد قليل انفضت الجلسة، وقد أقسم كل منهم على الكتمان والثبات، وعاد سعيد ومعه عابدة من حيث آتياً، حتى إذا وصل إلى ما توحيه إليَّ، ويكفي أن تريد ذلك وإن لم تقله، والآن اسمح لي.

فقالت: «ألم أقل لك أني أشعر كأني عضو من أعضائك، إنما أقول شيئاً عن الشيعة لئلا يسيئوا الظن بنا».

منزله قال لها: «لقد أُعجبت بك لأنك لم تذكري دولة العبيديين، ولا قلت بالانصراف».

قال: «موعدنا يوم الذهاب إلى الأمير عبد الله لنقدم له العقد الفريد وسأخبرك بذلك في حينه».

فحنت رأسها إيجاباً وابتسمت، وانصرفت وهي تلتفت إليه، وكان خادمها الخصي في انتظارها خارج الدار ليمشي في خدمتها إلى منزلها.

انصرفت عابدة وسعيد يشيعها ببصره، ثم وقف حيناً وغرق في بحار الهواجس ينظر إلى الأرض وهو يحك ذقنه بسبابته تارة ويتشاغل بإصلاح قبعة كان يلبسها على رأسه كالعراقية تارة أخرى، والخادم واقف وبيده المصباح ينتظر أمره ولا يجسر أن يخاطبه تهيباً مما في وجهه من ملامح الاهتمام والارتباك. ثم انتبه سعيد لنفسه، ومشى إلى غرفة الرقاد، وأشار إلى الغلام أن يضع المصباح هناك ويمضي.

ثم نهض سعيد فأغلق باب الغرفة واستلقى على فراشه، ولم يبدل شيئاً من ثيابه كأنه لا ينوي الرقاد في تلك الساعة. وظلّ مستلقياً برهة وهو غارق في التفكير، ثم جلس فجأة وأخذ يناجي نفسه قائلاً: «ماذا أعمل؟ إنها تحبني، تحبني كثيراً ولكنني لا أشعر إني أحبها، بل لا أقدر أن أحبها مع أنها جميلة وذكية و... لماذا لا أحبها وأريح قلبي من التفكير في سواها؟».

ولطم جبينه بكفه وصر بأسنانه ونهض، وأخذ يمشي في الغرفة، ثم وقف وقال: «مسكينة عابدة! إنها جميلة وأديبة وذكية، وهي تحبني، بل هي تعشقني وتتفانى في سبيل مرضاتي، فلماذا لا أحبها؟.. لماذا لا أحبها وأنزع صورة تلك القاسية القلب الشامخة الأنف من ذهني؟! نعم ينبغي لي أن أبغض هذه وأرذلها وأطرد خيالها من خاطري. آه! إني إذا فعلت ذلك فأنا سعيد البطل الحازم، وأكون أهلاً للأمر الذي يحسبني هؤلاء أسعى فيه، وإني إنما أقمت هنا نصرة للمظلومين ودفعاً لظلم الظالمين. نعم ينبغي أن يكون هذا غرضي الوحيد. نعم إذا طردت ذلك الخيال من خاطري، خيال تلك المتكبرة القاسية. إذا نزعتها من فكري وأحببت عابدة. إذا فعلت ذلك ارتاح قلبي فأتفرغ للعمل العظيم الذي يتوقعه الناس مني.. نعم هكذا يجب أن أعمل، هكذا يجب أن يكون سعيد القائد الحكيم الحازم».

قال ذلك وأخذ يخلع ثيابه، فخلع جبته وعلقها بوتد في الحائط، ثم نزع القبعة ودار وهو لا يدري أين يضعها لاضطراب خاطره، فرمى بها إلى الأرض، وأطفأ المصباح واستلقى، فعادت إليه هواجسه، وهجره النوم وتراكمت عليه الخيالات. فجعل الغطاء فوق رأسه كأنه يختبىء منها فرآها تزداد، وازداد تنبهه حتى سمع دقات قلبه بأذنه، ثم أخذته سنة من النوم فرأى حلماً أزعجه، فوثب من الفراش

كالمجنون وهو يقول: «لا. لا. يجب أن أحب عابدة التي تكاد تعبدني، وأنزع تلك الصورة من خاطري. وإلا فما أنا سعيد. وما أراني عاجزاً عن ذلك. لكن ما هذا الخيال الذي يتردد أمام عيني؟ ويلاه! اذهب عني أيها الخيال، دعني وشأني، إني قد عزمت على السلو... كيف لا؟! إني أشعر بقوة ازحزح بها الجبال، وأغالب أعقل الناس وأدهاهم، فهلا أقدر على امتلاك قلبي؟.. ماذا أرى؟.. هذا خيالها!». وأطبق كفيه على عينيه كأن أمامه شبحاً لا يريد أن يراه وقال: «اذهبي عني، دعيني وشأني، قد آن لي أن أرجع إلى رشدي وقد أدركت الأربعين.. فيجب أن أنسى لأنها نسيتني وعلقت بسواي. علقت بسواي؟ إذن هي احتقرتني فيجب أن أنتقم منها، أنتقم منها؟ لا لا.. لعلها معذورة! وإذا رأتني فربما تتذكر الماضي وتعود إليَّ.. هل يكون ذلك؟.. وافرحتاه! إني أراها تبتسم لي وتهم بمعانقتي.. آه ما أجمل رضاها؟! إنه ينسيني عابدة وسائر العباد.. هل يجود عليَّ الزمان بذلك؟ نعم لا بد أن يجود.. سأجعله يجود رغم أنفه.. سأضحي بكل شيء في سبيل الوصول إليها فأما نلتها، وأما انتقمت منها ومن..». وسكت لأنه سمع حركة، فتوهم أن عابدة قادمة نحوه، فوقف والظلام حالك، وهو يتوقع أن يسمع قرع الباب فلم يسمعه، فعلم أنه واهم، ولكنه عاد إلى تذكر عابدة فقال: «وعابدة المسكينة؟ أأهملها؟ لا. بل أجعلها سعيدة مع سواي.. أو.. ولكن بعد أن تخدمني في غرضي!».

قضى سعيد معظم الليل في أمثال هذه الهواجس، ولم ينم إلا عند الفجر بعد أن تعب وخارت قواه، وفي اليوم التالي عاد إلى عمله، فشغل عن هواجسه بمقابلة الزائرين، وهو على أحر من الجمر في انتظار يوم الاحتفال، وقد أخذ في التفكير والتدبير لينتفع من

الاجتماع في ذلك اليوم.

وأتته عابدة في فترة الانتظار تتذرع إلى رؤيته بالسؤال عن موعد الاحتفال، فأجابها بأنه لا يزال ينتظر خبره. فمكثت عنده حيناً تتشاغل بتقليب الكتب، وهو يبدي السرور برؤيتها، وفي خاطره تردد لم يظهر لها، فقد كان قوي الإرادة كبير المطامع، لا يبالي ما يقف في طريقه إلى هدفه، ولا بما قد يرتكبه في ذلك السبيل من الكبائر، فاتخذ من ساعات اجتماعه بعابدة، أثناء تلك الفترة، فرصة لتوطئة المعدات التي ينوي إعدادها لتنفيذ غرضه، وهي توافقه ولا ترى غير ما يراه. وفي جملة تلك المعدات كتاب قديم أخرجه من خزانة، وأخذ يقلب صفحاته، وفيها رسوم وأشكال من الطلاسم ووسائل كشف المخبآت، وهي لا تزداد إلا تعلقاً به وانقياداً له، حتى صارت تعتقد أنه قادر على كل شيء.

وبينما هما في ذلك إذ أنبأهما الخادم بقدوم الفقيه ابن عبد البر، فخف سعيد إلى استقباله، فلما دخل ورأى عابدة فرح بها، ووافق وجودها غرضاً جاء من أجله. فحيى وسلم على عابدة سلام مَن يعرفها، فردت التحية في حشمة رفعتها في عينيه، فوجه كلامه إلى سعيد قائلاً: «أظنني أتيت في غير الوقت المناسب؟».

فأظهر سعيد الاحتفاء الكثير وقال: «بالعكس يا سيدي، فقد جئت في إبان الحاجة إليك».

فنظر إلى الكتاب الذي بين يديه وقال: «هل عثرت على كتاب جديد؟».

قال: «كلا يا مولاي. إن هذا الكتاب قديم». وجعل يقلب فيه فوقع بصر الفقيه على رسوم وأشكال تعود أن يرى مثلها في كتب السِحر فقال: «وساحر أيضاً؟ إنك رجل نادر المثال».

فقال: «لا تستغرب شيئاً أيها الفقيه، فإن الإنسان إذا جدّ وجد ولا أراني أعمل شيئاً لا يستطيعه سواي. وأين أنا مما للفقيه من التبحر في الفقه وأصوله وهو الخطيب المفوه».

فقطع ابن عبد البر كلامه كأنه فوجيء بخاطر فتق له في تلك اللحظة ولم يكن في حاله من قبل، مع أنه جاء من أجله فقال: «لست في شيء من ذلك. وقد ذكرتني أمر الخطاب».

فأدرك سعيد ما في نفسه إلى القول: «إنما قلت ما قلته لأتدرج إلى سماع خطابك. هل أتممته؟».

فمد ابن عبد البر يده إلى جيب قفطانه وأخرج منديلاً فيه لفافة فضه وقال: «هذا هو الخطاب، ولم يأت كما كنت أحب، ولكن لا بأس به».

فأومأ سعيد إلى عابدة فقالت للفقيه: «ما أظننا نستحق أن نسمعه قبل مولانا أمير المؤمنين».

قال وقد أثر قولها فيه: "كيف لا، إذا شئت تلوته، ولكنني لا أراه أهلاً لإعجاب أديبة مثلك!".

فابتسمت وأشارت إليه أن يقرأ إذا شاء فقال: «أتلوه عليكما على سبيل التجربة، وإذا بدا لكما انتقاد فقولاه».

فأشار سعيد بعينيه وشفتيه أنه يجل الفقيه عن أن يكون موضع نقد رجل ضعيف مثله، ثم أصلح الفقيه موقفه، وأخذ يتلو الخطاب كما يتلى في حضرة الخليفة، وسعيد وعابدة صامتان مصغيان يبديان الإعجاب عند بعض المواقف وما أتى على آخر الخطاب حتى امتلأ إعجاباً بنفسه، وسعيد وعابدة يطنبان ويعجبان حتى قال سعيد: «إذا قدر أمير المؤمنين هذا الخطاب قدره جعلك قاضي القضاة أو شيخ

أهل الفتوى».

فحنى الفقيه رأسه تواضعاً، وهو في الحقيقة يظن نفسه فوق ما سمعه، ولكنه خاطب سعيد قائلاً: «إن العبرة بالتوفيق، فإذا وفقت إلى ساعة سعيدة، وآزرتني بدعائك نجحت إن شاء الله. ولكني أرى كتاب الطوالع بيدك فأخبرني عما سيكون من حظي بعد تلاوة الخطاب».

فقال وهو يفتح الكتاب: «ذلك رهن باليوم الذي يُقام فيه الاحتفال، إذ لكل يوم طالع قد يوافق نجمك وقد لا يوافقه، هل تعرف يوم الاحتفال؟».

قال: «حددوا له يوم السبت القادم ١١ من ربيع الأول».

فأخذ سعيد يقلب صفحات الكتاب ويقرأ، ويعيد القراءة ويعيد التقليب، وقد بدت البغتة في عينيه، ثم قال: «أواثق أنتَ من أنه سيكون يوم السبت المقبل؟ لعلك واهم».

فاختلج قلب الفقيه في صدره خوفاً وقال: «لعل ذلك اليوم لا يوافق طالعي؟».

قال: «لا أعني ذلك، ولكنني أحب أن أعرف الذين يشهدون ذلك الحفل، فإن الطالع يتغير بتغير الجواذب والدوافع من الطوالع الأخرى». ثم وصل إلى صحيفة وقف عندها طويلاً وقال: «إن طالعك إذا استقل فلا خوف عليه في أي يوم كان، أما إذا زاحمه طالع آخر أرى صفته في هذا الكتاب، وكان ذلك في يوم السبت، فقد يصيبه ضرر. ولكن هذا غير مؤكد. فتوكل على الله، واعلم أنك أحسنهم جميعاً. وإنما أطلب إليك متى أحرزت ذلك المنصب الرفيع ألا تنسى صاحبك سعيداً».

فأقلقه الارتياب، ولكنه اطمأن للعبارة الأخيرة، فضحك وهز رأسه استخفافاً بتلك التهمة ولسان حاله يقول: «كيف أنساك؟». وزاد ذهنه تعلقاً بنيل هذا المنصب.

وبينما هم في ذلك إذ دخل ياسر كبير فتيان الناصر، وكان قد أكثر من التردد على سعيد بعد مقابلته الأخيرة، وأسر إليه أموراً فرحه بها وزادت الروابط بينهما سراً وارتفعت الكلفة، فاحتفل سعيد بياسر أمام ابن عبد البر، وبالغ في تبجيله وإكرامه، وقدم له كرسياً ليقعد عليه، كل هذا والفقيه ما يزال قابضاً على اللفافة فهم بوضعها في جيبه وأخذ يسلم على ياسر، فرأى منه احتفاء وإكراماً فوق العادة فأنس به، ثم قال سعيد لياسر: «هل يرغب الأستاذ في خدمة؟».

قال: «كلا، ولكني تذكرت سؤالك عن يوم الاحتفال باستقبال رسل القسطنطينية لأنك تحب حضوره، وكنت قد جئت على بغلتي إلى هذه الجهة لشأن لي، فرأيت أن أمر بك وأخبرك أن الاحتفال سيكون يوم السبت القادم، وقد سرني أني لقيت الفقيه هنا لأوصيه بأن يرافقك إلى القصر الزاهر حيث يكون الاحتفال».

قال: «أشكرك يا سيدي على هذه العناية». والتفت إلى الفقيه وسأله عن الملتقى فقال: «نلتقي في المسجد قرب باب الجنان المطل على الرصيف فوق الوادي الكبير، وهو أقرب أبواب القصر إلينا على ما أظن».

قال: «حسناً سأوافيك إلى هناك صباح يوم السبت القادم إن شاء الله».

وهَمّ ياسر بالانصراف، فاستوقفه الفقيه بقوله: «هل كنت تعرف قبل الآن أن لسعيد معرفة بالتنجيم والطوالع؟».

قال: «وأعرف فوق ذلك أنه طبيب وكيميائي».

فعجب الفقيه وهز رأسه وقال: «وكيميائي أيضاً؟ إنه كل شيء».

وكانت عابدة أثناء ذلك مشتغلة بكتاب في يدها تقلب صفحاته، وكلما سمعت أطناباً في سعيد اختلج قلبها فرحاً به، وتنهدت تنهيداً عميقاً.

وانتبه الفقيه لها في تلك اللحظة فقال لياسر: «وهل عرفت هذه الفتاة الأديبة؟ ما أظن أن في قصور أمير المؤمنين فتاة في مثل أدبها وتعقلها».

فالتفت ياسر إلى الفتاة، وقد خجلت من ذلك الإطراء، وعلت وجهها حمرة وأبرقت عيناها، فقال ياسر: «هل تحفظ الشعر والأدب؟».

قال سعيد: «نعم يا سيدي، إنها تحفظ الكثير من أشعار العرب وأمثالهم وأخبارهم».

قال: «ليس بين نساء قصر أمير المؤمنين مَن يحفظ الشعر إلا الزهراء، ولذلك فإنها أقرب جواريه إليه كما تعلمون، لأن مولانا الناصر كثير الشغف بالأدب وأهله، على أن علمها قليل بجانب ما تذكره عن هذه الحسناء».

فندم الفقيه على توجيه نظر ياسر إلى عابدة مخافة أن يسعى في أخذها إلى الخليفة، وهو يحب أن يكون للأمير عبد الله فيكون له حظ من أدبها، فغيّر الحديث واستأذن في الانصراف على موعد اللقاء يوم السبت. وبعد قليل انصرف ياسر بعد أن ودع سعيداً وقد تفاهما.

استقبال رسل الروم

أخذ أهل قرطبة يتأهبون لاستقبال رسل ملك القسطنطينية في

البناء المعروف بالقصر الزاهر، أحد أبنية القصر الكبير، لأن هذا القصر كان مؤلفاً من قصور عدة كما تقدم، وهو واقع في الطرف الغربي من قرطبة، يطل على نهر الوادي الكبير الذي يجري من الشرق الشمالي إلى الغرب الجنوبي. والقصر يشغل مساحة كبيرة تتخللها البساتين والحدائق والأحواض والبرك والبحيرات والقصور، ويحيط بها جميعاً سور له بضعة أبواب، منها بابان في الجنوب يطلان على النهر هما: باب الجنان والسطح، وواحد في الشمال اسمه باب قورية، وآخر في الشرق هو باب الجامع. والأخير في الغرب ويقال له باب الوادي. والاثنان الأولان يشرفان على النهر، وبينه وبينهما رصيف عريض يفصل قرطبة عن النهر، يخرج إليه الوجهاء وأهل الدولة للتنزه بقرب النهر.

وفوق النهر جسر فخم يصل بين قرطبة وأرباضها الجنوبية طوله ثمانمائة ذراع، وعرضه عشرون ذراعاً، وارتفاعه ستون ذراعاً، وعدد قناطره ثمان عشرة، وفوقه تسعة عشر برجاً، وهو يُعد من مفاخر قرطبة، ولا يزال إلى اليوم من آثارها الفخمة.

وكان منزل سعيد في الأرباض، ولا بد له في ذهابه إلى القصر من المرور على ذلك الجسر. فلما كان اليوم المحدد للاحتفال لبس لباساً فاخراً على شكل يلفت انتباه أهل قرطبة، وفيه مشابهة للباس العلماء والأطباء مع فخامة واتقان، وكبر العمامة على الخصوص، مع أن أهل الأندلس قلما اعتنوا بالعمائم، وغرس في عمامته قلماً، وتمنطق فوق القفطان بمنطقة من جلد غرس فيها دواة من الفضة، واكتحل بالإثمد اكتحالاً كثيفاً، وركب بغلته وساقها يطلب باب الجنان من أبواب القصر، ومشى خادمه في ركابه. وكان ركوب البغال في الأندلس من دلائل الجاه والثروة. فقطع سعيد مسافة في

الطريق إلى الجسر، فلما قرب من الوادي أدرك ذلك مما سمعه من ذوي الطحن بجواره، فقد كان في ذلك الوادي خمسة آلاف رحى تطحن الحنطة وغيرها، وكلها تدور بمجرى الماء.

وبعد قليل أشرف سعيد على الجسر، فرأى الإقدام قد تزاحمت فيه لكثرة الوافدين على القصر أو على الرصيف لرؤية الاحتفال بأولئك الرسل. ورأى ما على الجسر من الأبراج في الجانبين، وبين البرج والبرج ثمانون ذراعاً، وعليها الأعلام منصوبة تخفق مع الريح، فقطع الجسر بين الجماهير، والشمس لم تتكبد السماء بعد، فوصل إلى الرصيف وقد تجمهر فيه الناس رجالاً ونساءً وأطفالاً بين راكب وماش وواقف على طول الرصيف، ولا سيما بقرب الجسر، لأن الرسل سيمرون بهم عند انتقالهم من منزل ولي العهد في الربض بعدوة قرطبة إلى القصر الكبير. وقد تفرقت الأجناد في الطرق لمنع الزحام. فظل سعيد سائقاً بغلته حتى وصل إلى الجامع، فلم يجد ابن عبد البر فيه، ولكنه وجد خادماً صقلبياً واقفاً بانتظاره. فلما رأى سعيداً قال له: «إن مولانا الفقيه سبقك إلى السطح المشرف فوق الباب وراء هذا الجامع، ويرغب إليك أن تذهب إلى هناك لتشرف من ذلك السطح على النهر والجسر والرصيف والقصر جميعاً». فساق بغلته إلى ذلك الباب، وعليه سطح مشرف لا مثيل له في العالم، فتحول وترك البغلة للخادم وصعد إلى السطح من سلم بجانب الباب، فرأى الفقيه جالساً في انتظاره، فوقف له ورحب به وقال: «أظنني أتعبتك بالمجيء إلى هنا، ولكنني أعلم أنك تُسرّ بهذا المنظر الجميل».

فوقف سعيد إلى جانبه وتلفت إلى ما يُشرف عليه فإذا هو يرى النهر والقوارب والجسر، والأعلام تخفق فوق الأبراج، وقد تزاحم

الناس وتحاكت مناكبهم، وفيهم العربي والصقلبي والبربري والمستعرب - وهو في اصطلاحهم الإسباني الذي يتكلم العربية - من الرجال والنساء والأطفال، يتخللهم الباعة بالأطباق على رؤوسهم، وفيهم مَن يحمل طعاماً أو فاكهة أو نقلاً، والسقاة يحملون الجرار على ظهورهم ينادون: «سبيل يا عطشان». وبين هذه الأخلاط من الناس رجال الجند تتشابه ملابسهم، وفيهم الصقالبة البيض، والرحالة العبيد، وقد رتبوا صفوفاً حسب رتبهم وأجناسهم. فوقف صف من العبيد عليهم الحواشن والأقبية البيض، وعلى رؤوسهم الخوذ الصقلبية، وفي أيديهم التروس الملونة، منتشرين على طول الجسر إلى باب الجنان من أبواب القصر يتخللهم فرسان منهم.

وأومأ الفقيه إلى سعيد أن يلتفت شمالاً غرباً نحو أبنية القصر وبساتينه، فرأى ما بهره من القصور المختلفة الأشكال، وبينها الحدائق والبساتين تتخللها البرك والبحيرات والأحواض من الرخام المنقوش، وعليها تماثيل من الرخام أو الفضة على أشكال مختلفة، يجري ماؤها من أنابيب بعضها كأفواه الحيوانات، وأكثرها من الرخام، وبعضها من الفضة، وبعض آخر من الذهب يتلألأ عن بُعد في أشعة الشمس. وبعض الأحواض عليها التماثيل من النحاس المموّه على أشكال جميلة، والماء ينبثق من جوانبها، فيتلون رشاشه بألوان قوس قزح. فدهش سعيد من تلك المناظر التي لم تسبق له رؤيتها من ذلك السطح المشرف فقال: «حقاً أن الخليفة الناصر قد أبدع في تدبير هذا القصر واتقانه، وأغرب ما فيه هذه الأحواض المنقوشة وعليها التماثيل يتفجر الماء من جوانبها أو رؤوسها أو أفواهها. هل هو ماء النهر حمل إليها؟».

فضحك الفقيه وقال: «ماء النهر؟.. وهل يصعد الماء من هذا

الوادي إلى هذه المصانع؟ إنما هو ماء مجلوب من هذه الجبال العالية وقد أنفقوا في سبيل جلبه ما لا يقدر من الأموال. يكفي أن تتصور جلب هذا الماء من تلك الجبال إلى هذه القصور في قنوات من الرصاص! فكم نقروا من الصخور وبنوا من القضب لتدبير الماء في جريه بالأنابيب المذكورة! ثم تصور توزيع الماء بعد وصوله إلى هذه القصور والبحيرات والبرك والصهاريج حتى ينصب من تماثيل الفضة أو الرخام أو النحاس المموه، وبعضه يجري في أنابيب الذهب. هذا غير ما أنفقه في نقش هذه التماثيل الرخامية فوق الأحواض».

وكان ابن عبد البر يتكلم وسعيد مطرق يفكر، حتى فرغ الرجل من كلامه فقال له: لايدهشني ما أنفق من الأموال أكثر مما يدهشني اتخاذه تلك التماثيل.. فهل أفتيتم له باتخاذها وهي محرمة على ما أعلم؟».

فهز الفقيه رأسه وقال: «مَن أفتى له؟ إنه أفتى لنفسه».

ثم استوقفهما صوت النفير، فالتفتا نحو الجسر فرأيا الناس يتسابقون نحوه لمشاهدة أولئك الرسل وقد أقبلوا على أفراسهم وعليهم الألبسة المذهبة تتألق بضوء الشمس فوق السروج المفضضة، وقد أحاطت بهم كوكبة من الفتيان الوصفاء من شبان الصقالبة عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية، وقد امتطوا الجياد عليها اللجم المحلاة بالذهب. وقد بالغ عبد الرحمن في إظهار الأبهة والعظمة إرهاباً للأعداء».

فأراد سعيد أن ينزل عن السطح فقال له الفقيه: «إلى أين؟ إن الطريق مسدود بالناس، ولا سبيل لنا إلى القصر الآن، فالأفضل أن نمكث هنا حتى يمر الركب، ثم ندركه على عجل أو نسبقه من طريق مختصر أعرفه.. انظر إلى ما أراده أمير المؤمنين من الإرهاب بإيقاف

أحسن رجاله في طريق الرسل. إن رجالته العبيد مصفوفون على الجسر، وهذه كوكبة من الفتيان الأصاغر تحيط بالرسل.. ألا ترى هؤلاء الروم قد أحنوا رؤوسهم خوفاً ورهبة؟ انظر إلى باب الجنان كم نصب عليه من الأعلام، وكم وقف بجانبه من الفرسان وعليهم الألبسة الثمينة! هؤلاء ذوو الأسنان من الفتيان الصقالبة وقد لبسوا البياض وبأيديهم السيوف، ووراءهم ـ من هذا الباب في الداخل إلى الباب الثاني من أبواب القصر ـ صف من الرماة وقد تنكبوا قسيهم وجعابهم. وإذا أمعنت نظرك في الوقوف بالباب الثاني وما وراءه رأيت طائفة أخرى من الصقالبة الأكابر في أثمن من ذلك وأبهج. لا ريب عندي أن الروم قد دهشوا من هذه المناظر. وسنرى أغرب من ذلك متى أتيت القصر ورأيت ما أعدوه هناك من الرياش والأثاث ومظاهر الملك وأبهة الدولة».

قال سعيد: «أخاف أن يبدأ الاحتفال قبل وصولنا فيذهب تعبنا سدى».

فهز رأسه وقال: «إنهم لا يبدؤون قبل وصول الخطباء.. ومع ذلك فإني آخذك من طريق مختصر نصل منه إلى القصر قبل وصول الناس إليه».

قال: «افعل ما شئت».

فتحول الفقيه وتحول سعيد معه، فلما صارا في الطريق أشار الفقيه إلى سعيد أن يترك بغلته ويسير معه ماشياً لأن ذلك أسهل عليهما. فأشار سعيد إلى خادمه أن يحتفظ بالبغلة، ومشى مع الفقيه في البساتين بين الأشجار والرياحين، وقد سره المشي هناك بدل الركوب، ليتمكن من رؤية كل شيء، فكثيراً ما وقف عند بعض الأحواض الرخامية يتأمل انصباب الماء من جوانبها أو من أواسطها

في الأنابيب المختلفة الأشكال والألوان، وحولها البستانيون يتعهدونها بالإصلاح والري والتنظيم. ولحظ الفقيه إعجابه بما يشاهده هناك فقال له: «أراك قد دهشت مما تراه في هذا القصر من البذخ، فكيف إذا دخلت الزهراء ورأيت قصورها وقاعاتها وحدائقها وقبابها؟ أو رأيت القبة وقرميدها من الذهب؟».

فصاح سعيد: «قرميدها من الذهب؟ إني أستغرب ذلك من أمير المؤمنين خليفة النبي صلى الله عليه وسلم، وإني لأذكر أنه كان ينهي عن مثل ذلك من قبل».

فوضع الفقيه سبابته على شفته السفلى محذراً إياه أن يستمر في هذا الكلام.

في القصر الزاهر

وما زالا ينتقلان من بستان إلى بستان، ومن حديقة قصر إلى حديقة قصر آخر، وقد سبقا الموكب، حتى أطلا على القصر الزاهر، وهو من أجمل أبنية القصر الكبير، فتأمل سعيد واجهته فرأى عليها نقوشاً كالوشم على المعصم في أشكال جميلة تتخللها الأبواب في الأسفل وهي في غاية ما يكون من اتقان النقش ويزيّنها في الطبقة العليا النوافذ والأحنية والقناطر كالرواق القائم على أساطين الرخام، وعلى تيجانها نقوش وكتابة وفوق التيجان الأقواس قد قسمت سقفها إلى مربعات متداخلة، ورسمت فيها الآيات والدعوات حفراً أو تصويراً. وعلى أفاريز النوافذ أبيات من الشعر مذهبة، والأفاريز من الشكل المقرنص. وتنتهي تلك الطبقة بطنق بارز هو امتداد السطح إلى الخارج، وعليه نقوش غاية في الجمال، وحول النوافذ زجاج ملون مصنوع على أشكال هندسية في أجمل زينة.

ولم يستطع سعيد التفرس في ذلك البناء طويلاً، إذ رأى ببابه

بعض الحرس وقوفاً، وهم من خاصة الفتيان الأكابر والمقدمين، عليهم الألبسة المطرزة بالقصب، وعلى أكتافهم الظهائر المذهبة، وعلى رؤوسهم القلانس المذهبة الهرمية الشكل، وقد تقلدوا السيوف المذهبة أيضاً، وهم نخبة الرجال قامة وجمالاً وهيبة مما يستوقف الأبصار. فتهيب سعيد تلك العظمة، ولم يكن يتصورأن أبهة الملك تبلغ إلى هذا الحد، فقال في نفسه: «كيف يكون البهو الداخلي الذي أعدوه لاستقبال الرسل؟! ولم يستطع دخول القصر إلا بعد أن رأى الحرس رفيقه الفقيه ابن عبد البر، وتحققوا أنه من حاشية الأمير عبد الله وصنيعة الحكم، فدخل وتبعه سعيد، فمشيا في طريقات بين الأشجار مفروشة بالأزهار والرياحين حتى أتيا الباب الخارجي، وقد فرش من عتبته إلى الدهليز وصحن الدار وهو البهو الخارجي بعتاق البسط وكرائم الأرائك، وظللت أبواب الدار وحناياها بطلل الديباج ورفيع الستور.

وصعدا من ذلك الصحن بضع درجات من الرخام إلى بهو واسع قد نقش سقفه وأفاريزه بالذهب والألوان الزاهية، وأكثرها الأحمر والأزرق والأصفر، وجللت جدرانه بالديباج، وفرشت أرضه بالبسط الثمينة، ونصبت المقاعد والكراسي في جوانب البهو على مقتضى الرتب والمناصب.

وفي صدر البهو سرير الخليفة من الذهب المرصع بالزمرد والياقوت، فوقه قبة فيها نقوش وأبيات على أبدع تصوير، وقد فاحت رائحة العنبر من مبخرة مذهبة نصبت في بعض جوانب البهو، ولم يؤذن لهما في دخول هذا المجلس لأن الخليفة لم يكن قد وصل بعد. فوقفا حائرين، وسعيد يتأمل كل شيء ويعمل فكرته في كل شيء، ثم لاحت منه التفاتة فرأى ياسراً ينظر إليه، فأشار إليه سعيد أنه يريد الدخول، فتقدم ياسر وقال له: «لا يجوز الدخول قبل قدوم الخليفة،

ولكن لا بأس من دخولكما خلسة من باب سري، فتجلسان في مكان لا ضرر منه، ويريان الناس عند دخولهم. ومتى انتظم عقد الجلوس تجلسان في هذا المكان مع جماعة الفقهاء». وأشار إلى المكان.

فسُرّ سعيد لهذه الفرصة، ودخل ومعه ابن عبد البر حتى وقفا وراء بعض الأساطين في آخر البهو بحيث يريان كل قادم ولا يراهما أحد. ولم تمض هنيهة حتى سمعا لغطاً ورأيا الخصيان في حركة، فأدرك سعيد ذلك فالتفت إليه وقال: «أظن مولانا أمير المؤمنين قادماً». فأشار الفقيه برأسه أن نعم.

ثم رأياه مقبلاً، وقد تزيّى بزي الخلفاء، فنظر سعيد إلى الفقيه كأنه يسأله. فقال له بصوت خافت: «لو دخلت على أمير المؤمنين منذ بضع عشرة سنة لرأيت لباسه يختلف عنه الآن. انظر إلى هذا القضيب الذي بيده، إنه قضيب الخلافة، وهو لم يصر خليفة إلا منذ بضع عشرة سنة، وها هو الآن يلبس العمامة المرصعة بالجواهر، ويرتدي بردة كالبردة التي كان يلبسها الخلفاء من قبله. لكنه جعلها بيضاء تشبها بلباس أقربائه بني أمية بالشام. وترى تحت البردة قباء من الوشي، وهو لباس الأمويين في أيام دولتهم بالشام أيضاً».

وكان الفقيه يتكلم بصوت منخفض يحاذر أن يسمعه أحد لخلو القاعة من الناس وهدوء المكان. وسعيد شاخص ببصره إلى الناصر يتبين ملامحه ويستطلع هيئته، فرآه أبيض اللون مشرباً حمرة، أزرق العينين وقد وخطه الشيب ولكن في محياه هيبة وقوة، وقد مشى وبيده قضيب الخلافة. والجلا يتجلى في جبينه، والذكاء ينبعث من عينيه. وشغل سعيد على الخصوص بما على عمامة الخليفة من الجواهر، والتفت نحو الفقيه فرآه يبالغ في الانزواء خوفاً من وقوع بصر الخليفة عليه فقال له: «إن أمير المؤمنين فوق ما كنت أتصور، ويظهر لي ـ مع

كون والدته أمة نصرانية ـ إن هيبة الخلفاء لم تنقص شيئاً».

فقال الفقيه: «لا أظنك تجهل أن أمهات أكثر الخلفاء في الدولتين الأموية والعباسية من الإماء. وبعضهن من الجواري. أما أم مولانا فهي نصرانية جميلة، وكان اسمها مارية».

وفي أثناء هذا الحديث كان الخليفة قد جلس على السرير في صدر البهو فوق عرش مرتفع، ووقف بين يديه جماعة من كبار الفتيان يتلقون أوامره، وعليهم ألبسة تأخذ بالبصر لما فيها من الطراز المذهب والألوان الزاهية. وسعيد لا يرفع بصره عن الناصر، وقد أوهمه أمره كثيراً، فرآه ينظر إلى باب البهو ويبتسم، ويشير برأسه مرحّباً، فالتفت سعيد فرأى الحكم ولي العهد داخلاً في لباس فاخر، ونضارة الشباب تتجلى في وجهه، وقد فاحت منه رائحة المسك، ومَن يراه يعرف أنه ولي العهد لأنه كان يلبس القلنسوة الخاصة بذلك. فلما اقترب من أبيه ناداه إليه وأجلسه إلى يمينه وهو يبتسم له.

ثم دخل ابنه الثاني الأمير عبد الله ـ وكان البهو قد غصّ بالناس، فلم يعد الفقيه يخشى أن يسمع صوته ـ فلفت الفقيه نظر سعيد إليه وقال: «هذا مولانا الأمير عبد الله. فكيف تراه؟».

قال سعيد: «أراه أحسنهم جميعاً، إني أرى التقوى ظاهرة في وجهه، وأظنهم لو خيّروه في اللباس لاختار الجبة والعمامة الساذجة، فاستغنى عن هذه الملابس الفاخرة بما يزينه من الخلال الحميدة».

فقال الفقيه: «لقد أصبت بفراستك كبد الحقيقة، إن الأمير عبد الله من الزهد والتقوى على جانب عظيم، حتى تكاد لا تجد عنده من الخصيان أحداً، لأنه على غير رأي أبيه في الترف والبذخ. ولذلك سموه الزاهد. وله شِعر حسن».

فابتدره سعيد قائلاً: «هذا هو الرجل المطلوب. أنه إذا تولى الخلافة أعادها إلى رونقها ونقاها من الأدران الخارجية».

فهمس الفقيه في أذنه: «دعنا من هذا الآن».

وجاء بعد عبد الله إخوته عبد العزيز، فالاصبع، فمروان. ثم أشار الخليفة إلى الخصيان الأكابر الموكلين باستقبال الناس وإدخالهم إلى مجالسهم - وفي جملتهم ياسر - أن يدخلوا سائر بني مروان، فدخل المنذر ثم عبد الجبار وجلسوا يميناً وشمالاً. وأخيراً دخل الفقهاء، فاندس ابن عبد البر وسعيد في جملتهم، وجلسوا في أماكنهم المعدة لهم. ودخل الشعراء فأقاموا في مصافهم. واصطف الحجاب من أهل الجندية من أبناء الوزراء والموالي والوكلاء وغيرهم وقوفاً في أطراف البهو، وراء جدار قصير يفصل البهو عن شبه الروق حوله، فاجتمع من ذلك كله منظر رائع مهيب، وزاده هيبة سكوت الناس، حتى الخليفة وأولاده.

وجاء ياسر بعد قليل، فوقف بحيث يعلم الخليفة أن لديه ما يعرضه عليه، فاستقدمه فقال له: «إن الرسل في البهو الخارجي». فقال: «ادخلهم».

وأدرك الحضور أن الرسل قادمون، فاتجهت الأبصار إلى الباب، وإذا بياسر قد دخل ثم تنحى، فتقدم الرسل خاشعين، وهم بضعة رجال عليهم رئيس منهم، وقد لبسوا لباس كبار الروم، فتقدم الرئيس، وكان عليه القلنسوة والبرنس، فخلعهما قبل دخوله، فتناولهما بعض الخدم.

وفعل مثل ذلك رفاقه من الرسل، ومشوا بين صفين من الجند في البهو الخارجي حتى انتهوا إلى البهو الداخلي، فحالما وقع بصرهم على سرير الخليفة خرّوا سجداً، ثم نهضوا ومشوا بضع خطوات وعادوا

إلى السجود. فعلوا ذلك مراراً إلا رجلاً منهم كان في آخرهم يحمل صرة من الديباج على كتفيه، فاكتفى بإحناء رأسه. ولما دنوا من سرير الخليفة تنحى الوفد إلا رئيسه فقد تقدم ومال على يد الخليفة يقبّلها، فمنعه الناصر، وأشار إليه أن يجلس هو ورفاقه على وسائد من الديباج موشاة بالذهب أعدت لهم على نحو عشر أذرع من السرير فجلسوا إلا حامل الصرة.

وأذن الخليفة لرسل الروم في الكلام، وكان يخاطبهم بوساطة التراجمة. فنهض رئيس الوفد وتقدم إلى السرير باحترام، وقدم للخليفة تلك الصرة بعد أن تناولها من حاملها. فأشار الخليفة إلى أحد الخصيان أن يفتحها، ففتحها، فإذا داخلها درج من الفضة عليه غطاء من الذهب قد نقشت فيه صورة الملك قسطنطين من الزجاج الملون البديع. ففتح الدرج فإذا فيه كتاب من ورق مصبوغ بلون سماوي، ومكتوب بالذهب بالخط الإغريقي (اليوناني) وهو كتاب صاحب القسطنطينية قسطنطين بن ليون إلى الخليفة، وداخل هذا الكتاب رسالة مصبوغة أيضاً ومكتوبة بالفضة بالحرف اليوناني كالأولى.

فتناول الخليفة الكتابين، وأخذ يقلّبهما، فوجد على الكتاب الأول طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على أحد وجهيه صورة المسيح، وعلى وجهه الآخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده. وأما المدرجة ففيها وصف هدية الملك للخليفة وعددها.

وكانت أنظار الجلوس متجهة إلى الكتاب، وأفكارهم متطلعة إلى معرفة ما يتضمنه، فأشار الخليفة إلى مَن يترجمه، فقرأوا العنوان على ظاهره ما ترجمته: «من قسطنطين ورومانيي المؤمنين بالمسيح، الملكين العظيمين ملكي الروم» في سطر، ثم «إلى العظيم الاستحقاق والفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب

بالأندلس أطال الله بقاءه» في سطر آخر. ثم أمر الخليفة بالاحتفاظ بالكتاب وتسلم الهدية فاستوقف انتباهه منها اسم كتاب سُرّ به كثيراً، وهو كتاب الحشائش تأليف ديسقوريدس العالم النباتي المشهور، فأمر الخليفة بإحضار الكتاب لتقليبه والنظر فيه فأتوه به، فإذا هو مكتوب بالخط الإغريقي، وقد صورت فيه الحشائش كلها بالتصوير الرومي العجيب. وجاء مع هذا الكتاب أيضاً كتاب هروشيوس صاحب القصص، وهو تاريخ للروم فيه أخبار الدهور وقصص الملوك باللغة اللاتينية، وكان في جملة ما كتبه إليه: «إن كتاب ديقوريدس لا تجتنى فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني ويعرف تلك الأدوية، فإن كان في بلدك مَن يحسن ذلك فزت أيها الملك بفائدة الكتاب. وأما كتاب هروشيوس فعندك في بلدك من اللاتينيين مَن يقرؤه باللسان اللاتيني. ويستطيع نقله إلى اللسان العربي».

فلما اطلع الناصر على ذلك الكتاب انبسطت أسارير نفسه وسُرّ سروراً كثيراً بتلك الهدية، واعتز بسلطته وجلالة قدره. وكان سعيد أثناء اشتغال الخليفة بمشاهدة الهدية يحادث جاره الفقيه. ولما فرغ الخليفة من مشاهدة الهدية أنس سعيد اضطراباً في وجه الفقيه فعلم أنه يتهيب الوقوف للخطابة، وهَمّ بسؤاله فسبقه الفقيه إلى السؤال قائلاً: «ها نحن أولاء في المجلس، ولا يلبث الخليفة أن يدعوني للخطابة، فما رأيك؟ هل أنجح؟ استطلع لي الطالع». فأخرج سعيد الكتاب من جيبه خلسة وفتحه، وأخذ يقلب فيه وينظر إلى الحضور حوله ويُعيد النظر في الكتاب، وابن عبد البر ينتظر ما يقوله. ولما طال سكوته شغل باله وارتبك في أمره مخافة أن يسمع ما يحزنه. وبينما هو في الاضطراب إذ سمع صوتاً يناديه من صدر البهو، عرف فيه أنه صوت الحَكَم ولِيّ العهد يقول: «يسمعنا الفقيه محمد بن

عبد البر الكسيباني كلمة في وصف هذا المجلس الحافل».

وكان الخليفة هو الذي طلب إلى وليّ العهد أن يختار مَن يراه من الفقهاء أهلاً للخطابة قبل أن يتقدم الشعراء للإنشاد. فاختار ابن عبد البر لأنه كان صنيعته، وكان يدعي القدرة على تأليف الكلام بما ليس في وسع غيره، فلما سمع ابن عبد البر ذلك النداء أجفل وزاد ارتباكه وذهب الخطاب من خاطره، لكنه وقف وقد امتقع لونه، وأخذت لحيته ترقص في وجهه، وشفتاه ترتجفان، وزادته أبهة المقام وجلاً، فارتج عليه ولم يهتد إلى كلمة يقولها وغلبه الخجل القنوط، فأُغمي عليه وسقط إلى الأرض، فاشتغل سعيد بإيقاظه والاهتمام بأمره حتى أفاق فأجلسه وأخذ يخفف عنه.

ونهض في أثناء ذلك إسماعيل القالي صاحب الأمالي ـ وكان حاضراً ـ فخطب، وخطب أيضاً المنذر بن سعيد أحد الفقهاء فأجاد كثيراً، وآل ذلك إلى توليه القضاء بعد حين. ثم أنشد الشعراء قصائدهم إلى أن انفض الاحتفال وتفرق الناس ومضى كل إلى سبيله.

أما سعيد فشارك رفيقه الفقيه في أسفه وقال له: «والله إني كنت خائفاً هذا الفشل من قبل، ولذلك رأيتني ارتبكت في الجواب لما سألتني عن الطالع».

فقال: «لا أدري ما الذي أنساني الخطاب كأني لم أخط منه حرفاً، ولعل ذلك من سوء الطالع. أظن وجود القالي أفسد عليَّ طالعي».

قال: «لا بل هو المنذر بن سعيد. يا الله إنما الدنيا حظوظ وطوالع. أيرتج على الفقيه ابن عبد البر ويفلح المنذر بن سعيد؟!». قال ذلك متأسفاً، وهز رأسه وعمد إلى أن يتم غرضه، فأظهر أسفه الشديد على ما اتفق لابن عبد البر وقال: «والأمر الذي ساءني على

الخصوص..». وسكت.

فابتدره الفقيه قائلاً: «لا بد أن يكون ساءك ارتباكي مع اعتقادك الأكيد أني قادر على الكلام، وقد سمعت خطابي وأُعجبت به».

فبادره سعيد قائلاً: «أن ارتباكك ساءني طبعاً، ولكن هناك أمراً آخر كدرني. دعنا من ذلك الآن».

فازداد الرجل رغبة في الاستطلاع فقال: «وما ذلك؟ قل».

قال: «ساءني أني سمعت وليّ العهد. ولكن أخاف أن أكون مخطئاً..».

قال: «لا. لا.. قل.. لماذا سمعت؟».

قال: «أظنني سمعته يقول لما رآك وقعت مغشياً عليك يشير إلى المنذر بن سعيد وهو يخطب قائلاً: (هذا صاحبها والأَوْلى بها وليس الكسيباني) فلا أدري ماذا يعني».

فقال الفقيه: «ألا تدري وأنت تستطلع الغيب؟ أظنك تخاف تكديري. قل ولا تخف».

قال: «أظنه يعني سلطة القضاء».

قال: «قد أصبت، وسينال المنذر هذا المنصب، بورك له فيه».

فقال سعيد وهو يضحك: «لك أسوة بالأمير عبد الله العالم الزاهد. ألم تكن الخلافة أَوْلى به؟».

فأحس ابن عبد البر من تلك الساعة بنقمة على الحكم رغم ما كان غارقاً فيه من نعمة. فإن فشله وفوز المنذر بن سعيد هاج حسده وأعماه عن الحقيقة وزاده اغتراراً بنفسه، فنسب سقوطه إلى تصادم الطوالع، وكان لقول سعيد تأثير كبير في اعتقاده، فتوهم أنه مظلوم

وأن الحَكَم هو السبب في ظلمه، فأحس بدافع النقمة عليه. ولم يكن سعيد غافلاً عما جالَ في خاطر الفقيه وهو الذي أثار كامن حقده وهاج عاطفة الحقد فيه على المنذر والنقمة على الحكم، فلما لمح إلى إيثار عبد الله بالخلافة على أخيه الحكم نظر إلى الفقيه فرأى في ملامحه استعداداً للإقناع، ولكن الخوف يمنعه من التصريح، فهمس قائلاً: «لعَلّي تجاوزت في قولي حداً أبعد مما يجوز لي. ولكنني فعلت ذلك بدافع من الانتصار للحق. وأنا وراق أبيع الكتب وأعرف ما يقتنيه ولِيّ العهد منها فما لي وله؟». قال ذلك وأظهر أنه يريد الافتراق عن الفقيه.

فتوسم ابن عبد البر من ذلك التلميح شيئاً يهمه الاطلاع عليه، فعمد إلى استطلاع ذلك السر من سعيد، وهو يزعم أنه يفعل ذلك بمهارة ودهاء فقال: «مهما يكن من اطلاعك فإني أعلم به منك، وأنا كما تعلم قد عاشرت الحكم طويلاً».

قال: «مهما عاشرته فإنك لا تعرف عنه ما أعرفه أنا، فإنه يستحيي أن يعرف الناس، خصوصاً الفقهاء، إنه يطالع الفلسفة فتقل ثقته بدينه!».

فبغت الفقيه وقال: «يطالع كتب الفلاسفة؟ نعوذ بالله من خليفة فيلسوف. إن الخلفاء يقاومون الفلاسفة ويضطهدونهم خوفاً على عقائد الناس، فكيف يكون الخليفة نفسه من أهلها؟».

فتجاهل سعيد مقدار ما أثاره ذلك الخبر في نفس الفقيه، وأظهر أن قد آن له أن ينصرف. وكان الفقيه أكثر رغبة في الذهاب لخاطر خطر له يريد أن يسعى فيه.

وكانا قد خرجا من القصر حتى أتيا باب السطح حيث تركا البغلتين، فقال الفقيه: «سنفترق الآن، لا عليك يا صاحبي. إن

الزمان يدور، وسوف يعلم الحكم وأبوه..». وسكت، فتجاهل سعيد وقال: «متى آتي بكتاب العقد الفريد إلى الأمير عبد الله؟».

قال: «بعد المغرب، هل تعرف منزله؟».

قال: «أين هو؟».

قال: «في قصر مروان، خارج قرطبة بالأرباض».

قال: «أعرفه. أستودعك الله. لا عليك يا فقيه..».

قال: «ستتكلم فيما بعد... لا تنسَ أن تأتي بعابدة معك لأني ذكرتها للأمير ويحب أن يراها».

قال: «سمعاً وطاعة» وركب بغلته وذهب قاصداً إلى منزله.

فافترقا والفقيه يتمنى لو طال الحديث بينهما بشأن الأمير عبد الله، لأنه رأى في الطعن على الحكم وأبيه شفاء لما في نفسه مما أصابه في تلك الحفلة. وهو بحكم تربيته الدينية ميال إلى التعصب للتقاليد القديمة ورفض كل جديد، فرأى في انتقاد الناصر لاقتنائه الخصيان والتوسع في البذخ والترف باباً للنقمة عليه. ولما سمع ما قاله سعيد من حب الحكم الفلسفة حلل لنفسه الطعن فيه. ولم يشأ أن يتثبت الخبر مخافة أن يكون كاذباً فيضعف الباعث على الطعن وهو يبحث عما يقوّيه.

وقضى معظم الطريق إلى بيته في التفكير وهو لا ينتبه للبغلة كيف تسير ولا إلى رأسها أين يتجه. ولولا الخادم الذي كان يسيّرها أو يزجرها أو ينبه المارة لمسيرها لعثرت أو تاهت. خصوصاً على الجسر لأنه كان غاصاً بالراجعين بعد انقضاء الاحتفال. ولما قطع الجسر قلّ الازدحام، فما زال راكباً حتى اقترب من قصر مروان، وهو منزل الأمير عبد الله، ولم ينتبه إلا وهو بالقرب منه، فاستوقف

الدابة وأشار إلى السائس أن يحول زمامها نحو منزله لعلمه أن عبد الله لم يعد إلى قصره بعد لاشتغاله بالحديث مع أبيه أو أخيه، هذا إلى أنه يخجل أن يقابله.

ساق البغلة إلى بيته، ثم ترجل ودخل غرفة نزع فيها جبته واتكأ للاستراحة، فجاء الطاهي يدعوه إلى الطعام، فنهض فأكل وعاد إلى مجلسه، وأوعز إلى الخادم ألا يدخل عليه أحداً التماساً للراحة، وهو أيضاً يطلب الانفراد خجلاً من الناس لفشله في الخطاب، حتى خيّل إليه أن الناس كلهم عيون تتغامز عليه أو تهزأ به لتلجلجه وتلعثم لسانه. وأصبح إذا رأى الخصي أبطأ في تنفيذ أمره وتوهم أنه يفعل ذلك احتقاراً له وما ذلك إلا من ضعف النفس أو خورها. ولو كان قوي الشكيمة لم يبال فشلاً قد يصيب كل إنسان، ولكان له من تظاهره بمواهبه الأخرى ما يذهب بأثر ذلك الفشل. أما هو فإنه أكبر ذلك ورأى أنه لو اطلع الآخرون على ما في ضميره لاستصغروه.

تناول الطعام وهو منقبض النفس فعسر هضمه فزاده ذلك اضطراباً في أفكاره وتعظيماً لمصيبته. فلما خلا إلى نفسه أخذ يفكر فيما يشفي غليله ويبرر موقفه في عينيّ الأمير عبد الله، إذ كان منذ انضم إليه يفتخر بفصاحته وقوة عارضته، فلم يجد خيراً من أن يجعل السبب ارتباكاً طرأ عليه لشيء شاهده في تلك الجلسة، ويشرك عبد الله معه في الأمر ويجره إلى مشاركته في الانتقام. ولما خطر له هذا الفكر انبسطت نفسه، وكانت الشمس قد مالت نحو المغيب، فنهض ولبس ثيابه وصفّق فجاءه الخصي، فأمره أن يسرج البغلة فأسرجها، فركب وسار يطلب قصر مروان منزل الأمير عبد الله.

الأمير عبد الله

كان الأمير عبد الله شاباً في مقتبل العمر، تثقف كما تثقف

سائر أولاد الناصر، وشبّ على حب العلم والأدب مع تقوى وتديّن، على أنه لم يكن حر الفكر مثل أخيه الحكم، ولذلك فإنه لم يكن يستدني غير الفقهاء المتعصبين الذين ينكرون النظر في غير علوم الدين، ولم يكن يقتني غير كتب الأدب والدين. ولو فتشت مكتبته كلها ما وجدت فيها ورقة في الفلسفة أو المنطق أو الطب أو غيرهما من كتب الطبيعيات. وأما أخوه الحكم فربما وجدت بمكتبته كتباً في هذه الموضوعات، ولكنه لم يكن يظهرها مجاراة للعامة في ميولهم. وكان الأمير عبد الله صادق الطوية في غير دهاء. ونظراً لتقواه وتدينه كان كل مَن يأتيه من جهة الدين يغلبه أو يتسلط على أفكاره. ولذلك كان يحترم الفقهاء ويقرّبهم، خصوصاً ابن عبد البر لما سبق إلى ذهنه من سعة علمه ومقدرته على حل المشاكل، لا لدليل محسوس وإنما عن عقيدة.

ولم يكن قصر مروان بعيداً عن منزل ابن عبد البر، وقد كان يستطيع أن يأتيه ماشياً، ولكنه أحب المحافظة على مظاهر الأبهة بركوب البغال لئلا يقول قائل أن فشله في ذلك اليوم حط من قدره أو أذله. ولولا ذلك الفشل لذهب إلى منزل الأمير ماشياً ولم يبال لوثوقه باحترام الناس له، وأما فشله اليوم فقد صغر نفسه فأصبح يخاف العار من أقل الأمور.

وصل ابن عبد البر إلى باب حديثة القصر. وحالما رآه البواب نهض وفتح له الباب، فدخل على بغلته إلى الحديقة، والسائس يمشي في أثره. حتى إذا اقترب من باب القصر تقدم الحاجب ـ وهو خصي جميل الصورة، أصله من خصيان الزهراء جارية الناصر أهدته إلى الأمير عبد الله، فأعجب به وجعله كالحاجب أو المباشر، وقرّبه لما آنسه من لطفه وخفة روحه ـ واسمه (ساهر). فلما رأى ابن عبد البر

مقبلاً أسرع إليه وساعده في الترجل عن بغلته وهو يرّحب به، فسأله عن الأمير عبد الله فقال له: «هو في مكتبته يطالع».

فطُلِب منه أن ينبئه بقدومه فقال: «ليس على الفقيه حجاب».

فاستأنس ابن عبد البر ومشى في أثره حتى دخل القاعة وهي مفروشة بالطنافس والمساند، فجلس وخرج ساهر ليعلم مولاه بقدوم الفقيه. ومكث هذا وذهنه يعمل فيما سيراه في وجه الأمير من التغيّر. ولم تمض لحظة حتى أقبل الأمير عبد الله وبيده كتاب يظهر من نظافة أطرافه أنه كتب من عهد قريب، فوقف الفقيه وتأدب في السلام، فلم يجد في وجه الأمير تغيّراً فانبسطت نفسه وأقبل يتخيّر عبارات اللطف يغطي بها فشله، وعبد الله يسايره حتى جلس إلى جانبه والكتاب لا يزال في يده.

فقال ابن عبد البر: «أرى في يد الأمير كتاباً جديداً».

قال: «نعم هو كتاب جديد ومؤلفه حيّ يُرزق».

فنظر الفقيه في ظهر الكتاب وقال: «لا أذكر أني رأيت هذا الكتاب بين كتب مولاي قبل الآن».

قال: «لأنه أتاني في هذه الساعة».

قال: «في هذه الساعة؟ من أين؟».

قال: «بعث به إلى أخي الحكم وليّ العهد. وكان قد خاطبني في شأنه ونحن في البهو اليوم».

فلما سمع اسم الحكم والبهو تذكر أشياء كثيرة، وكاد يظهر التأثر في وجهه لكنه تجلد وقال: «يقول مولاي أن مؤلفه حي».

قال: «نعم، وهو الآن في قرطبة، وقد شاهدته هذا الصباح وسمعت خطابه».

فانتبه الفقيه وقال: «أظنه كتاب الأمالي لإسماعيل بن القاسم القالي، فقد علمت أنه ألّف هذا الكتاب لمولانا ولي العهد وطاف البلاد في البحث والتنقيب من أجله».

قال: «نعم هو بعينه، وقد قدمه لأخي فذكره لي في صباح هذا اليوم وأرسله إليَّ لأطالعه، وإذا أعجبني كلفت أحد الوراقين بنسخه».

فأطرق الفقيه حيناً وهو يتأمل ثم قال: «ولماذا لم يقدمه القالي للأمير عبد الله وهو يعرف قدر العلم؟».

فضحك عبد الله وقال: «لا أدري. وهل تزعم أن أخي لا يعرف قدر العلم؟».

فأجاب وهو يهز كتفيه: «هو يعرف كل شيء طبعاً، ولولا ذلك ما جعله أبوه ولي العهد». وظهر من ملامح وجهه أنه يضمر شيئاً آخر.

فقال عبد الله بسذاجة وصدق نيّة: «ربما كان هذا من أسباب ولاية العهد، ولكن الولاية آلت إليه لأنه أكبر إخوته».

فقال الفقيه: «ليس هذا شرطاً من شروط الولاية، فعلى الخليفة أن يقتنع بأن مَن يوليه بعده أهل للحكومة، وتكون شروط الخلافة متوافرة فيه. ولذلك رأينا كثيرين من الخلفاء تخطوا أكبر أولادهم إلى مَن هم دونهم، أو بايعوا غير أبنائهم رغبة في نفع المسلمين».

ورأى عبد الله في كلام الفقيه خروجاً عما ألف سماعه منه، ولكنه كان حسن الظن فيه فقال: «لم يعدل الخلفاء عن أكبر أولادهم إلى سواهم إلا لأسباب تخالف شروط الخلافة».

قال: «هل يذكر مولاي الأمير شروط الخلافة؟».

قال: «أعرف لها عشرة شروط».

قال: «وهل بينها أن يكون الخليفة أكبر سناً من إخوته؟».

قال: «كلا. ولا أن يكون ابن الخليفة السابق. فإذا عملنا بذلك وجب اختيار ولي العهد من جمهور المسلمين، وإنما هي قواعد تواضع عليها الخلفاء بعد أن صار الإسلام ملكاً عضوداً».

قال الفقيه: «ما لنا ولهذا، دعنا منه وقلي لي: ما أهم شروط الخلافة؟».

قال: «أولها حفظ الدين على أصوله المستقرة وما أجمع عليه سلف الأمة، فإن ظهر مبتدع أو زاغٍ ذو شبهة عنه أوضحت له الحجة وبين له الصواب وأخذ بما يلزم من الحقوق».

قال الفقيه: «يكفي هذا الشرط. فهل هو متوافر في مولانا ولي العهد؟».

فاستغرب عبد الله سؤاله، وقال: «كيف لا؟. دعنا من هذا البحث الآن».

قال: «دعنا منه إذا شئت، ولك الأمر يا سيدي، ولكنني لم يعد يمكنني كتمان ما في نفسي من الغيظ بعد أن كتمته أعواماً!».

فتفرس عبد الله في وجهه فرأى الجَد فيه فقال: «وما ذاك؟».

قال: «أقول ما في نفسي؟».

قال: «قل. لا بأس عليك».

قال: «ما برحت منذ أسندت ولاية العهد إلى مولانا الحكم وأنا أقول في سري: لماذا لا تكون لسيدي الأمير عبد الله، وذلك لعلمي

أن شروط الخلافة متوافرة فيك أكثر منه. ينبغي لسيدي أن يعتقد صدق نيّتي في خدمة المسلمين. ولا يُخفى عليك أني صنيعة مولاي الحكم وأنا أعرّف الناس به. وقد خدمت مولاي الأمير أيضاً واطلعت على الحقيقة في الأميرين. فكنت كلما خطر لي هذا الخاطر شعرت بانقباض، وأنا أكتم ذلك عن مولاي. وأما الآن فلا أجد بداً من التصريح بعد أن كدت افتضح أو افتضحت في ذلك الموقف بالأمس. فلم أستطع كلمة أقولها. ولا أظن الأمير ينسب ذلك إلى جهلي، فما هذه أول مرة وقفت فيها خطيباً كما تعلم. ولكنني أعترف لك أني لما شاهدت مجلس أمير المؤمنين وأبنائه إلى جانبيه ورأيت تميز الحكم بالولاية والشارة والمجلس، مع علمي بفضل الأمير عبد الله وما ترجوه الأمة على يده، انقبضت نفسي وشغل خاطري حتى أضعت رشدي. فلما طلب إليَّ الكلام لم أستطعه كما رأيت». قال ذلك وقد بدا الاهتمام في محيّاه وعينيه وتندى جبينه بالعرق.

فلما سمع عبد الله كلامه اعتقد إخلاصه لكنه لم يقتنع بما قاله فقال: «أراك تقول ما تقوله من غضبك لنفسك، فلا ينبغي لك أن تجعل ذلك ذريعة للطعن على ولي العهد. ولولا صدق طويتك لم أصبر على سماع كلامك. إن الحكم أجدر مني بهذا المنصب من كل وجه، إنه أكبر مني سناً وأوسع علماً وأكثر دراية».

فخاف الفقيه عاقبة تصريحه، وكاد يغلب على أمره بين يديّ عبد الله، فعمد إلى التخلص فقال: «قد أسأت فهم مرادي يا سيدي، فما أنا مَن يجرح وليّ العهد، ولكنني أقول ما أعرفه. وأنت في كل الأحوال صاحب الرأي، وكنت أحسبك تقدّر صدق نيّتي في خدمة المسلمين. . أنت أعلم مني بما صارت إليه الخلافة من الانغماس في الترف والانحراف عن خطة الخلفاء الراشدين. ألم ترَ ما يأتيه أمير

المؤمنين من تقديم الخصيان دون سواهم حتى كادت السلطة تؤول إلى غير أهلها، لا أخاف أن يقع ذلك في زمن الناصر لتعقله وتقواه، ولكنني أخاف منه في أيام الحكم وهو لا يبالي!».

فقطع عبد الله كلامه وقال: «دع هذا الحديث أيها الفقيه وحدثنا بما يفيد. إني أراك تجاوزت الحد في تعريضك بوالدنا الناصر صاحب هذه الدولة الذي أقام بنيانها وكبت الكفار وغلب الأعداء ونصر الدين».

فابتدره الفقيه قائلاً: «حاشَ لله أن أنكر ذلك عليه، وإنما أنا أخاف ممن يخلفه. ألا تخاف على الإسلام إذا كان خليفته يقرأ كتب الفلسفة؟».

فصاح عبد الله: «كتب الفلسفة؟ تعني أن أخي يقرأ هذه الكتب؟ معاذ الله! وإذا رفض أنه يقرؤها فما علينا إلا أن ننصح له بأن يتركها».

فتكلف الابتسام وقال: ننصحه؟! هل تظنه يقبل النصح؟ فلنتركه عساه يهتدي».

وشعر الفقيه أنه فشل في وشايته ولم يجد في نفسه قوة على الإقناع. وكانت الشمس قد توارت وراء الأفق وأقبل الظلام، ولم يشعر الفقيه بذلك إلا لما رأى أحد الخدم دخل وبيده مسرجة أضاء سراجها ووضعها على دكة في بعض جوانب القاعة. فتذكر الفقيه سعيداً الوراق وما سمع من تلميحه إلى الأمر الذي أثاره مع الأمير عبد الله، فأجّل الخوض في الموضوع ريثما يأتي، وكان على موعد من مجيئه في تلك الساعة.

وبينما هما في ذلك إذ جاء الحاجب يقول: «إن سعيداً الوراق بالباب يا سيدي».

فالتفت عبد الله إلى الفقيه كأنه يستفهمه عن سبب مجيئه، فقال الفقيه: «أظنه قادماً بالكتاب الذي أخبرت مولانا عنه».

فهتف عبد الله قائلاً: «العقد الفريد. مرحباً بكل قادم علينا بمثل هذه التحف».

فخرج الحاجب ثم عاد ورفع الستارة عن الباب، فدخل سعيد وقد برقت عيناه وتجلت الهيبة في محياه، فحيى ووقف، فدعاه عبد الله إلى الجلوس، فجلس على وسادة وهو لا يحمل شيئاً.

فقال عبد الله: «أنت سعيد الوراق؟ أظنني رأيتك قبل الآن. مرحباً بقدومك. أين العقد الفريد؟».

قال: «هو في الخارج يا سيدي. هل أدخل به عليك؟».

قال: «كيف لا؟».

فنهض وعاد والكتاب في يده قد لفّ بالحرير، فوضعه على وسادة بين يدي الأمير عبد الله، فأخذ يقلب فيه ويتأمل نظافة خطه وحسن تبويبه وضبط كتابته وسعيد صامت.

ثم قال عبد الله: «إنه خط جميل!».

فقال الفقيه: «ألم أقل لمولاي أنه خط فتاة؟».

فالتفت عبد الله إلى سعيد كأنه يستشهده فقال: «نعم يا سيدي، وقد رآها الفقيه بعينيه وسمع كلامها».

فقطع الفقيه كلامه وقال: «ألم أقل لك أن تأتي بها معك الليلة ليراها مولانا الأمير؟ أين هي؟».

قال: «قد أتيت بها وهي في دار الجواري».

قال عبد الله: «سنستقدمها بعد قليل ـ هل جاءك كتب جديدة

غير هذا؟».

قال: «سمعت بكتاب لا يزال صاحبه يعمل في تأليفه، وهو أحسن كتب الأدب على الإجمال لأنه يغني عنها جميعاً».

فتطاول عبد الله عند ذلك وقال: «أظنك تعني كتاب الأمالي للقالي». وتناوله من جانبه وقدمه إليه ليراه، فأخذه سعيد وفتح أول صفحة منه فوجد عليها إشارة الحكم فقال: «هذا لمولاي ولي العهد. وقد علمت أن الإمام أبا علي إسماعيل القالي ألّفه.. حقاً إن مولانا الحكم يبذل الأموال في اقتناء الكتب ويرغب أهلها في التأليف».

فأحس عبد الله بغيرة من هذا الإطراء وقال: «هل هذا هو الكتاب الذي أشرتَ إليه الآن؟».

قال: «كلا يا سيدي».

قال: «وأي كتاب تعني إذن؟».

فتظاهر سعيد بالتردد وقال: «كتاب آخر أهم من هذا، ربما زاد على خمسة أضعافه».

قال: «وما اسمه؟ أو ما اسم مؤلفه؟».

فنظر سعيد إلى الفقيه كأنه يوسطه في استعفاء الأمير من ذكر اسم الكتاب. ولم يكن الفقيه عالماً بشيء من ذلك، فظهرت الحيرة على وجهه، فملّ عبد الله الانتظار فقال: «ما بالك يا صاحب؟ هل ندمت على كلامك؟».

فأظهر التلطف والاستعطاف وقال: «نعم ندمت، وكان ينبغي أن أحفظ ما أوتمنت عليه سراً، ولكن لساني سبقني».

فازداد عبد الله رغبة في معرفة ذلك السر، وقد بانَ التغيّر في عينيه، فسبقه الفقيه إلى الكلام قائلاً: «تحفظ ذلك سراً عن مولانا

الأمير؟! وممن تخاف إفشاءه؟».

قال: «أخاف ممن لا يفضله في الحكم غير أمير المؤمنين».

ففهم عبد الله أنه يعني أخاه ولي العهد فقال: «إذا كان الأمر يتعلق بأخينا الحكم فما عليك إذا ذكرته من باب العلم بالشيء».

قال: «يسمح مولاي الأمير أن أقول كلمة؟».

قال: «قل».

قال: «إن الكتاب من كتب الأدب ويليق بالأمير عبد الله أكثر مما يليق بأخيه ولي العهد لعلمي بميول كل منهما».

فاستبشر الفقيه بأنه سيذكر ميل ولي العهد إلى كتب الفلسفة فلما رآه سكت قال من عند نفسه: «أظنك تعني أن الحكم يميل إلى اقتناء كتب الفلسفة».

فعضّ سعيد على شفته السفلى، وأظهر أنه استاء من تصريح الفقيه، وتصدى للدفاع عن الحكم فقال: «من قال لك ذلك؟ ربما اقتنى وليّ العهد بعض كتب الفلسفة لكنه أرغب في كتب الأدب والشعر واللغة. أليس هو الذي حمل القالي على جمع هذا الكتاب وهو من كتب اللغة؟ وهذه مكتبته وفيها ألوف من هذه الكتب، دعنا من هذا الآن».

فقال الأمير عبد الله: «لم أعد أصبر على كتمان اسم ذلك الكتاب واسم مؤلفة بعدما تقدم. قل من هو؟». قال ذلك بلهجة الأمر.

فأظهر سعيد أنه يقول ذلك إذعاناً لأمره وقال: «إن الكتاب يا سيدي في الغناء، واسمه الأغاني».

فقطع الأمير كلامه قائلاً: «الأغاني للموصلي؟».

قال: «كلا يا سيدي. إن مؤلفه أبو الفرج الأصبهاني الأديب المشهور، وهو من بني أمية.. إن الكتاب لم يخرج للناس بعد، ولكنني سمعت عنه شيئاً كثيراً، واطلعت على بعض أوراقه في بغداد، ولكن لا فائدة من الكلام فيه فقد علمت أن مولانا ولي العهد بعث مَن يشتري الكتاب من مؤلفه وأوصاه أن يبذل له ما شاء من الدنانير».

فالتفت الفقيه إلى سعيد وقال: «فإذا أراد مولانا الأمير عبد الله اقتناءه فمن يمنعه؟».

قال: «لا أعلم أن ولي العهد بعث مَن يشتريه، وقد عرفت ذلك سراً، وإنما بحث به هنا إذعاناً للأمير».

فتنحنح عبد الله ليشغل نفسه عما جال في خاطره من الغيرة على تقدم أخيه عليه حتى في الأمور الأدبية كاقتناء الكتب ونحوها، وأخذ يقلب صفحات العقد الفريد بين يديه، فابتدره سعيد وهو يظهر أنه يستجلب استغرابه فقال: «هل رأيت أجمل من هذا الخط يا سيدي؟». واستأذنه في تناول الكتاب، ففتح الفصل الأول منه، وهو يبحث فيمن يصحب السلطان فوضع يده على فقرة من ذلك الفصل وقال: «أظن مولاي انتبه لهذه القاعدة من الخط؟ إنها قاعدة خط أبي علي ابن مقلة الكاتب الشهير في بغداد، وقد توفي من بضع سنين (٣٢٨ هـ)».

فصاح عبد الله: «أين مقلة؟ أهذا خطه؟».

قال: «كلا يا مولاي، ولكن الجارية التي نسخته من مولدات بغداد، وقد أخذت الخط عن ابن مقلة نفسه!».

فجعل عبد الله يتفرس في الخط، وسعيد يوجه نظره إلى فقرة أخرى من ذلك الفصل وفيها حكاية قدوم عمر بن الخطاب إلى

الشام، وأخذ يظهر أنه يقرأ هذه القطعة إعجاباً بخطها فقرأ منها: «إن عمر بن الخطاب لما قدم الشام قدم على حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف على حمار، فتلقاهما معاوية في موكب ثقيل، فجاوز عمر حتى أخبر فرجع إليه. فلما قرب منه نزل إليه، فأعرض عنه، فجعل يمشي إلى جانبه راجلاً، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل. فأقبل عليه عمر فقال: (يا معاوية أنت صاحب الموكب آنفاً مع ما بلغني من وقوف ذوي الحاجات ببابك؟). قال: (نعم يا أمير المؤمنين). قال: (ولم ذاك؟). قال: (لأنّا في بلد لا نمتنع فيه من جواسيس العدو، ولا بد لهم ما يرهبهم من هيبة السلطان، فإن أمرتني بذلك أقمت عليه وإن نهيتني عنه انتهيت). فقال: (لئن كان الذي تقول حقاً فإنه رأي أريب، وإن كان باطلاً فإنها خدعة أديب)...».

ثم قرأ بعده بضعة عشر سطراً حكاية قدوم أبي موسى الأشعري على عمر بن الخطاب وفيها من المبالغة في الزهد والرغبة عن الملذات ما فيها، فقرأ منها قول عمر: «يا ربيع، إنّا لو نشاء لملأنا هذه الرحاب من صلائق وسبائك وصناب، ولكني رأيت الله تعالى نعى على قوم شهواتهم فقال: (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها)...».

وكان سعيد يقرأ ذلك ويوقع النبرات في أماكنها بحيث يتضح المعنى المراد، وعبد الله يسمع ويعتبر لقرب عهده بكلام الفقيه عن بذخ أبيه، ولحظ الفقيه ذلك فقال: «لله در ابن الخطاب وسائر الخلفاء الراشدين، فقد كان الواحد منهم يلبس الثوب من الكرباس الغليظ، وفي رجليه نعلان من ليف، وحمائل سيفه ويمشي في الأسواق، وإذا كلم أدنى الناس أسمعه أغلظ كلامه، وكانوا يعدون هذا من الدين

الذي بعث به النبي صلوات الله عليه سلامه.. أين منهم الخلفاء بعدهم؟».

فقال سعيد: «لقد صدق الفقيه. إن الجديرين بالخلافة قليلون، وقد تغير الناس وتقلبت أحوالهم بعد الراشدين، فانغمسوا في الأبهة والترف، ولم يفعل ذلك أحد منهم إلا اقترب ذهاب دولته كما أصاب العباسيين ببغداد في أخر دولتهم، وأخاف أن يتطرق ذلك إلى هذه الدولة. والحق يُقال لا أرى بين أبناء المؤمنين أقرب بأخلاقه وتديّنه من الراشدين غير مولانا الأمير عبد الله فهو التقي الزاهد.. ولا أقول ذلك للفتنة وقانا الله منها، فإن الأمر قد استتب الآن لمولانا الحكم، ولكنني أقول ما يجول في خاطري».

فنظر الفقيه إلى عبد الله من طرف خفي، وأشار بعينيه كأنه يستشهد بما سيقوله سعيد على صحة قوله.

وخاف سعيد أن يقول الفقيه شيئاً يضجر منه عبد الله لأنه كان لحدة ذهنه يكاد يستطلع ضمير مخاطبه، فحول الحديث وقال: «ما لنا ولهذا الآن. هل يأذن الأمير لي في أن أنصرف؟».

فأظهر عبد الله الاستغراب وقال: «تنصرف؟ إلى أين؟ أين هي الجارية التي ذكرتها؟ هل هي جاريتك؟».

قال: «هي جارية لي، ولكنها جارية أدب وشعر ومنادمة وليست لشيء غير ذلك، فإنها تثقفت وحفظت الشعر وأتقنت الخط والغناء والضرب على الآلات. هل يأمر مولانا باستقدامها الساعة؟».

فصفق عبد الله فأتى ساهر الحاجب فأمره أن يستقدم الفتاة، فخرج وعاد فأدخل عابدة وانصرف. فدخلت وهي ساعتئذ في أجمل حالاتها، لأنها هيأت نفسها لملاقاة ابن الخليفة الناصر انقياداً لوصية سعيد أو استهوائه، فلبست ثوباً لطيفاً وأصلحت شعرها فظهرت على

أحلى مثال. فلما وقع نظر عبد الله عليها شعر بميل إليها واستلطفها وأشار إليها أن تقعد، فقعدت متأدبة وقد أطرقت حياء، فابتدرها الأمير قائلاً: «ما اسمك يا حسناء؟».

قالت: «عابدة يا سيدي».

فأعجبته رخامة صوتها فقال: «أنبأنا سعيد أنك تحفظين الشعر وأخبار العرب فأي الشعر تحفظين؟».

قالت: «ما شئت يا سيدي.. من شعر الجاهليين أو الإسلاميين أو المحدثين كما تشاء».

قال: «هل اطلعت على جمهرة أشعار العرب لأبي زيد؟».

قالت: «نعم وحفظت نوادره، وديوان الحماسة للبحتري. وطبقات الشعراء لابن قتيبة، وقرأت أكثر دواوين المحدثين، وكثيراً من كتب الأدب، وآخرها كتاب العقد الفريد هذا.. إنه كتاب جليل».

قال: «لقد زدته جمالاً بخطك الأنيق». وتناول كتاب الأمالي بيده، ولم يكد يفتحه حتى قالت: «أليس هذا الكتاب الأمالي للقالي؟».

فاستغرب معرفتها إياه، وهو يحسبه لم يتصل بسواه بعد أخيه الحكم فقال: «وهل قرأته؟».

قالت: «تصفحته على عجل فحفظت منه شيئاً علق بذهني أتلو عليك منه إذا شئت ما يتعلق بأخبار أجدادكم بني أمية في الشام».

فأبرقت أسرته إعجاباً وسروراً وقال: «هات ما يخطر لك».

قالت: «هل أقص عليك حديث عبد الملك بن مروان لما خرج لقتال مصعب بن الزبير؟ إن عبد الملك كان رجلاً شديداً استخلص

الخلافة لنفسه واستقل بها على كثرة مَن كان يطلبها. يعجبني من حماسته وعلو هِمّته خروجه لمحاربة مصعب من الشام إلى العراق، وقد أرادت امرأته أم يزيد منعه عن المسير فقالت: (يا أمير المؤمنين لو أقمت وبعثت إليه لكان الرأي). فقال لها: (ما إلى ذلك سبيل). فلم تزل تمشي معه وتكلمه حتى قرُبَ من الباب، فلما يئست منه رجعت فبكت وبكى حشمها معها، فلما علا الصوت رجع إليها عبد الملك فقال: (وأنت أيضاً ممن يبكي؟ قاتلَ الله كثيراً كأنه يرى يومنا هذا حيث يقول:)

إذا ما أراد الغزو لم تثن همه حصان عليها نظم در يزينها
نهته فلما لم ترَ النهي عاقه بكت فبكى مما شجاها قطينها

«ثم عزم عليها السكوت وخرج. إن عبد الملك أيها الأمير رجل طلاب معال، ألم تره لم ينفك عن الخلافة حتى نالها فقال فيه كثير:

أحاطت يداه بالخلافة بعد ما أراد رجال آخرون اغتيالها».

وكان الأمير عبد الله في أثناء كلامها ينظر إلى ما يبدو في وجهها من ملامح الإعجاب بعلو همة عبد الملك، وتقع كلماتها في أذنيه وقوع النغم الشجي على قلب الصب المتيم، وأحسّ بشيء استفزه للحماسة فقال: «لقد أحسنت يا عابدة، وهل تحفظين لغير بني أمية؟».

قالت: «ويعجبني من الشعر يا مولاي ما يستحث المروءة ويهيّج الأريحية كقول زهير بن أبي سلمى:

ومَن يجعل المعروف من دون عرضه يفره، ومَن لا يتق الشتم يُشتمُ
ومَن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذماً عليه ويندم

ومَن لا يذد عن حوضه بسلاحه يهدم: ومَن لا يظلم الناس يُظلم
ومَن لم يزل يسترحل الناس نفسه ولا يعفها يوماً من الذل يندم
ومهما تكن عند امرىء من خليفة وإن خالَها تُخفى على الناسِ تعلم»

فلما بلغت إلى هنا صاح الفقيه مستنهضاً همّة الأمير عبد الله: «لله در هذا الجاهلي، ما أبلغه! إن كلامه يحرك الهمم». أما عبد الله فأخذه الطرب من حسن إلقاء عابدة وتجاهل أمر الحماسة. وكان كتاب الأمالي في يده فقلبه حتى أتى على أبيات أشار بإصبعه عليها وقال: «إن أحسن مما ذكرت قول علي بن عباس هذا:

وحديثها السحر الحلال لو أنه لم يجن قتل المسلم المتحرر
إن طال لم يملل وإن هي أوجزت ود المحدث أنها لم توجز
شرك العقول ونهزة ما مثلها للمطمئن وعقلة المستوفز

فالتفت سعيد إلى عابدة وقال: «قللي يا عابدة من الحماسة».

فقال عبد الله: «أظنك تخاف عليَّ الخروج. والله لا مطمع لي في شيء من ذلك والفقيه يعلم رأيي».

فقال سعيد: «إذا لم يكن هناك باعث فالخروج مظنة سوء».

فقالت عابدة: «ويعجبني قول عمرو بن كلثوم:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فطرب الفقيه لهذا المعنى، واستخفه السرور حتى ضحك وهو ينظر إلى عبد الله. فقال عبد الله، وهو يقلد إنشادها: «فنجهل فوق جهل الجاهلينا».

قال ذلك وقد بانَ الجَد في عينيه فرأى سعيد الوقوف عند هذا

الحد فقال: «ألا يأمر مولاي الأمير أن تغني له شيئاً؟».

فقال: «وهل تُحسن الغناء؟ وعلى مَن تعلمت؟».

قالت: «تعلمت على مغني بغداد خلائف الموصلي وحفظت أغانيه».

قال: «غني لنا ما تعرفينه».

قالت: «هل أغني غناء إبراهيم بن المهدي الذي شغله الغناء عن طلب الخلافة فقضى عمره كأنه من العامة؟ إنه كان طروباً وله غناء حسن».

فقال الفقيه: «غني يا عابدة، إنه غناء ابن خليفة يسمعه ابن خليفة ولكن شتان ما بينهما».

فأخذت تغني:

هل تطمسون من المساء نجومها بأكفكم أو تسترون هلالها؟
أو تدفعون مقالة من ربكم جبريل بلغها النبي فقالها؟

فطرب عبد الله، وأخذت عابدة بمجامع قلبه، وأحس بميل إليها غير ميل الناس إلى الإماء، لأنه آنس فيها عزة وقوة وأدباً ورقة. فأحب أدبها وبلاغتها وذكاءها. فأمر بمائدة من الفاكهة والأطعمة والأشربة المنعشة لأنه لم يكن يذوق الخمر ولا النبيذ ولا يطيقهما. فلما مدت المائدة وليس عليها شيء من الخمور نظر سعيد إلى الفقيه كأنه يسر إليه وقال: «هذا أولى بها». وأشار إلى المائدة وخلوها من الخمور، ففهم عبد الله أنه يشير إلى الخلافة. ولكنه ظنّ أنه فهمها خلسة مع أنها مقصودة. لكنه تجاهل واستعاد الفتاة صوتاً آخر فغنّته، وغنّت غيره حتى طربوا، فقال الأمير عبد الله: «ألا تعرف عابدة الضرب على العود أو غيره؟».

فالتفت سعيد إليها فمدت يدها إلى جيبها فاستخرجت عيداناً وأوتاراً وأخذت تركبّها وتشدها فصارت آلة كالقانون، وأقبلت تضرب عليها ضرباً متقناً أسكر الأمير بلا مدام، فقال لسعيد: «ما اسم هذه الآلة؟».

قال: «اسمها القانون يا سيدي».

قال: « لا أذكر أني رأيتها من قبل».

قال: «إن مخترعها لم يزل حياً، وهو عالم كبير، لكنه من رجال الفلسفة وقد تعمق في أبحاثها وألّف فيها كتباً».

فابتدره قائلاً: «أظنك تعني الفارابي التركي الفارسي الذي نشأ في الشام؟».

قال: «نعم هو بعينه».

فتصدى الفقيه للكلام فقال: «أليس هو صاحب القصة مع سيف الدولة يوم حضر مجلس غنائه وهو لا يعرفه، وسأله هل يعرف الغناء فاستخرج آلة ضرب بها فبكى من في المجلس، ثم فكها وركبها وضرب ضرباً آخر فنام مَن في المجلس؟».

فقال سعيد: «بلى هو نفسه! وهذه هي الآلة التي ضرب عليها، وقد تمكنت عابدة من أخذها عنه».

ازداد الأمير عبد الله إعجاباً بالفتاة، فقال لسعيد: «ألا تبيع هذه الحسناء؟».

قال: «أجلها عن وصمة البيع والشراء يا سيدي. ولكنني أنا وهي في خدمة الأمير عبد الله».

قال: «أما أنت فأود أن تقلع عن الوراقة للناس وتحتضني بفضلك، فتكون خازن كتبي، فتبقى أنت وعابدة عندي، هل

تستطيع ذلك؟».

فأشار سعيد برأسه مطيعاً وقال: «إن غاية ما أتمناه أن أكون في خدمة مولاي الأمير فأبذل جهدي في سبيله.. وقد كنت أهم بأن أقول له أني لا أستطيع التخلي عن عابدة، لأنها ألِفتني، وأنا أحفظها أشياء من الأدب والشعر لم تعرفها، وعليَّ أن أتردد عليها حيناً بعد آخر..».

فأجاب عبد الله: «لا حاجة إلى التردد. إنك تقيم بهذا القصر وتتولى ترتيب الكتب في أماكنها وتسعفني في التفتيش عن الكتب في مظانها، فإني لا أريد أن تكون في قرطبة مكتبة خيراً من مكتبتي».

فأشار سعيد برأسه مطيعاً وسكت.

فصفق الأمير عبد الله فجاء ساهر فقال له: «أعدوا داراً خاصة لنزيلنا سعيد، وأدخلوا عابدة دار النساء مكرمة».

فوقف سعيد يريد الانصراف فدعاه الأمير عبد الله للبقاء هناك فقال: «لا بد لي من الذهاب لتدبير أموري والتفرغ لخدمة مولاي».

ونهض الفقيه وهو يقول: «وأنا أنصرف بأمر الأمير إلى منزلي».

أما عابدة فلما أحست ببقائها وحدها نظرت إلى سعيد وقد توردت وجنتاها من الحياء، فتقدم سعيد إليها وربتَ على كتفيها وقال: «لا تخافي يا عابدة، إنك في رعاية الأمير عبد الله، وستكونين معززة مكرّمة». والتفت إلى الأمير وقال: «يأمر مولاي أن تأتي القهرمانة إلى باب القاعة». فخرجت عابدة معها وهي تلتفت إلى سعيد وقد شق عليها فراقه.

المؤامرة

ودّع سعيد والفقيه الأمير عبد الله، وركب كل منهما بغلته

وانصرفا. فلما خرجا من الحديقة قال الفقيه: «لا نلبث أن نصل إلى منزلي، ألا تنزل عندي الليلة؟».

قال: «لا بأس من ذلك». وتحولا ودخلا، وقد سُرّ الفقيه بنزوله عنده لأنه عزم على الاستعانة به في إقناع الأمير عبد الله بما أراده على الحكم. ولم يعلم أن سعيداً أكثر رغبة منه في ذلك، ولكنه أكثر دهاء وأوسع صدراً.

دعاه الفقيه إلى غرفة واسعة فيها سراج مضيء، وقد فُرِشَتْ أرضها بالحصر والبسط في أبسط ما يكون. وأمر الفقيه خصيه أن يعد فراشين يفرشهما في تلك الغرفة ففعل. وأخذ الفقيه في تخفيف ثيابه، ودعا لسعيد بثوب خفيف، فبدلا الثياب وجلس كل منهما على فراشه، وسعيد يقرأ كل حركة من حركات الفقيه كأنه في ضميره، والفقيه يحسب أنه يحتال في إغرائه بعبد الله».

فلما جلسا قال الفقيه: «إننا أنجزنا أموراً كثيرة اليوم».

قال سعيد: «ولكنه انتهى بالخير. إن الأمير عبد الله فاضل عاقل، وأظنك تتردد عليه كثيراً، فيا ليتك تقيم عندنا فنسكن معاً ونتعاون على الدرس ونتساعد في خدمته. إني أشعر بميلٍ شديد إليه، ولا أدخر وسعاً في كل ما يرضيه بعد ما آنسته من لطفه وتواضعه».

فقال الفقيه: «كثيراً ما دعاني إلى الإقامة بقصره وأنا أتردد، وأما الآن فإني مجيب، وسأنتقل». ثم اعتدل في مجلسه والتفت إلى سعيد والسراج وراء ظهره، فوقع نوره على عيني سعيد فزادهما لمعاناً وإشراقاً، وتخيل فيهما قوة كادت تتغلب عليه فقال: «إن على مَن يحب الأمير عبد الله أن يعرفه حقيقة مركزه».

فقال سعيد: «ظهر لي أنه كثير التواضع راغب في العزلة والانصراف عن السياسة، ولولا ذلك ما كان لأخيه الحكم أن ينال الخلافة دونه».

فأشرقت أسارير الفقيه فرحاً بهذا التصريح وقال: «لقد تعبت من كثرة ما شرحت له ذلك وهو ينكره عليَّ، فإذا ساعدتني أقنعناه، فإني أرى في عينيك قدرة على الإقناع».

قال: «أنا لا ألتمس إقناعه قسراً وما أظنه يحتاج إلى الإقناع بأفضليته على أخيه، ولكنه يخاف أن يظهر ذلك، فإذا وثق بمخاطبه صرح بما يدور في خُلده. ثم هو لا يكفيه أن يفضل نفسه على أخيه بالقول، ولا بد من العمل».

قال: «نبدأ أولاً بالقول. هل تقنعه بأنه أَولى بالخلافة من أخيه؟».

قال: «يجب أن تبدأ أنت بذلك.. أقنعه أولاً بأن أخاه الحكم متكبر، يظن نفسه فوق إخوته، وبيّن له أن في قرطبة والأندلس كلها أحزاباً كبيرة غير راضين عن بذخ الناصر وإسرافه في البناء وغيره، وأنهم ناقمون على الحالة الحاضرة، وربما بايعوا واحداً من غير أبناء الناصر، فهو أَولى بهذه المبايعة. فهذا يهوّن عليه القبول».

وكان الفقيه مصغياً إلى ما يقوله سعيد، وقد أدهشه دهاؤه، وشعر بالفرق العظيم بين رأييهما، وتحقق أنه إذا أتى الأمير من هذه الناحية أقنعه ولكن كبرياءه منعته من التصريح بفضل سعيد بهذا الرأي فقال: «بورك فيك من رجل عاقل، وهذا ما خطر لي أن أقوله للأمير، ولكنني أخاف إذا سألني أين هذه الأحزاب أن أعجز عن الجواب».

فأشار سعيد بسبابته إلى صدره وقال: «اسألني عند الحاجة

فأدلك، واحذر إذا ذكرت ما تقدم للأمير أن تشير إليَّ وتذكر اسمي، إلا إذا سألك عن الأحزاب فقل له: «سنسأل سعيداً الوراق لعله يعرف، لأنه كان كثير الاختلاط بالناس.. فهمت؟».

فسرّه ألا يذكر اسم سعيد حتى لا يحسبه عبد الله أنه هو صاحب تلك الآراء فيعلو في عينيه فقال: «فهمت. أنت لا تريد أن أروي شيئاً من ذلك عنك».

قال: «نعم، لأن القصد كله هو تقديم النصيحة للأمير».

ففرح الفقيه بذلك، وأراد ختام الحديث فقال: «سأفعل كما أمرت. أظنك في حاجة إلى الرقاد الآن. أستودعك الله إلى صباح الغد».

وصفق فجاء الخصي فقال له: «اخرج هذا السراج من هذه القاعة». فأخرجه. ونام كلاهما ملء عينيه والآمال ملء صدره والفقيه أكثرهما رجاء، فإنه تصور الفوز طوع إرادته، وأنه متى غيّر عبد الله على أخيه ملك ناصية الدولة، ولم يقدر ما يعترض ذلك من العوائق وما يقتضيه فوز عبد الله من المشقة، ولكنه كان من أصحاب الأوهام، يقنعهم الخيال ويكتفون بالقواعد النظرية أو التمنيات القلبية، وقلما ينظرون في ذلك إلى الوجهة العملية فيغلب فشلهم.

خلا الأمير عبد الله إلى نفسه بعد ذهاب سعيد والفقيه، ومكث برهة وأفكاره تائهة والكتاب في يده يقلبه كأنه يتصفحه، ولكنه لم يكن يرى شيئاً لاستغراقه فيما كانوا فيه، وجاشَ في صدره أمر لم يخطر بباله منذ أسندت ولاية العهد لأخيه. إن في الناس مَن يراه أولى بها من أخيه، فكيف لم يخطر له شيء من ذلك. ولكن الإنسان لا يبرح ضعيفاً متقلباً ما دام محباً لنفسه يؤثرها على غيرها، ويرى فيها من الفضائل ما ليس في سواها، فهو ضعيف من هذا القبيل، فإذا أردت

إغراءه أو تحريضه على أمر لا تجده راغباً فيه فبين له علاقته به وعائدته عليه فلا تلبث أن تراه يهتم به.

وهكذا شأن عبد الله، لم يكن يخطر له أن ينافس أخاه الحكم في الخلافة، ولذلك استغرب تعريض الفقيه بشيء من هذا الشأن وانتهره. ولكنه ما لبث أن أخذ يناجي نفسه في خلوته ويحدثها بما لا يكاشف به أحداً.

وأفكار الإنسان ـ من حيث مكاشفة الآخرين بها ـ ثلاث طبقات: الأولى أسرار يطلع عليها أصدقاءه ومعارفه، والثانية أسرار لا يطلع عليها إلا أخص أصدقائه أو امرأته، ولا يتجاوزها إلى غيرهم، وهو حريص على كتمانها عن سواهم. أما الثالثة فخواطر لا يطلع عليها أحداً، ولو علم أنها اتصلت بسواه تنغص عيشه وافتضح أمره. وفي هذه الخواطر حقيقة ضمير الرجل وكُنه طبيعته، وقد يكون بينها وبين الذي يظهر للناس من أفكاره تناقض عجيب. وقد تتقاربان ولا تختلفان إلا قليلاً، وأكثر الناس دهاء أبعد ما بين ظاهرهم وباطنهم.

ولم يكن عبد الله من أهل الدهاء، ولكن ما سمعه تلك الليلة هاج في قلبه حسد أخيه على ولاية العهد، وبالغ في كتمان ذلك حتى ود لو يكتمه عن نفسه. وفكّر في حاله وعجزه عن مناوأة أخيه فأخذ يتعلل بما يغنيه عن أبهة الدولة ومتاعب الملك فقال في نفسه: «إن متاعب الحكومة كثيرة، وما الذي يرجوه الإنسان من دنياه غير التمتع بالحياة على ألذ الطرق وأنفعها، وأنا لا ينقصني شيء من لوازم الحياة وتوابعها، وليس عليَّ من تبعات الخلافة ما يشغلني عن مطالعة الكتب والتبحر في العلم، ولا ينقصني شيء من الوسائل التي للخلفاء لأوفّر لنفسي أسباب الراحة والنِعم». وخطر بباله ما سمعه تلك الليلة من

عابدة، فأحس براحة ولذة وقال في نفسه: «إن جلوسي مع هذه الجارية أطارحها الأشعار وأحادثها وأسمع غناءها خير من الأمر والنهي وما يشوبهما من تعب القلب وخوف الفتنة أو الحذر من أهل الدسائس وغيرهم».

وكان يفكر في ذلك وهو واقف أمام منضدة عليها كتاب العقد الفريد، فأخذ يقلب صفحاته، والحاجب واقف بالباب ينتظر أمره فيما يريد من أمر الرقاد. ثم انتبه عبد الله لنفسه فالتفت فرأى المائدة لا تزال هناك وعليها الفاكهة. فتناول تفاحة وأخذ يأكلها وهو غارق في بحار الهواجس، ولم يشرح صدره لأنه لم يستقر على رأي يعول عليه، فأخذت الخواطر تتقاذفه بين أن يصغي لقول الطاعنين على أخيه، وبين أن يبقى على ما كان عليه من حُسن الظن فيه. وأخيراً رأى حسن الظن أدعى إلى السلامة والوفاق، فطرد تلك الخواطر من باله، وصفى نيّته على أخيه، وذهب إلى فراشه. فعادت إلى ذهنه صورة عابدة. وتذكر ما سمعه من حديثها، فأحس بلذة، وأصبحت بعد وجودها في منزله من أكبر أسباب تسليته وتعزيته، ووعد نفسه بمجالستها والتمتع بأدبها.

وباتَ تلك الليلة على عزم الإخلاص لأخيه الحكم، والتسليم له بحق ولاية العهد. فلما أصبح دخل مكتبته وهي قاعة كبيرة في جدرانها رفوف عليها الكتب في غير نظام، فوضع كتاب العقد الفريد في صدر كتب الأدب بحيث يقرب تناوله عند الحاجة، وأخذ يقلب ما بين يديه من كتب الفقه والحديث ويعود إلى الأدب والشعر، فكان يرى مشقة في الوصول إلى الكتب، فأخذ يعلل نفسه بتنظيمها متى عاد سعيد

بين الحكم وعبد الله

مضى النهار إلا أقله ولم يعد سعيد ولا الفقيه، فلما كان الأصيل ملّ عبد الله الانتظار، وتذكر عابدة فأمر حاجبه ساهراً أن يأمر القهرمانة بإرسالها إليه في القاعة للتمتع بحديثها ريثما يأتي الرجلان أو أحدهما، وقد أحس باشتياق إلى لقياهما ليرجع إلى حديث الأمس، ويظهر لهما ما صمم عليه من إغفال أمر ولاية العهد، ويتوقع أن يوافقاه على رأيه فيزداد رسوخاً في الأمر.

وعاد الحاجب وقال: «إن جاريتك عابدة آتية». فأمره أن يعد مائدة من الفاكهة والحلوى وبعض الأشربة المنعشة، فأعدها في غرفة الأمس، وجلس عبد الله وبيده كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة يقلب فيه، وبعد قليل جاءت عابدة وهي أجمل مما كانت بالأمس، فتلقاها بالترحاب وأمرها بالجلوس، وسألها إذا كانت تُحسن الضرب على العود، فأجابت: «نعم».

فأمر بإحضاره فتناولته، ولحظ فيها خجلاً أو انقباضاً، فظن ذلك ناتجاً عن استيحاشها لغياب سعيد، فابتدرها قائلاً: «كيف وجدت نفسك عندنا يا عابدة؟».

قالت: «بخير يا سيدي، وكيف لا أكون سعيدة وأنا في ظلك؟».

قال: «لكن يظهر أنك استبطأت سعيداً كما استبطأته أنا، غير أنه لا يلبث أن يأتي ولا يعود إلى الغياب».

فلما سمعت ذكره احمرّ وجهها تأثراً، فظن عبد الله ذلك خجلاً، وما دري ما يختلج في قلبها من الهيام بسعيد، فقال: «لا يلبث سعيد أن يأتي، وقد شعرت بالحاجة إليه في هذه الساعة لما دخلت مكتبتي ووجدت الكتب فيها مبعثرة. وسيتولى هو تنظيمها..

إنه رجل حكيم، وقد وقع من نفسي موقعاً حسناً. وحسبه فضلاً أنه كان وسيلة إلى قربك».

فازداد تورد وجنتيها، وعمدت إلى التخلص فقالت: «لعل هذا السبب الأخير أقل حسناته بالنظر إلى مولاي الأمير، وأما بالنظر إلى هذه الجارية فهو فضل كبير».

ففرح عبد الله بلطف أسلوبها، وتحقق أنها راضية بالمقام عنده فقال: «بل الفضل له عليَّ بذلك، ونرجو أن نستطيع مكافأته على هذا الصنيع».

فتنهدت وقالت وهي تصلح العود في حجرها: «أن سعيداً يستحق ثقة مولاي الأمير، وإذا جرّبه وجده حكيماً عاقلاً صاحب رأي وهمة يتفانى في خدمته».

فقطع عبد الله كلامها بلطف وقال: «لا نريده إلا سالماً معافى، ولنا من خبرته خير عون على تنظيم مكتبتنا وإهدائنا إلى مظان الكتب النفيسة».

قالت: «نعم، وهو يفيد في كل أمر يقترح عليه». قالت ذلك وهي تتشاغل بإصلاح وتر في العود، وأظهرت عند الفراغ من هذه الجملة أن العود قد تم إصلاحه، وضربت عليه صوتاً من الأصوات المطربة، وغنّت فطرب عبد الله. وقدم إليها بعض الفاكهة والحلوى، وأخذ في تقريظ الصوت الذي سمعه وإطراء صناعتها فيه، وهي تتواضع وتجيد في الضرب والغناء، وعبد الله متكىء على وسادة لا يزداد إلا إعجاباً بها وطرباً، وقد صوّب رأيه بالاكتفاء بها عن سائر مطامع الخلافة.

وبينما هما في ذلك إذ دخل الحاجب ووقف فعلم عبد الله أنه يريد أن يخاطبه، فالتفت إليه وأشار بيده يستفهمه عن غرضه فقال:

«إن بالباب رسولاً من مولانا ولي العهد يحمل كتاباً إلى مولاي الأمير».

قال: «وليّ العهد؟». وقد ساءه الرجوع إلى شيء من أمره.

فقال: «نعم يا سيدي».

فقال: «أين الكتاب؟».

فخرج وعاد والكتاب بيده فسلّمه إلى الأمير، فتناوله وفضه، ووجّهه إلى نافذة يدخل منها النور، أخذ يقرؤه، وقد توقفت عابدة عن الغناء وأخذت تراعيه، فرأت في وجهه تغيّراً وهو يتفرس في الكتاب ويُعيد قراءته، ثم اعتدل في مجلسه وطوى الكتاب وجعله تحت الوساة، وأراد التظاهر بعدم الاكتراث، ولم يخف على عبادة ما تولاه من الاضطراب، ولكنها لم تعرف السبب فرأت من الأدب أن تبقى صامتة تنتظر أمره.

أما هو فوقف بعد هنيهة وتظاهر بأنه يطلب حاجة في الغرفة الأخرى، فمشى إلى الباب ثم رجع كأنه تذكر شيئاً يستدعي رجوعه، وقعد في مكانه، وعاد فأخرج الكتاب من تحت الوسادة وأعاد قراءته، ثم شعر بما ظهر من قلقه أمام عابدة فأراد أن يوهمها غير الواقع فقال: «ما بالك لا تغنين يا عابدة؟».

فتناولت العود وقالت: «خفت أن أشغل مولاي عن قراءة الكتاب، ولعل فيه ما يهمه أو يدعو إلى أعمال الفكرة فيشوش عليه عودي».

قال: «ليس فيه شيء». وبدا الانقباض في وجهه ثم قال: «غني يا عابدة. غني ما شئت».

فأخذت العود وغنّت صوتاً آخر فأوقفها واقترح عليها أن تغني

قول عمرو بن كلثوم الذي ذكرته بالأمس:

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الخسف فينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

فأدركت من طلبه أن في الأمر سراً غاظه، وكانت قد علمت أن الكتاب جاءه من أخيه، ففهمت بعض الشيء وأخذت تغني وتجيد وهو يترنح طرباً ولكن الغضب بادٍ في محياه.

ثم جاء الحاجب ووقف بجانب الستر، فتذكر عبد الله أنه ينبغي أن يرد على كتاب أخيه فقال: «لعل الرسول يتوقع مني جواباً؟».

فأشار ساهر برأسه: أن نعم.

فقال بلهجة تهديد: «قل له ليس عندي جواب».

فخرج ساهر وفعل ما أمر به عبد الله، لكنه لطف الأسلوب، فبدلاً من أن يقول: «ليس عند الأمير جواب» قال: «سيرد الأمير على الكتاب فيما بعد».

فقال الرسول: «أمرت أن أرجع بالجواب الساعة».

فأكبر ساهر أن يبلغ الأمير كلامه على هذه الصورة، فاستمهله وهَمّ بالرجوع، وكانت الشمس قد قاربت الغروب، فسمع وقع حوافر بغلة في الحديقة، ثم رأى الفقيه قادماً على بغلته حتى إذا وصل ترجل وهَمّ بالدخول فرأى رسول الحكم بالباب فعرفه، فتقدم الرسول وسلم على الفقيه، فسأله عن سبب وجوده هناك فقال: «جئت برسالة من مولانا وليّ العهد، وأنا واقف ألتمس الجواب».

فدخل الفقيه وهو يقول في نفسه: «ماذا عسى أن تكون تلك الرسالة؟». فلما أقبل على مجلس الأمير وعابدة استأذن ودخل، فدعاه

الأمير إلى الجلوس والغضب بادٍ في محياه، فعلم الفقيه أن سبب غضبه مرتبط برسالة الحكم، فسرّه ذلك لأنه يساعده في مرامه فقال: «ما لي أرى مولاي غضبان؟».

قال وقد أحب التظاهر بعدم الاكتراث: «لا شيء».

فقال الفقيه: «رأيت رسول وليّ العهد بالباب. هل علم الأمير بخبر قدومه؟».

قال: «نعم وقد صرفناه. ألم يذهب؟».

قال: «رأيته لا يزال واقفاً».

فصفق عبد الله فدخل ساهر فابتدره قائلاً: «ألم تصرف الرسول؟».

قال: «بلغته أمر مولاي فقال أنه يريد الجواب الآن».

فلم يتمالك عبد الله عن التحفز للوثوب ثم تراجع وقال: «قل له ليس عندي جواب، فليمض».

قال: «قلت له يا مولاي ولم يمض».

فأظهر الفقيه مشاركة الأمير في غضبه فقال: «عجباً..! كيف لا يمضي وقد أمره الأمير بذلك؟ هل هو إلا رسول مأمور؟!». والتفت إلى الأمير وقال: «هل يأذن مولاي في أن أطلع على فحوى الرسالة فأصرفه حالاً؟».

فمدّ الأمير عبد الله يده إلى الكتاب وأخرجه من تحت الوسادة، ودفعه إلى الفقيه وقال: «هذا هو الكتاب، اقرأه لنفسك». فتناوله وقرأه فإذا هو:

«من الحكم وليّ العهد إلى أخيه الأمير عبد الله.

«أما بعد فقد بلغنا أن جارية أديبة تحفظ الشعر وتُحسن الغناء جاءتك، فأحببنا أن نراها، فإذا جاءك كتابي فأنفذها إليّ مع رسولي، وأنت في خير وعافية».

ثم رفع الفقيه بصره إلى الأمير فرآه ينظر إليه ويتوقع رأيه فقال: «قرأته يا سيدي، فما ترى؟».

قال: «قد علمت رأيي، وهل ترى أن أجيبه إلى طلبه؟».

فرأى الفقيه أن يغتنم تلك الفرصة لإثارة نقمة الأمير على أخيه فقال: «رأيت صواباً. وكأني بالحكم يبغي أن يستأثر بكل شيء كأن ذلك من حقوق ولاية العهد».

فاغتصب الأمير عبد الله ضحكة وقال: «نعم، من حقوق ولاية العهد! ألم يكفه سكوتي عن الولاية حتى تعدى إلى هذا؟».

فقال الفقيه: «ومع ذلك فإن هذا الأمر يتعلق بسعيد، وله فيه الرأي الأول بعد أمر مولاي».

قال: «مهما يكن من ذلك فليس لرسالة أخي جواب».

قال: «لا أرى بأساً من أن تجيبه على كتابه بما تراه».

قال: «ماذا أكتب إليه؟».

قال: «اكتب ما شئت. اعتذر له بأنك لا تقدر أن تجيبه إلى ما طلبه لأسباب عندك لا تستطيع بيانها».

فنادى الأمير عبد الله حاجبه ساهراً، فدخل فقال له: «إليَّ بدواة وقرطاس». فجاءه بهما، فتناول القلم وكتب:

«إلى الحكم ولي العهد من أخيه عبد الله.

أما بعد، فقد جاءني كتابك فتأملته ملياً، فلم أجدني قادراً على

إجابة طلبك فيه فاعذرني والسلام».

وختم الكتاب ودفعه إلى ساهر وقال له: «سلّمه إلى الرسول». فخرج وسلمه إليه.

وعاد الأمير عبد الله إلى ما كان فيه، وأشار إلى عابدة أن تغني، وكانت قد لحظت شيئاً يهمها لما سمعته من ذكر سعيد في أثناء الحديث فطفقت تغني:

ستعلم في الحساب إذا التقينا غدا عند المليك من الظلوم
وتنقطع اللذاذة عن أناس من الدنيا وتنقطع الهموم
إلى الديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم

فكانت تغني وعبد الله مطرق يهز رأسه، وقد جاشت فيه عاطفة الاعتبار. ولما فرغت من البيت الأخير ردد قولها: «وعند الله تجتمع الخصوم». ثم قال: «رحم الله أبا العتاهية».

واغتنم الفقيه الفرصة وجعل يطري عابدة وصوتها، وهي تجود في الغناء، وأحس عبد الله بحاجة إلى سعيد فقال: «ألا تظن سعيداً يأتي الليلة؟». ثم نادى: «ساهر».

فتقدم الحاجب فقال له: «أنِرْ السراج».

فخرج ساهر ثم جاء بعض الخدم بالسراج، وفي أثناء ذلك أجاب الفقيه عن سؤال الأمير قائلاً: «أظن سعيداً لا يلبث أن يأتي، وقد أصبح مجيئه حتماً الآن على ما أظن».

قال: «لا بد من حضوره فإنه صاحب رأي».

وبينما هم في ذلك إذ جاء الحاجب يقول: «أن سعيداً الوراق بالباب».

قال الأمير: «يدخل».

فدخل سعيد ووجهه يتدفق هيبة وذكاء، فتلقاه الأمير مرحباً، وكان أكثرهم سروراً عابدة، فإن البِشر قد علا وجهها عند دخوله وافتر ثغرها عن الابتسام، ونظرت إليه كأنها تغازله، فابتسم لها وجلس وهو يحيي الأمير ثم الفقيه.

فقال الأمير: «مرحباً بصاحبنا سعيد، لقد أبطأت علينا».

قال: «شغلت بتدبير شؤون منزلي حتى أتفرغ لخدمة مولاي». ثم أشار إلى عابدة وقال: «كيف رأيت عابدة اليوم؟».

قال: «إنها تأتينا كل يوم بطرب جديد، بارك الله فيها». ثم نادى ساهراً وأمره أن يهيىء الطعام.

وبعد هنيهة أعدت المائدة فقاموا إليها، واغتنم الفقيه غفلة من عبد الله وقصّ على سعيد أمر الكتاب الذي جاءه من الحكم وما أجاب به. فلما جلسوا إلى المائدة قال سعيد: «هذه أول مرة أتناول فيها الطعام مع الأمير عبد الله ابن أمير المؤمنين الناصر، وهو شرف عظيم لي، والفضل في وصولي إليه يرجع إلى هذه الفتاة الأديبة». وأشار إلى عابدة.

فقالت عابدة وعيناها تلمعان: «بل الفضل لك يا مولاي في وجودي هنا، فلولاك لم أنل هذه النعمة بمنادمة الأمير».

فقطع الأمير كلامهما قائلاً: «الحق يُقال إنكما صاحبا فضل عليَّ، فإني أعد هذا الاجتماع طالع عيش جديد لم أذق مثله من قبل».

وكان الفقيه ساكتاً فالتفت إلى الأمير وبيده صدر دجاجة وقال: «كلكم أصحاب فضل إلا ابن عبد البر المسكين، وهو أول مَن فتح باب التعارف!». قال ذلك ووضع اللقمة في فيه نظر إلى سعيد من

طرف خفي وغمزه بإشارة لطيفة.

وضحك عبد الله وقد سرى عنه وقال مازحاً: «ليس الفضل لأحد منا، وإنما الفضل لابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، فإن كتابه دلنا على هذا الكنز الثمين». وأومأ إلى عابدة بيد وسعيد بيد أخرى.

فتناول سعيد سكباجة بين يديه وناولها إلى عابدة وهو يقول: «ما بالك لا تأكلين يا عابدة؟ خذي كلي من طعام الأمير، واشكري الله على نعمه. إنك لا ترجين نعمة فوق هذه».

فمدت يدها وتناولت السكباجة وهي تتأمله مبتسمة.

وقطع الفقيه كلامه وهو يمد يده لتناول قدح الماء من الخادم الواقف في خدمتهم وقال: «ولو كانت عند ولي العهد؟». وقد جعل هذه الفقرة تتمة لما قاله سعيد.

فأجابه سعيد: «ما أظن ولي العهد إذا بلغه خبر عابدة ـ ولو في العراق ـ يتركها تفلت من يديه، لكننا لا نرضى عن مولانا الأمير بدلاً».

فلما سمع الأمير عبد الله ذلك الحديث انشرح صدره لأنه توسّم في سعيد عوناً له على رد طلب الحكم، وهو يظنه يقول ذلك ولا علم له بكتاب الحكم، فنظر إليه وقال: «ما قولك إذا جاءنا كتاب من أخي ولي العهد الآن يطلب عابدة؟».

قال: «ما أظنه يفعل بعد أن علم بدخولها منزلك، فإن ما ناله من شرف ولاية العهد يشغله عن أن يسلبك جارية تتمتع بحديثها. إني أجل حكمة ولي العهد عن أن يبلغ به الطمع هذا الحد، فهو يدرك أنه نال بولاية العهد حقه وأكثر، أفلا يترك لأخيه فتاة يسرّ

بحديثها؟».

فنظر عبد الله إلى الفقيه وابتسم يذكره بما اطلعا عليه من كتاب الحكم في ذلك المساء، فتجاهل سعيد هذه النظرة وأتم كلامه قائلاً: «وقد جرت عادة الخلفاء وولاة العهد في الإسلام أن يوسعوا لإخوتهم وأعمامهم أبواب الرزق ويهدوا إليهم الجواري والسراري ويقطعوهم الإقطاعات الواسعة ويفرضوا لهم الرواتب الباهظة ويبعثوا إليهم بالهدايا الثمينة تعويضاً لهم عما خسروه من حق الملك وخوفاً من نقمتهم، ومولانا ولي العهد يعلم ذلك، فكيف يعقل أنه بدلاً من أن يهدي إليه أخيه عشرات من أمثال هذه الجارية يطمح في أن يسلبه إياها؟!».

وكان سعيد يتكلم والفقيه يعجب بدهائه وحسن أسلوبه في تمكين عبد الله من حقه في رفض طلب أخيه، وعبد الله يعتقد أن سعيداً يقول ما يقوله وهو لا يعلم بما جرى، وكان يشعر عند سماع كلام سعيد بأن الحق مجسم في كل كلمة من كلامه، واقتنع بأقواله اقتناعاً تاماً، فأصبح يعد طلب أخيه تعدياً تجاوز الحد، وسرّه أنه رفض الطلب، وتأسف لأنه لم يغلظ لأخيه العتاب.

ولما فرغوا من الطعام قاموا إلى قاعة الاستراحة، وعادوا إلى السماع، وسعيد يبالغ في إطراء عابدة، وعبد الله يزداد طرباً بصوتها وإعجاباً بأدبها وجمالها، حتى انتصف الليل وكادوا ينصرفون، وإذا بساهر يدخل وبيده كتاب فوقف حيث يعلم الأمير أنه يريد مخاطبته، فناداه وقال له: «ما ذاك؟».

قال: «كتاب يا سيدي».

قال: «ممن؟».

فتقدم به إليه وهو يقول: «من مولانا وليّ العهد».

فمدّ عبد الله يده وتناول الكتاب، فعلم من عنوانه أنه من أخيه الحكم، فاختلج قلبه في صدره تطلعاً لما عساه أن يكون فيه وقد حمل إليه في تلك الساعة، فأخذ في فضه ويداه ترتعشان. وتطاول الجميع بأعناقهم وهم يتكهنون بما يحويه إلا سعيداً فإنه كان عالماً بما هنالك، ولم يفته خبر الكتاب الأول، لأنه هو الذي دفع ولي العهد إلى كتابته ولم يره، ولكنه استخدم في الوصول إلى ذلك دهاءه وحسن تدبيره.

ففض عبد الله الكتاب وقرأه، ولم يتمالك أن رمى به إلى سعيد وقال له: «ما أسرع ما صدق ظنك بولي العهد. هذا هو كتابه. اقرأه؟».

فتناوله سعيد وهو يقول: «هل أقرؤه جهاراً؟».

قال: «اقرأ فليس فينا مَن يحترس منه».

فأخذ يقرأ والجميع منصتون:

«من الحكم ولي العهد إلى أخيه الأمير عبد الله.

أما بعد، فإني عجبت من أن تكتب إليَّ بما كتبت، وكدت أنكره لو لم يكن بخطك وعليه خاتمك. اطلب منك جارية فتضن بها عليَّ، وأنت ـ رعاك الله ـ لا تجهل منزلة ولي العهد لدى أمير المؤمنين، فإذا قرأت كتابي هذا فأرسل الجارية مع رسولي الليلة، وعهدي بفطنتك وحُسن نظرك أنك فاعل إن شاء الله».

وكان سعيد يقرأ ويقف عند كل فقرة، ويهز رأسه استغراباً. حتى أتى على آخر الكتاب، فدفعه إلى الأمير عبد الله وأطرق، وكان الأمير وهو يسمع الكتاب ينظر إلى عابدة، فرآها قد تركت العود من يدها وبدت الدهشة في محياها، وتلملمت كأنها تتحفز للنهوض، فعظم ذلك على الأمير. فلما أعاد سعيد الكتاب إليه تناوله وقال:

«أرأيت ما بلغ من طمع أخي؟ أأصانعه وأحامله وألتمس رضاه، وهو يهددني ويلحّ في طلبه؟».

فقال سعيد وهو يظهر الاستغراب: «لم يكن ذلك ليخطر ببالي أو لأصدقه لو لم اقرأ هذا الكتاب بنفسي».

فقال الفقيه بلحن الفائز الظافر: «أما أنا فلم أكن أستبعده، وقد أشرت على مولانا بمثل ذلك لأني كنت أتوقعه، وهو حفظه الله يحسن الظن بأخيه، وربما أساء الظن بي، وحسبني أقول ما قلته لغرض لي. فهذا كتابه جاء شاهداً يؤيد قولي. فما عليك يا مولاي إلا الطاعة أو الخروج. فإن الرفض يجر إلى البلاء».

فأكبر عبد الله تهديد الفقيه واستخفافه بعزمه بين يدي الفتاة، فقال وهو يهز رأسه في غيظ مكتوم: «الطاعة؟ وهل لولي العهد طاعة عليَّ في مثل هذا؟ لم يبق إلا أن يطلب نسائي وأولادي إليه! أو لعله يريد أن أقوم في خدمته أيضاً».

فقطعت عابدة كلامه وهي تهم بالنهوض قائلة: «لا أحب أن أكون سبباً للخلاف بين الأمير وأخيه، فالأولى أن أخرج أنا من هذه الدار وأعود إلى خبائي أو أرجع إلى بلدي. وما أنا ممن يستحق التنازع عليه، وعهدنا بأبناء الخلفاء يتنازعون على الخلافة ويتهادون الجواري والمغنيات والمقاطعات».

فمد عبد الله يده إليها وأمسك بثوبها وأجلسها، وقد هاجت فيه الأريحية وقال: «ألا تعلمين أن خروجك من منزلي إهانة لي، كأني عاجز عن حمايتك فيه؟ متى بلغ من أخي أن يأخذك مني قسراً؟ وأن تأتي له ذلك فأنا أخرج من هذا المنزل قبلك». قال ذلك وقد بانَ الغضب في عينيه ونسِيَ موقفه.

فجلست وهي تظهر الانكسار والاذعان، وتنظر إلى سعيد كأنها

تستنجده.

فنظر سعيد إلى الأمير عبد الله وقال: «تمهل يا مولاي، أعرني سمعك لحظة».

فسكت الأمير وقال: «قل، إني سامع».

فتلفت سعيد في أطراف القاعة كأنه يحاذر أن يسمعه أحد وقال: «هل نحن في مكان مصون، لا بأس علينا إذا تكلمنا من واشٍ أو رقيب؟».

قال عبد الله: «تمهل». وصفق فجاء الحاجب فقال له: «لا نريد أن يدنو من مجلسنا أحد».

قال: «سمعاً وطاعة يا سيدي». وخرج وأغلق الباب وراءه.

فقال عبد الله لسعيد: «تكلم».

فأرسل سعيد نظرة في عيني عبد الله خرقتهما إلى داخل أحشائه، فأحس هذا أنه طوع إرادته، فقال سعيد: «لا ينبغي للأمير عبد الله أن يخرج عن رشده، ويطعن على أخيه ولي العهد، ويرد طلبه إلا وهو على يقين مما يجر إليه ذلك من العواقب الخطرة، فعليك أن تتبصر في العواقب ثم تقول ما تريد. وقد ظهر لي من تلاوة هذا الكتاب أن ولي العهد كتب إليك كتاباً مثله يطلب فيه عابدة فرددت طلبه، فأعاد الطلب مشفوعاً بالتهديد والوعيد، فعليك إذا أزمعت الرفض أن تثبت فيه مهما يكلفك ذلك من الأمور. وإلا فأذعن وأطع، واجعل كأنك لم ترَ عابدة وكأنها لم تأت منزلك».

فقطعت عابدة كلامه قائلة: «اسمح لي يا سيدي أن ألفتك إلى أمر لعله غاب عن فطنتك. إني لا أرى من الحكمة أن تحمل الأمير على مغاضبة أخيه، وهو صاحب القول اليوم، ولا أراه قادراً على رد

طلبه، ولا أحب أن أكون وسيلة لهذا التغاضب، فالأَولى أن أخرج أنا من هذا المكان، فيكون عذره أني غير موجودة هنا. وأخاف إذا رد مولانا الأمير طلبه وأنا عنده أن يعمد ولي العهد إلى أخذي بالقوة، وأنا أعترف بأني أريد بديلاً من سيدي الأمير عبد الله، فلا أبرح هذا المكان إلا ميتة».

فأعظم الأمير عبد الله تعلق عابدة به، مع ما يتخلل كلامها من التعريض اللطيف، وأخذته الحمية وقال: «قلت لك يا عابدة إنك في جواري ولا يستطيع أحد أن يأخذك قهراً».

فقال سعيد: «إذا كان مولاي الأمير مصمماً على رفض الطلب فليفعل، ولعله إذا تبصر في عاقبة ذلك يخدم نفسه ويخدم المسلمين».

فأطرق عبد الله وهو يفكر في مغزى كلام سعيد.

فتصدى الفقيه للكلام قائلاً: «أرجو أن يكون سيدي الأمير قد فهم مغزى هذا القول، وأنا أزيده بياناً». قال ذلك وزحف حتى لاصقت ركبته ركبة الأمير، وقال بصوت منخفض: «أتذكر يا سيدي ما قلته لك بالأمس عن ولاية العهد وما يقوله الناس عن أمير المؤمنين وإسناده إياها إلى الحكم دون سواه؟ قلت لك يا مولاي أن الناس لا يرون كفاءة الحكم لهذا المنصب لأسباب ذكرتها لك. وهم غير راضين عنه، لكنهم لا يجسرون على الكلام إن لم يجدوا مَن يطالب بها سواه، وهم يرون الأمير عبد الله أولى بها من الجميع. فإذا طلبها وجد أنصاراً كثيرين. فإذا وافقتني وعزمت على هذا الأمر فما عليك إلا أن تعلن ذلك».

كان عبد الله في أثناء ذلك مطرقاً يفكر، وقد رجع إليه صوابه، وأحس بثقل الأمر الذي يحرضه عليه، وندم على ما فرط منه لعلمه بعجزه عن القيام به، لكنه استثقل الرجوع في كلامه، فرأى أن

يحتال في التخلص فقال: «أرى كلام صاحبنا سعيد أقرب إلى الصواب، فإننا ينبغي لنا قبل الإقدام على هذا الأمر أن نتدبر وننظر فيه حتى لا نشعل ناراً لا نقوى على إطفائها، ولا سيما أن أمير المؤمنين هو صاحب الدولة اليوم، فقيامي بما تدعونني إليه يعد خروجاً عليه، وهو لم يتعرض لي في شيء، ولا أرى عمل أخي الحكم إلا من وحي طيشه، ولعل أمر المؤمنين إذا علم بأمره أرجعه عنه».

فقال سعيد: «لقد نطقت بالصواب ورأيت رأي أهل الحزم والدهاء. فما الذي تنويه؟ هل تطيع أخاك فيما طلبه؟».

قال: «كلا، بل أرده، فإذا أصرّ نرفع الأمر إلى أمير المؤمنين».

فقال الفقيه: «لا أرى من سداد الرأي أن تضيع هذه الفرصة التي سنحت. إنها فرصة ثمينة يا سيدي، فأقدم ولا تخف. إن في قرطبة ألوفاً ينتظرون كلمة من الأمير عبد الله ليبايعوه، وإذا أطعتني وعملت برأيي دللتك على الطريق. وإلافافعل ما بدا لك».

فنظر عبد الله إلى سعيد كأنه يستشيره، فقال سعيد: «إن الفقيه لم يقل إلا الصواب، وأن أعلم الناس بدخائل هذا الأمر، وأزيد على ما قاله أن في قرطبة عصابات قوية تجتمع سراً، وهي ناقمة على أمير المؤمنين نفسه لخروجه من سيرته عن الأسوة بالخلفاء الراشدين، وتقريبه الخصيان والصقالبة والعبيد دون أصحاب هذه الدولة ورافعي علم الدين الحنيف، وهم يرون الدولة صائرة بذلك إلى غير أهلها. وكانت الآمال عالقة بمن سيخلفه لعله ينهج طريقاً غير طريقه ويرجع إلى الصواب، وكانت أفكارهم متجهة إلى مولاي الأمير يظنون الخلافة تصير إليه، فلما رأوا أباه بايع الحكم ولم يلتفت إلى الأمير عبد الله يئسوا من الإصلاح، فإذا طلبها مولانا الأمير رأى مَنِ يشد

أزره. وإن ظللت على بيعة الحكم فأنا مبايعه معك، وليس من الحكمة التسرع في نقض البيعة، فأنا لا أشير عليك بأن تفعل أو لا تفعل، ولكنني أقول ما أعلمه، وأنت صاحب الرأي.

فأعجب عبد الله بما في كلام سعيد من الدهاء والحزم وصدق النصيحة، وعد نصيحة ابن عبد البر مشوبة بالغرض لأنه ناقم على الحكم الذي حرمه من القضاء فقال: «لله درك من حكيم عاقل، وقد فهمت مقالك، فهل ترى سرعة النهوض؟».

فأجابه وهو يظهر الجد: «لا بل أنا أدعوك إلى التبصر في العواقب، فإن ظهورك بمنازعة أخيك على ولاية العهد أمر عظيم يجر إلى فتن وحروب، إذ لا يسهل على الحكم التنازل عن شرف قلده إياه أبوه، ولا يصح للأمير عبد الله بعد أن يطلب ذلك المنصب أن يرجع عنه صاغراً. وإذا رجع هو فأنصاره الذين سيقومون بنصرته لا يرجعون حتى يسندوا الخلافة إلى أهلها الذين يعرفون قدرها ويقومون بشروطها، لأن قيام هؤلاء ليس حباً في شخص الأمير عبد الله ولكنهم أحبوا فضائله اللائقة بالخلافة رغبة في الخير. فإذا طالب بها هو ثم رجع عنها طلبوها لسواه. وأرانا قد خرجنا عن الموضوع، ونحن في مسألة طمع ولي العهد في عابدة، فإذا رجع عن طلبه لم يبقَ داع لمناوأته الآن، وإلا فسنرى ما يكون».

وكان عبد الله والفقيه وعابدة شاخصين إلى سعيد يسمعون كلامه ويُعجبون لما فيه من الحماسة، ولا سيما عبد الله فإنه فهم أشياء لم تكن تخطر له ببال، كوجود عصابات وأحزاب تنكر مبايعة أخيه وتحب مبايعته هو. ولو أنه كان من أهل المطامع لأخذَ طلب أخيه ذريعة للنهوض عليه، لكنه كان ضعيف العزيمة، وإنما سيق إلى الأمر بالإغراء، وظل مع ذلك يخشى مناهضة أخيه ويخاف سطوة أبيه،

فعمد إلى المسالمة، وأعانه على ذلك ما سمعه من سعيد، فقال: «قد علمت أشياء لم أكن أعلمها..».

فقطع الفقيه كلامه قائلاً: «والذي علمته أقل من الواقع، وستكشف لك الأيام قدر نفسك وتعلم أنك رجاء الأولوف وألوف الألوف».

فأومأ سعيد بيده إلى الفقيه وقال: «لا ينبغي أن نحرض مولانا الأمير تحريضاً، فإن الصبر أَوْلى والتأني لا بد منه، فالآن ما الذي يراه مولانا؟».

قال الأمير: «إني أرى الفقيه متسرعاً، وأوافقك على التأني وطول الأناة، ولذا فأنا أرجىء هذا الأمر إلى فرصة أخرى، لأني أتوقع أن ينصرني أمير المؤمنين ويقف في طريق أخي فيرده عن هذا التعدي، فإن لم يفعل فالأيام بيننا».

فقطع سعيد كلامه قائلاً: «نعم الرأي رأيك، وربما أدرك أمير المؤمنين عند اطلاعه على عمل ولي العهد أنه لم يحسن اختياره لما عهد إليه فيه، فيرجع إلى الصواب وينقل ولاية العهد إليك».

فزاد عبد الله تمكناً من رأيه وقال: «نؤجل ذلك إذن إلى فرصة أخرى، ونبحث الآن في طلب أخي».

فقالت عابدة: «مهما يكن من رأي الأمير في طلب أخيه فأنا خارجة بأمره من هذا القصر». قالت ذلك ونهضت وهي تجمع خمارها إلى صدرها وقد ألقت العود من يدها.

فأمسك عبد الله بطرف ثوبها وأقعدها وقال: «كيف تخرجين؟».

قالت: «أخرج بأمر مولاي، لأني رأيتني سبباً للنزاع مع أخيه

و . . . ».

فقطع الأمير كلامها قائلاً: «أما بأمري فلا تخرجين. وقد قلت لك أنه لن ينال قلامة من ظفرك. وسأكتب إليه الجواب الساعة». والتفت إلى سعيد كأنه يستشيره.

فقال سعيد: «اكتب إليه ولا تشدد الوطأة، فإن الحكمة تقتضي حسن الأسلوب لئلا تتغيّر القلوب، وإذا أذنت أن أكتب عنك كتبت، فإذا استحسنت ما أكتبه وقعت عليه وإلا رددته».

قال: «افعل».

«فتناول سعيد القلم وكتب:

«إلى الحكم ولي العهد من أخيه عبد الله».

«أما بعد فقد أخذت كتابك وعجبت لإلحاحك في طلب تلك الجارية بعد أن اعتذرت إليك، وأنت مع ذلك تهددني وتعرض بما لك من المنزلة عند أمير المؤمنين حفظه الله، وأمير المؤمنين أجل من أن يجاريك في طلبك، أو لعلك تحسب ذلك من حقوق ولاية العهد ـ على رسلك! ليس هذا من الصواب في شيء، وقد رأينا الخلفاء في الدولتين الأموية بالشام والعباسية في العراق وفي دولة آل مروان هنا إذا أكرموا أحد أبنائهم بولاية العهد عوضوا على سائر الأبناء والأعمام بالأعطية الجزيلة ووسعوا لهم في أرزاقهم ووالوهم بالهدايا من الجواري السراري والقصور والإقطاعات. فإذا علمت ذلك رجوت أن تعدل عن رأيك إلى ما هو جدير بك من مراعاة حرمة أخيك بعد أن هنأك بما نلته من الخلافة. وأنت أعقل من أن تغيّر قلبه عليك. ونحن أحوج إلى التكاتف على عدونا من الانقسام فيما بيننا والسلام».

فلما فرغ سعيد من الكتابة دفع الكتاب إلى الأمير فقرأه وأعجب بأسلوبه، ولم يدرك ما فيه من التهديد فوقع عليه وختمه، ونادى الحاجب وأمره أن يدفعه إلى الرسول ففعل.

وأراد سعيد أن يشغل الأمير عبد الله عن ذلك الشأن فقال: «هل يأمر مولانا أن يسمع صوتاً من عابدة قبل الذهاب إلى الرقاد. أم يفضل سماع الأحاديث والأشعار؟».

قال: «نسمع شيئاً من أخبار العرب».

قالت: «وما عساي أن أقول بعد ما سببته من الخلاف بين الأمير وأخيه؟ لقد والله وددت لو أني لم أخلق، أو أني لم أخرج من بغداد، حتى لا أكون سبباً لهذا الخلاف».

فقطع الأمير كلامها قائلاً: «إن وجودك نعمة تستحق شكرنا عليها، لأنك ريحانة مجلسنا، وإذا وقع خلاف بيني وبين أخي فليس هذا أول خلاف وقع بين أخوين، ولو استطعت الصبر على الضيم لم أرضَ بالخلاف، ولكن أخي تجاوز حدّه. ما لنا ولذاك، قصي علينا ما يسلينا ساعة ثم ننصرف».

فقصّت بعض الأخبار وأنشدت بعض الأشعار بعبارة فصيحة زادت الأمير تعلقاً بها، وأخيراً ذهب كل منهم إلى فراشه، ولكل منهم هاجسه، وأشد تلك الهواجس عند الأمير عبد الله، فإنه لما توسد الفراش أخذ يراجع في ذهنه كتابه إلى أخيه، فتذكر عبارات لا تخلو من الشدة، ولكنه استسلم للقضاء وقال في نفسه: «لعلها فرصة يعود خيرها عليَّ». واستسهل العمل بمشورة الفقيه في المطالبة بولاية العهد، وعلل نفسه بأن أباه لا يدع الخلاف يتمكن بين الأخوين إلى هذا الحد.

بات عبد الله ليلته قلقاً لم يذق النوم إلا غراراً، وما طلع الفجر

حتى بكر إلى المكتبة وبعث إلى سعيد، فجاء وقد تأهب لترتيب الكتب، فطلب إلى الأمير أن يسعفه ببعض الخدم يساعدونه في حمل الكتب من أماكنها إلى مكان يفرق فيه بينها حسب موضوعاتها. فجمع كتب الأدب على حدة، وكتب الفقه وحدها، وكذلك فعل بكتب الحديث والتفسير والشعر، ولم يجد بينها كتاباً في الفلسفة أو الطبيعيات أو نحوها من الكتب المترجمة عن اليونانية لأنهم كانوا يعدون اقتناءها زندقة، وكان الأمير عبد الله مشهوراً بالتقوى والزهد حتى سموه الزاهد، وكان يُنكر على أخيه اقتناءها. وكان ذلك الاعتقاد شائعاً في العالم الإسلامي عملاً بما يريده الخلفاء الذين كانوا ينكرون أمر هذه الكتب جرياً وراء الفقهاء في ذلك العهد، واحتفاظاً بنفوذهم لدى العامة. وقد يكون الخليفة نفسه لا ينكر الفلسفة ولا يعتقد مخالفتها للدين ولكنه يضطهد أصحابها لشعور العامة.

على أن الفلسفة لم يكن لها وجود في الأندلس إلا بعد زمن الناصر، أي بعد أن دخلتها رسائل «إخوان الصفا» في أواسط القرن الرابع، فنبغ فيها ابن باجة، وابن رشد، وابن الطفيل، في القرن السادس للهجرة. أما أيام الناصر التي نحن في صددها فكان قراء الفلسفة فيها قليلين، وكان شيء من كتبها قد دخل بعض مدنها في أيام عبد الرحمن الأوسط، فأخذ بعضهم بشيء منها ومن علم النجوم والرياضيات، ولم ينبغ من العلماء في هذه الفنون إلا القليل. وإنما كان رجال الدين يحرمون الخوض في تلك المسائل اقتداء بالدولة العباسية التي كانت تطارد رجال الفلسفة وتتهمهم بالكفر في أوائل عصرها.

وكان الأمير عبد الله يراقب سعيد في انتقاء الكتب حسب موضوعاتها، وربما ساعده في فرزها وهو في شاغل عن نفسه بأمر

أخيه وعابدة. وفي نحو الظهيرة أحس بتوعك وتعب فأخبر سعيداً أنه ذاهب للراحة، وبقي سعيد يرتب الكتب بمساعدة بعض الخدم. ثم جاء الفقيه، فلما قيل له أن عبد الله في فراشه أتى سعيداً وأخذ يساعده ويحادثه ويتكهن كل منهما بما عساه أن يكون جواب الحكم على كتاب عبد الله الأخير مع ما فيه من المغامز. فكان الفقيه يزعم أنه يتنبأ بما سيكون حتى قال: «كأني أرى جند الحكم وأعوانه قادمين للقبض علينا وعلى عابدة».

فهز سعيد كتفيه كأنه يقول: «لا أعلم». ثم قال: «لا أحسب ولي العهد يفعل ذلك. ما لنا وله فليفعل ما شاء. إن عابدة لا تذهب إليه ولو رضي الأمير عبد الله».

فضحك الفقيه واقترب من سعيد وفي يده كتاب ينفض عنه الغبار ويقدمه إليه ليضعه في مكانه وقال: «وزبدة القول أن النفور قد وقع بين الأخوين، ولا يلبث أميرنا أن يوافقنا على الخروج وأنت ترشدنا إلى الأحزاب، فلا يمضي العام حتى تكون ولاية العهد أو الخلافة قد انتقلت إلى صاحبنا».

فنظر سعيد في عيني الفقيه وقد استغرب تسرّعه إلى الحكم، وكيف يخيل إليه بلوغ أقصى المراد وهم لا يزالون في أول الطريق، بل هم لم يخطوا خطوة واحدة بعد. ومن الناس مَن تراه سريع التمسك بحبل الأمل، حسن الظن بالدهر، إذا تصور عملاً يعود عليه بالنفع ظن الأمر مقضياً وأنه نائل ما يريد. فهذا وأمثاله يرون من الدنيا وجهها الأبيض، ويُعبّر عنهم بالمتفائلين لأنهم لا يتوقعون إلا الخير.

وكان الفقيه ابن عبد البر منهم، وهناك طائفة أخرى لا يتوقع أفرادها في أعمالهم إلا الفشل وهم المتشائمون.

ولم يكن سعيد من هؤلاء ولا من أولئك، وإنما كان يقيس

المستقبل على ما يراه في الحاضر، فكان رأيه في عاقبة تلك المخابرة يختلف عن رأي الفقيه، ولكنه كان لدهائه يتظاهر بالجهل والسذاجة حتى يدس ما يريد دسّه. وكان ينظر إلى الفقيه نظره إلى طفل لا يعرف من أحوال الدنيا شيئاً فيسيّره كما يشاء.

وقضوا ذلك النهار في المكتبة، وبقي الأمير عبد الله في فراشه. ولما أمسى المساء ذهب الفقيه للسؤال عنه فقيل له أنه محموم وعنده ساهر الحاجب، فاستأذن في الدخول عليه فأذن له، فرأى الحمى قد أخذته فقال له: «ألا تأمر بالطبيب يراك؟».

قال: «وأي طبيب؟».

قال: «الأطباء كثيرون في قصر أمير المؤمنين، وإذا شئت أتينا لك بسليمان بن تاج طبيب أمير المؤمنين نفسه، أو أحمد بن جابر طبيب ولي العهد، أو غيرهما. إن الأطباء كثيرون».

فهز رأسه وقال: «لا هذا ولا ذاك».

فقال الفقيه: «فإذا شئت استشرت سعيداً صاحبنا فإنه عالم بفن العلاج مثل علمه بسائر العلوم. إنه رجل عجيب».

فلما ذكر سعيداً أحس الأمير عبد الله بارتياح وقال: «إن هذا الرجل من نوادر الزمان. وأشكر الله لأني وفّقت للوصول إليه. ولك فضل في ذلك».

فأطرق الفقيه تأدباً وقال: «حقاً إن سعيداً نادر المثال».

فقال الأمير: «وعابدة؟ أليست نادرة المثال أيضاً». هل رأيت مثلها فتاة أديبة تعرف الشعر والغناء؟». وكأنه تذكر حديث الأمس فانقبضت نفسه، فابتدره الفقيه قائلاً: «هل يأذن سيدي في استقدام سعيد لعله يصف علاجاً؟».

قال: «ادعه، إن لم يكن للعلاج بدوائه فللأنس برؤيته».

فأشار إلى ساهر فخرج ثم عاد وسعيد معه، وكان الليل قد ضرب سرادقه وأُنيرت المصابيح، ولحظ سعيد من احمرار عيني الأمير أن الحمى شديدة عليه، فأخذ يده فجس نبضه وأطرق كأنه يتأمل حركة النبض ثم قال: «ألم يجمع مولانا الأمير شيئاً من بوله؟».

وكانت العادة في ذلك العصر أن الإنسان حالما يشعر بانحراف في صحته يبادر إلى جمع البول في قارورة يحملها إلى طبيبه ليستعين بها على تشخيص المرض.

فقال الأمير: «قد جمعته في هذه القارورة». وأشار إلى الغلام فأتاه بقارورة جمع فيها البول. فتناولها سعيد ونظر فيها ثم قال: «إن مولانا مصاب بحمى غضبية، وهذا نوع من الحمى لا خوف منه وإن اشتد».

فأعجب عبد الله بسرعة حكمه، ووافق ذلك هوى نفسه لأنه يعتقد ذلك. وكانت هذه الحمى معروفة عندهم بهذا الاسم فقال: «أظنك أدركت الحقيقة. فإني أصبت بها مرة قبل هذه وشُفيت يظهر أنك طبيب ماهر».

قال: «إن معرفة هذه الحمى سهلة».

قال: «كيف عرفتها؟ وعلى مَن قرأت الطب؟».

قال: «تعلمته بالمزاولة في صحبة إمام الأطباء الشيخ محمد بن زكريا الرازي رئيس بيت الشفاء في بغداد، وهو الذي نظم مارستان الري وألّف كتاب الحاوي معول الأطباء اليوم في دار السلام».

قال: «صدقت إن الرازي إمام أهل الطب. ولكنني أحسبه مات».

قال: «نعم إنه مات منذ بضع عشرة سنة، وقد جاء في كتابه هذا وصف وافٍ لهذه الحمى».

قال: «وما علاجها».

قال: «إنه يعالجها بالمفرح من الحكايات وبسماع الغناء واللعب ودخول الحمّام الفاتر والتطبيب والتمرغ بدهن كثير والتغذية بما يبرّد ويرطّب».

فقال الفقيه: «لله درك من طبيب نطاسي. إن العلاج سهل. أما المفرح فهذه عابدة قريبة، وعودها رخيم، والحمّام الفاتر سهل المنال».

ثم أمر عبد الله الغلام أن يعدّ له حماماً فاتراً، والتفت إلى سعيد وقال: «سأدخل الحمام، ومتى خرجت منه تأمر عابدة أن تغنينا صوتاً مفرحاً».

فنهض سعيد وقال: «سأعود إلى الأمير بعد قليل ومعي عابدة.. رعياً لها من فتاة ذات نفع كثير».

وخرج ومعه الفقيه، ثم أحضر له الطيّب ليتطيّب به عند الخروج من الحمام. وبعد ساعة بعث الأمير إليه يعلمه أنه خرج، فجاء سعيد ومعه عابدة تحمل عودها، وجاء الفقيه، ودخلوا على الأمير في غرفته، وأخذت عابدة تضرب على عودها وتغني، وكان الأمير قد أحس براحة منذ خرج من الحمام، فانشرح صدره بسماع الغناء، واستأنس بالفتاة وزاد تمسكاً بها، وشعر براحة كأن لم يكن به بأس. فلما انقضى بعض الليل أشار سعيد عليه بالرقاد مبكراً التماساً للراحة فأطاعه، وذهب كل إلى منزله في قصر مروان.

خلا سعيد إلى عابدة في صباح اليوم التالي يعلمها شيئاً من

الشِعر، وكانت تلتذ مجالسته شغفاً بحديثه وتمتعاً برؤيته لتعلقها به، فإنها كانت تعشقه وتتفانى في حبه ولا تبالي بما تتجشمه في سبيل طاعته.

وما لبث حتى جاءه رسول الأمير يستقدمه فأسرع إليه، وقبل وصوله إلى باب القصر لحظ بالباب رسولاً صقلبياً من صقالبة الناصر، وتأكد ذلك لما أقبل على الباب فرأى الرسول واقفاً هناك وقد ترجل عن جواده، وبجانب الجواد هودج عليه الأستار مرخية كأن فيه امرأة.

فلما أقبل على الباب تقدم الحاجب ساهر واستقبله، وأشار إليه أن يدخل على الأمير فدخل، فرآه لا يزال في فراشه وقد نزع عمامته ولبس قبعة النوم. ورأى الفقيه بين يديه وكلاهما ساكت، وفي يد الأمير رق عرف من العلامة على ظهره أنه كتاب من أمير المؤمنين. فتجاهل وحيّى وهو يبتسم ونظر إلى الأمير نظرة مستفهم وقال: «كيف أصبح مولانا؟».

قال: «أصبحت بخير من فضل الله، وقد فارقتني الحمى، لكني أظنها عائدة إليَّ قريباً».

قال: «لا تخف يا سيدي، إنها لا تعود بعد ذهابها، وماذا أرى؟». وأشار إلى الرق.

فأشار عبد الله إلى الفقيه أن يغلق الباب، ومدّ يده وقدم الرق إلى سعيد، فتناوله وقرأه وأعاد قراءته، ثم نظر إلى الفقيه فرآه يرقبه وينتظر ما يبدو منه، فتلفت سعيد حوله ثم وجّه كلامه إلى الأمير عبد الله وقال: «هذا شأن آخر لم يخطر لي حدوثه!».

قال الفقيه: «لم يخطر لك ولا لمولاي، ولكنه خطر لي وقلته ولم تصدقوني».

قال سعيد: «لم يخطر لي أن أمير المؤمنين يمالىء ولي العهد على طلبه».

فقال الفقيه: «كيف لم يخطر لك ذلك وأنت الحكيم العاقل الذي لا يفوته شيء؟ ألا تعلم أن الرجل إذا انغمس في الترف والقصف طلب الزيادة فيهما؟ وإذا تعوّد الاستبداد سهل عليه الظلم؟».

وكان عبد الله مطرقاً يفكر فرفع رأسه وقال: «أيسهل عليه أن يظلم ابنه أيضاً؟».

فقال الفقيه: «ولقد ظلم ابنه الأمير عبد الله التقي الزاهد انتصاراً لابنه العامل على رأيه في كل شيء.. انتصر لولي عهده».

فقطع سعيد كلامه قائلاً: «إنه لم ينصر ولي العهد، وإنما يطلب عابدة إلى قصره».

قال عبد الله: «يطلبها إليه ليعطيها لولي عهده!». قال ذلك وصرّ بأسنانه واستلقى على الفراش وتنهّد.

فقال سعيد: «لا تغضب يا سيدي. ثق أن ولي العهد لا ينالها. وقد سمعت من عابدة نفسها بالأمس إنها لا تذهب إليه ولو قطعوها إرباً».

قال: «ولكن هل نعصي أمر أبي في إرسالها؟ ألا ترى أنه يطلب إنفاذها إليه على هودج القصر. وهل لم ترَ الهودج في الحديقة؟».

قال: «نعم رأيته، وإذا ذهبت فإنما تذهب إلى قصر الزهراء وولي العهد لا يقيم به كما تعلم».

قال الفقيه: «ولكنه يحتال علينا لعلمه أن الأمير عبد الله لا

يعصي أمر أبيه فيرسل الفتاة، ومتى صارت في قصر الخليفة صارت إلى ولي عهده».

فأطرق سعيد هنيهة وهو يعمل فكره، ثم أعاد النظر إلى الرق وقرأه ثانية وقال: «لا يمكن أن يفعل ما تقول، فإنه يطلب عابدة ليراها بعد أن سمع بأدبها ورخامة صوتها. صحيح أنه يقول أنه سمع ذلك من ولي العهد ولكنه إذا رآها لا يعطيه إياها».

قال الفقيه: «وهل تظن ولي العهد يسكت عنها ولا يطلبها من أبيه؟ وإذا طلبها منه فهل تظن أمير المؤمنين يغضبه ويمنعها عنه».

قال سعيد: "أظنه يغضبه ويمنعها عنه".

فقال الفقيه: «وهل يرضى الحكم بذلك؟ ويرضخ كما يرضخ مولانا الأمير؟».

فقطع الأمير كلامه قائلاً: «إن طاعة أبينا فرض عليَّ وعليه، فإذا لم يرض، أو إذا آثره عليَّ بهذه الجارية...». ولما وصل إلى هنا اعتدل في مجلسه وقد أخذه الغضب وجعل يحك عثنونه ويهز رأسه متشاغلاً عما جال في خاطره.

فقال الفقيه: «اسمع يا مولاي. إذا امتنع أمير المؤمنين عن تسليمها لأخيك، وغضب هذا، وتنافرا، كان ذلك غاية ما نرجوه، لأن الخليفة يرجع عند ذلك إلى حسن النظر، ويجعل ولاية العهد إليك، ولكن ما قولك إذا لم يتغاضبا عليها؟».

وكان الأمير عبد الله قد اشتد حنقه حتى عجز عن الكظم لتوعكه، والرجل في مرضه غيره في حال صحته. وقد كان عبد الله يحمل نفسه مضض الكظم خوفاً من الفشل، وكان يرجو نصرة أبيه، فلما رأى أباه يطلب ما طلبه أخوه من قبل غضب واستسهل الخروج عليه، فلما سمع سؤال الفقيه: «وإذا لم يتغاضبا؟». قال: «إذا لم يتغاضبا غضبت أنا!».

فقال الفقيه: «وهل تعرف الغضب يا سيدي؟».

فنظر سعيد إلى الفقيه شزراً وقال: «أراك لا تُحسن التعبير يا فقيه إن العاقل لا يغضب إلا قليلاً وإذا غضب كان غضبه عظيماً. ألا تذكر ما كان من صبر مولانا وطول أناته، لأنه كان يتوسم باباً للفرج محافظة على كرامة أمير المؤمنين ومراعاة لحقوق أخيه فلما لم يجده الصبر غضب. وليس غضب مثله بالأمر التافه، لأنه لا يغضب ويرضى في كل ساعة كالأطفال، وإنما يصبر ويكظم حتى إذا يئس من المسألة غضب، فتغضب لغضبه الأمة كلها، ولا يرضيه عند ذلك الكلام الليّن. وإنما يرضيه أن يعود إليه حقه بعد ضياعه». وكان يتكلم والجَد بادٍ في محياه، فلما وصل إلى هنا تراجع وأظهر أنه صرّح بما لم يكن يريد التصريح به.

في قصر الزهراء

تأثر الأمير عبد الله، بما قاله سعيد، وحاول مع ذلك أن يكبح نفسه فلم يجد مسوغاً بعد أن رأى أباه ظاهر أخاه على سلبه عابدة، فبدا له أن يتثبت من العون الذي يتوقعه إذا ناهض أباه، لكنه تهيّب أن يسأل عن ذلك من تلقاء نفسه. ونظر سعيد في عينيه نظرة كشف بها مكنونات قلبه، وأدرك ما يجول في خاطره، فعلم أن الطبخة أوشكت أن تنضج، فأراد أن يتعجل نضجها، فدنا من مجلس الأمير ونظر إليه نظرة الجَد والاهتمام وقال: «اعلم يا مولاي أنك لم تدخر وسعاً في مجاملة أخيك، وعليك الآن أن تجامل أباك، على أن لا يقلل من منزلتك ولا يميز أخاك فإذا أنصفك فهو أمير المؤمنين. وإلا.. فلا يعدم الحق أنصاراً».

قال الأمير: «ترى إذن أن أرسل إليه عابدة؟».

قال: «ألا يقول في كتابه أنه يحب أن يراها ثم يعيدها؟.

وسأكون أنا معها كما أنا معها هنا لأعملها وأفقهها، فلا تخف أن يضيع شيء من حقك».

فتصدى الفقيه قائلاً: «إذا دخلت عابدة قصر الزهراء فلن تعود إلينا. اعلم هذا من الآن».

فقال عبد الله: «إذن لا أخرجها من منزلي إلا مكرَهاً».

فقال سعيد: «ليس هذا من حُسن السياسة في شيء، سنذهب الآن وإذا مضى يومان ولم يؤذن في رجوعنا حَقّ لك كل ما تريد».

وكان الفقيه يفكر في الأمر ولا يرى فيه وسيلة تنيله أربه، فربما حبس سعيد هناك فلا يبقى له مَن يعول عليه في نصرة الأمير للقيام على أبيه فقال: «لا نأمن إذا دخلت قصر الزهراء أن يحجر عليك».

فقطع كلامه قائلاً: «لا تخف».

وبينما هم في ذلك إذ جاء ساهر وقال: «إن الرسول يستعجل الجواب».

فالتفت سعيد إلى الأمير فرآه ينظر إليه فقال: «أكتب إلى أبيك أنك أطعت أمره وأرسلت الجارية مع أستاذها، واطلب إليه أن يعيدها إليك بعد يومين. هل أكتب عنك لأنك متعب من الحمى؟».

قال: «افعل».

فتناول قرطاساً وقلماً وكتب:

إلى أمير المؤمنين الناصر من ولده عبد الله.

«أما بعد. فقد أخذت كتاب مولاي الذي طلب فيه الجارية الأديبة. وكان أخي الحكم قد طلبها لنفسه، فدفعته بالحسنى على أن يكتفي بما مُنِح من نِعم الله وفضل أمير المؤمنين، ويترك لي هذه

الجارية أتمتع بأدبها وغنائها في وحدتي وانقطاعي. ثم جاءني كتاب مولاي بتوجيهها إليه ليراها ثم يعيدها إليَّ فأطعت وفعلت، وقد انفذتها مع أستاذها سعيد الوراق. وهو الذي جاءني بها، واشترط أن يكون في صحبتها ليقرئها الأدب ويحفظها الشعر، وهو أهل لثقة أمير المؤمنين. وعهدي بمولاي حفظه الله أن يعلم بما قال، وعنده ألوف من الجواري الحِسان على اختلاف الاجناس فلا يبخل عليَّ بهذه وقد استأنست بأدبها. وهو فاعل إن شاء الله».

ودفع الكتاب إلى الأمير عبد الله فقرأه ووقّع عليه، ودفعه إلى ساهر ليعطيه إلى الرسول، ثم استأذن سعيد في أن يذهب إلى عابدة، وكانت في غرفتها تنتظر أمر عبد الله بالخروج إليه. فلما رأت سعيداً قادماً خفق قلبها لرؤيته، فهشّ لها وسلّم عليها ومدّ لمصافتحها، فصافحته وقلبها يرقص فرحاً، ولبثت تنتظر ما يقوله، فأجلسها وجلس إلى جانبها وهو ينظر في عينيها، فأطرقت تنتظر، فقال: «قد وفقت إلى ما يسرك».

فأجفلت وقالت: «هل آن لنا أن نجتمع؟».

قال: «نعم».

فضحكت فرحاً وقالت: «أين؟».

قال: «في قصر الزهراء!».

فدُهشت ولم تفهم مراده، وبانَ الاستغراب في وجهها وقالت: «ما لي ولذلك القصر؟».

قال: «إن المهمة التي جئت من أجلها لا تتم إلا هناك».

قالت: «إني لا أطلب القصور».

قال: «ألا يسرّك أن نكون معاً هناك؟».

قالت: «كلا. لأني لا أكون لك».

قال: «لا يتم لنا ما نريده إلا بعد الذهاب إلى ذلك القصر، وستكونين هناك منادمة وأدب إلى أجل مسمى».

فقطعت كلامه قائلة: «لا. لا أريد القصور. أفضل أن أكون معك في كوخ حقير على أن أكون..».

فقطع كلامها وقال وهو قابض على يدها ينظر في عينيها: «أريد أن نكون معاً هناك، وقد وعدت أن تعاونيني على الغرض الذي جئنا إلى هذه البلاد من أجله».

فأحست بقشعريرة ذهبت بإرادتها، وشعرت أنها طوع إرادته، ولم تتمالك أن قالت: «افعل ما تريد إذا كان ذلك يسرّك».

قال: «لا يسرني فقط، ولكنه واجب لا بدّ من قضائه، فإذا فرغنا من هذه المهمة تفرغنا للحياة معاً.. هل أنت على وعدك بأن تفعلي ما أوصيك به».

قالت: «نعم».

فمد يده إلى جيبه وأخرج حُقاً فيه مسحوق وقال: «احتفظي بهذا العقار حتى يوم أقول لك ما تعملين».

فتناولت الحق وجعلت تنظر فيه، فقال: «لا تنظري فيه طويلاً، سوف تعلمين ماذا تفعلين به. خبئيه بين أثوابك، وانهضي لنذهب معاً، إن الهودج في انتظارك خارجاً».

فنهضت وأصلحت من شأنها مسرورة بأنها تفعل ما أمرها به، ونسيت إرادتها وتغاضت عن أمنيتها، كأنها أُخذت بالاستهواء. ثم خرجت وركبت الهودج. وتوجه هو إلى الأمير عبد الله فودعه وودع الفقيه وطمأنها، ثم ركب بغلته وسار في أثر الهودج إلى قصر

الزهراء.

ولم يكن لهما بد من المرور بالقنطرة فوق الوادي الكبير، فتجاوزها والرسول يتقدمهما وهما يسيران في أثره، وسعيد يهيء ما يقوله، وعابدة في الهودج تسترق النظر إليه من خلال السجف كلما سنحت لها الفرصة، وكلما رأته تنهدت وقالت كأنها تخاطبه: «ما لنا وللملوك وللدول؟ دعنا من هذه المطامع، ولنعش معاً في رغد وهناء. ليس في صحبة الملوك غير العناء، ولكن أبت مطامعك إلا أن تشقى وأشقى أنا معك، ولا ندري مصيرنا أين يكون».

وبعد أن قطع الركب الجسر، عرج غرباً بجوار القصر الكبير، ثم سار شمالاً إلى قصر الزهراء في سفح جبل أسود على أربعة أميال من قرطبة، والطريق بينهما صحراء رملية.

كان يوماً صحواً قد صفا جوه، فظهرت مشارف الزهراء عن بُعد قبيل الظهر كالجبال الراسخة تتخللها الأغراس من الشجر والرياحين، وتنعكس الأشعة عن جدرانها الملونة بأنواع الرخام أو الأصباغ، وبينها القباب والمآذن والقناطر والعقود والأساطين وعليها النقوش والتصاوير. غير أن الأحواض فوقها التماثيل من المرمر المصفح بالذهب، فدُهش سعيد لتلك المناظر، ولم تكن هذه أول مرة رأى فيها الزهراء، ولكنه لم يكن قد تبين تفاصيلها، فرأى أن يلهو بقية الطريق بالاستفهام عنها، فنادى الرسول الصقلبي فوقف ولبّاه فقال سعيد: «إني أرى الزهراء أعجب ما صنعه الأدميون!».

قال: «نعم يا سيدي، فقد أجمع الذين شاهدوها أنها أعظم ما صنعه الأنس، وقد دخل فيها من النفقة الطائلة ما لا يُحصى، فإن أمير المؤمنين أخذ في بنائها منذ بضع عشرة سنة، ولا يزال العمل جارياً فيها ولا أظنه يفرغ قبل مرور عدة سنين».

قال سعيد: «أتعرف كم بلغ ما أنفقوه؟».

قال: «لا أعرفه بالضبط، ولكني أعلم أن عدد العملة فيها عشرة آلاف، وعدد الدواب ألف وخمسمائة. وقدروا ما يستخدم فيها من الصخور المنحوتة كل يوم بستة آلاف صخرة سوى الآجر. وأما الرخام فهو كثير في هذا القصر كما ترى، ومع ذلك فإن أمير المؤمنين يثيب على كل رخامة صغيرة أو كبيرة عشرة دنانير، ولم يدع بلداً فيه رخام إلا بعث في ابتياعه على اختلاف أنواعه. فجلب الرخام الأبيض من المربية، والمجزع من رية، والوردي والأخضر من صفاقس وقرطاجنة، وفي بعض قصور الزهراء حوض من الرخام منقوش بالذهب جلبه من القسطنطينية. فانظر إلى هذه الهمة العالية، هل سمعت بمثلها في الملوك؟».

فأحب سعيد أن يستزيده شرحاً لما في تلك القصور من أدلة البذخ والإسراف فقال: «لم أسمع بمثلها، ولكنني سمعت عن بعض ملوك لا يكتفون بالرخام في أبنيتهم بل يدخلون فيها الذهب والفضة».

فقطع الصقلبي كلامه وقال وهو يضحك ويشير بيده إلى قصر ناحية الشرق: «أرأيت هذا القصر الشاهق هناك؟ إنك لا تكاد ترى منه إلا ما يخطف البصر من الأشعة اللامعة المنعكسة عن الجدران والنوافذ، ولو اقتربت منه لرأيت عجباً. إن هذا القصر يُعرف بالمؤنس، ويُسمى أيضاً المجلس الشرقي، وفيه بيت المنام. وفيه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مرصعة بالدر النفيس من صنع دار الصناعة في هذه المدينة، بينها صورة أسد إلى جانبه غزال فتمساح، وغيرها من أصناف الحيوان مصنوعة من الذهب المرصع، يخرج الماء من أفواهها إلى حوض كبير. إن بناء هذا القصر اقتضى أمير المؤمنين

ما لا يُحصى من المال. ولم يعول في تشييده على غير ابنه ولي العهد، ولا يزال العمل جارياً فيه. فإذا اعتبرت ما يقتضيه ذلك من الأموال علمت مقدار ما أنفق فيه من الدنانير. على أني سمعت صديقاً لي من خصيان هذا القصر يقول: «إن أمير المؤمنين ينفق ثلث جباية المملكة في بناء هذه القصور».

فصاح سعيد: «ثلث الجباية؟ إن ذلك كثير. أتعرف مقدار الجباية يا صاحب؟».

قال: «أعرف أنها نحو ستة آلاف ألف ألف دينار، هكذا يقولون».

فقال سعيد: «لا يخلو هذا القول من مبالغة».

قال الخصي: «لا. لا أظنك تجد فيه مبالغة إذا عرفت كيف بُني قصر الخلافة أيضاً، وهو البناء الذي تراه وسط هذه القصور. إن قصر الخلافة هذا سمكه من الذهب والرخام الغليظ، وفي وسطه اليتيمة التي جاءتنا هدية من ليون ملك القسطنطينية. ويكفي أن تعلم أن قرميد هذا القصر من الذهب والفضة، غير الصهريج القائم في وسطه المملوء بالزئبق. ولمجلس هذا القصر أبواب عقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على حوامل من الرخام الملون والبلور الصافي. ولا حاجة بي إلى زيادة التفصيل إذ لا تلبث أن ترى ذلك رأي العين، فلا تستكثر عند ذلك نفقته».

فقال سعيد: «ولكنني سمعت من بعضهم أن النفقة تبلغ كل عام ثلاثمائة ألف دينار، فانظر كم يجتمع من ذلك حتى يتم البناء في أربعين سنة!».

وكانت عابدة تسمع حديثهما وتعجب، وتاقت نفسها إلى رؤية

ما هنالك من التحف، وذهبت وحشتها من ذلك الانتقال.

وكانوا يقتربون شيئاً فشيئاً حتى أقبلوا على باب الزهراء الأول، ويُعرف بباب الإقباء، وقد وقف عنده الحرس من الفرسان العبيد وبعض الحشم. فلما رأوا الصقلبي عرفوا أنه رسول الخليفة، ففتحوا له حتى دخل بالهودج وسعيد معه يتفرس في وجوه الناس هناك، فرأى أكثرهم من العبيد. فمشوا مسافة حتى أقبلوا على الباب الثاني من أبواب الزهراء، ويُعرف بباب السدة، وهو عظيم قائم على أساطين، وعليه البوابون وأعوانهم بالألبسة الخاصة بهم. فجعلوا يسيرون بين الأشجار في طرقات مرصفة بالحصى الملونة. وقد تزينت جوانبها بالرياحين والأزهار. ونظر سعيد إلى ما حوله فوجد نفسه محاطاً بالرياحين والأزهار. ونظر سعيد إلى ما حوله فوجد نفسه محاطاً بالقصور من كل ناحية. وأول ما استقبله القصر الممرد، وفيه السطح الممرد، يجلس فيه الخليفة في الاحتفالات الكبرى، وإلى يساره قصر الخلافة يجلس فيه الخليفة للعمل، وإلى اليمين قصر المؤنس وفيه بيت المنام وغرف الجواري.

شغل سعيد بمشاهدة السائرين في تلك الحدائق من الغلمان الوصفاء عليهم الألبسة الملونة تزيدهم جمالاً وقد تقلدوا السيوف الحالية، غير كبار الخصيان وذوي الأسنان. ولم يلتفت أحد منهم إلى الهودج وأصحابه لأنهم كثيراً ما يرون الجواري تحمل به إلى هناك.

وكان سعيد يجيل بصره بين هؤلاء لعله يجد ياسراً صاحبه فيسلم إليه عابدة لتكون في عهدته حتى يطلبها الخليفة، فنادى الرسول فوقف فقال له: «أين ياسر رئيس الخصيان؟».

فأشار بيده نحو قصر المؤنس وقال: «نحن ذاهبون إليه».

فمشى سعيد معه حتى إذا اقترب من ذلك القصر رأى الرسول

يترجل بسرعة، فأدرك أنه يفعل ذلك لأنه رأى قادماً ممن يحتشم منهم. فالتفت فإذا هو بياسر قادماً وحوله الغلمان، كأنه ملك بين الأتباع والأعوان، فأسرع الرسول إليه وقبّل يده ووقف متأدباً، فسأله عن خبره فدفع إليه كتاب الأمير عبد الله وأشار إلى سعيد. فالتفت ياسر إليه، وحالما وقع نظره عليه عرفه وتقدم نحوه، فأسرع سعيد إليه وحيّاه، فابتسم ياسر له، وتفاهما. ثم أشار ياسر إلى الغلام أن يأخذ عابدة إلى غرفة، تختص بها وأن يُحسن وفادتها حتى يأمره باستقدامها، ففعل.

ومشى وسعيد إلى جانبه بين أساطين قائمة هناك وفوقها عريش قد تسلقته الأعشاب، فلما خلوا قال ياسر: «إني مسرور بقدومك».

فقال سعيد: «لولا علمي أن قدومي يسرك ما أتيت. كيف أنت وكيف مولانا!».

قال: «مولانا كما تعهده، لا يهمه إلا إهلاك المال، وأنتم تعيبون عليه مسايرته لغير العرب ونحن لا نراه يحسن مسايرتنا، فلا العرب راضون ولا غيرهم. وإنك لتعلم جهدي وبلائي في خدمته، ولكن هذا أنذا أراه يقدم تماماً عليَّ، ولا يخفي عليك من هو تمام هذا وأنا الذي قدمته حتى بلغ هذه المنزلة. دعنا من ذلك، ما الذي جئت به اليوم؟».

قال: «لا تغيّر الموضوع، أنت تستغرب حال تمام معك وتعجب كيف يسعى إلى الحط من قدرك، ألا تعلم السبب؟».

قال: «لا». قال: «السبب إنك أحسنت إليه، ولعلك أحسنت إلى شخص آخر فأعانه عليك».

فأطرق ياسر لحظة وقال: «صدقت صدقت، إنك رجل حكيم. قد أصبت. عرفت الآن سبب هذا التغيير».

قال: «لا أعجب إذا عرفته أنت الآن وعرفته أنا منذ أيام».

قال: «ما هو؟».

قال: «أصل البلاء من الشخص الذي أنت سبب نعمته، لأنه نسِيَ فضلك عليه فضافر أعداءك!».

قال: «أنت تعني الزهراء، صاحبة المقام الأول عند أمير المؤمنين، إنها ليست بريئة من هذه التهمة، فقد أطاعت تماماً الخبيث فذكرتني ذكراً بارداً عند الخليفة، ففترت رغبته فيَّ، وإن كان لا يزال يُظهر رضاءه عني. على أنني أعرف كيف أنال منهما. دعنا الآن من هذا وأخبرني عما جئت من أجله».

قال: «ألم تأخذ الكتاب؟».

قال: «نعم، لكنه كتاب إلى أمير المؤمنين لم أفضه».

قال: «هو من الأمير عبد الله أرسله مع هذه الجارية إلى أبيه».

قال: «أرسلها هدية له؟».

قال: «أرسلها مرغماً، وكانت هذه الجارية عندي، وهي جارية منادمة وأدب، فرغب الأمير إليَّ أن أتركها له وأكون معها في قصره أرتب خزائن كتبه فأطعته. فلما سمع وليّ العهد بخبرها كتب إلى أخيه أن يرسلها فلم يرض، فشكاه إلى أبيه، فبعث الناصر يطلبها لنفسه، فلم يسع الأمير عبد الله إلا الطاعة، ولكنه كتب إليه هذا الكتاب يرجو منه أن يعيدها إليه بعد أن يراها، وما أظنه يفعل».

فقال ياسر: «وإذا لم يفعل فما ظنك بعبد الله؟».

قال: «أتحسبه لا يزال على سذاجته وسهولته؟ إن الأمير قد تغيّر».

قال: «تغيّر؟ بشرّك الله بالخير.. هل انتبه لنفسه وإلى ما آلت

إليه حال الدولة».

قال: «لحظت أنه لا يسكت على الضيم إذا سامه إياه أبوه».

وكانا يتحادثان وهما يمشيان في ظل ذلك العريش يسمعان تغريد البلابل وأصوات الكراكي، وسعيد قد بهره كل ما رآه هناك، لكنه لم يصل بعد إلى الموضوع الذي يهمه حقيقة، وإنما استبشر بقرب الوصول إليه ورأى أنه على قاب قوسين منه. فالتفت إلى ياسر وقال: «ألا تأخذ الكتاب إلى صاحبه؟».

فقال: «بلى. هل تأتي معي؟».

قال: «أرافقك إلى قصر الخلافة فإذا أمر الخليفة بعد تقديم الكتاب بإدخالي دخلت». قال: «حسناً».

مجلس الخليفة

مشى ياسر وسعيد إلى جانبه، واتجهت أنظار الخدم هذه المرة نحوه لأنه مع رئيس الخصيان صاحب النفوذ الأكبر في قصر الناصر، ولكن سعيداً شغل عن كل ذلك بفخامة قصر الخلافة، فما أطل على بابه حتى بهره ما حلي به من الذهب وما على عتبته من بديع النقش، فوقف الحجاب تعظيماً لياسر، فحياهم وسأل: «هل عند أمير المؤمنين أحد؟».

فأجابه رئيس الحجاب: «ليس عنده سوى القاضي المنذر بن سعيد».

فتذكره سعيد، وكان قد حضر خطبته يوم الاحتفال باستقبال رسل ملك الروم، وأدرك أنه إنما نال القضاء لهذا السبب. ودخل مع ياسر وقد أدهشه داخل ذلك القصر أضعاف ما أدهشه خارجه، فإن جدرانه مبطنة بالرخام الغليظ الملون على اختلاف أجناسه بصنع

عجيب، وسقفه قد نُقش بالذهب، فمشيا في دهليز حتى انتهيا إلى بهو مزيّن بأنواع الأصباغ المذهبة، والصقالبة وقوف بالحراب والسيوف. وكان سعيد يمشي صامتاً وقد أُخِذ بذلك البذخ الباهر، ولحظ ياسر دهشته فقال: «أراك قد دُهشت لما تراه ونحن لم ندخل مجلس الخليفة بعد، فإذا دخلته فهناك الدهشة!».

فقال: «وهل في الإمكان أفخم من هذا؟ لقد شاهدت قصور الخلفاء في بغداد ودمشق فلم أرَ مثل هذا!».

قال: «إن أولئك الخلفاء كانوا يستنكفون اصطناع الذهب في أبنيتهم. امكث هنا حتى أدخل وأعود إليك».

فوقف وشغل بمشاهدة ما على رخام الجدران من الرسوم الذهبية الجميلة، وما في الأرض من الطنافس المزركشة. وبينما هو في ذلك إذ رأى الحجاب الصقالبة في حركة كأنهم يتأهبون للسلام على قادم. فالتفت فرأى المنذر بن سعيد خارجاً من مجلس الخليفة، فأصبح يتوقع سرعة استدعائه إليه، لكنه مكث طويلاً ولم يطلب، فشغل خاطره. ثم جاءه أحد الخصيان يسأله الدخول على أمير المؤمنين فدخل متأدباً، وكان قد شاهد الناصر في قصره بقرطبة يوم استقبال رسل ملك الروم وأبناؤه إلى جانبيه. أما في ذلك اليوم فلم يكن في مجلسه سواه بعد أن صرف قاضيه المنذر بن سعيد.

فلما دخل سعيد على الخليفة رآه في صدر المجلس قاعداً على سرير من الذهب الخالص. والمجلس قاعة كبيرة جداً في وسطها بركة يأخذ لمعانها بالبصر لأنها مملوءة بالزئبق تقع عليه أشعة النور من نوافذ في جدران المجلس يغشاها زجاج ملون فيتلوّن سطح الزئبق ألواناً جميلة يزيدها لمعان سطحه جمالاً. وفي كل جدار من جدران المجلس ثمانية أبواب، قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع

بالذهب وأصناف الجواهر، قامت على حوامل من الخرام الملون والبلور الصافي. وقد دخلت الشمس من تلك الأبواب فانعكس شعاعها على صدر المجلس وجدرانه، فتولد من ذلك نور يأخذ بالأبصار. وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من أهل مجلسه أومأ إلى أحد صقالبته فيحرك ذلك الزئبق فيغمر المجلس نور كوميض البرق يأخذ بمجامع القلوب حتى يخيّل إلى الحضور أن المجلس قد طار بهم.

ومع رباطة جأش سعيد وكبر نفسه لم يتمالك عن الدهشة من فخامة ذلك المجلس. ولو نظر إلى السقف لرأى قرميده من الذهب والفضة مرتباً في هندسة جميلة، ولكنه مثل بين يديّ الخليفة، فوقف عن بُعد وحنى رأسه ثم حيّى الناصر بتحية الخلافة فقال: «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». وظل واقفاً، فوقع صوته في أذني الناصر موقعاً جميلاً، فأشار إليه الناصر أن يتقدم، فدار حتى وقف بين يديه، فأومأ إليه أن يقعد فقعد، وياسر لا يزال واقفاً. ثم انصرف ياسر ولم يبقَ في ذلك المجلس الكبير إلا الخليفة وسعيد.

وتأدب سعيد في قعوده وأطرق فوقع بصره على الزئبق فشغله لمعانه الباهر، ولكنه مكث صامتاً ينتظر أمر الخليفة، وكان قد لحظ في وجه الناصر انقباضاً، وكأنه شاهد في عينيه دمعاً، فبدأ الخليفة الكلام فقال: «أين الجارية التي بعث بها ولدنا؟».

قال: «في قصر أمير المؤمنين، تسلمها عبده ياسر رئيس الخصيان».

قال: «من أين أتيت بها؟ فقد علمت من كتاب ولدي هذا أنك صاحبها تعلّمها وتهذّبها».

قال: «هي يا أمير المؤمنين جارية أدب ومنادمة من مولدات بغداد».

قال: «بلغني أنها تُحسن الغناء أيضاً».

قال: «نعم يا سيدي إنها كذلك».

فقال الناصر وهو يمشط لحيته بأنامله: "باركَ الله في بغداد، إنها لا تزال تأتينا بالتحف والذخائر. وهل أنت من بغداد أيضاً؟».

قال: «إن عبد أمير المؤمنين من هذه الديار، ولكني رحلت إلى بغداد والشام في طلب الكتب وجمع نوادر الأدب».

قال: "بلغني أنك من نوابغ الرجال».

فوقف سعيد تأدباً وحياء وقال: «لست شيئاً، ولكنني أكون كما يشاء أمير المؤمنين».

فقال الناصر وهو يشير إليه أن يقعد: «اقعد، ولا ينبغي أن تتهيّب من مجلسنا، فقد علمت من خادمنا ياسر أنك من أهل العلم الواسع، ونحن نحب العلم ونكرّم العلماء».

فتحفز سعيد للوقوف ثانية فأقعده الخليفة وقال: «قلت لك لا تتهيّب. إن العلماء ملوك العقول، ولا يستغني ملوك الرقاب عنهم. كن مطمئناً، ولأزيدك اطمئناناً أقول لك انظر إلى عينيّ».

فرفع سعيد بصره ونظر في عيني الخليفة فرأى الدمع فيهما، وأحس الخليفة عند وقوع بصره على بصر سعيد بقوة أثّرت فيه، كأن سعيداً أرسل من عينيه أشعة نفذت في أحشاء الناصر. ولكنه أتم حديثه فقال: «أرأيت الدمع في عيني؟ إنه من احترامنا لأقوال أهل العلم. أرأيت قاضينا خارجاً الآن؟».

قال: «نعم يا مولاي».

قال: «لقد كان عندي الساعة، ولعلك تعلم أني وليته القضاء بالأمس فما عتم أن خطب في المسجد فجعل خطبته ذم تشييد البنيان

والإغراق في الزخرفة والإسراف في الإنفاق، وأكثر في ذلك فعرفت أنه ينتقد ما أخذت به من هذه الأبنية فما ملكت أن بكيت، ثم استقدمته إلى اليوم لأسأله عما أراده فما كتمني قصده، وأتاني بآيات من القرآن الكريم تقبّح عملي فأشفقت على نفسي وبكيت. وإنما ذكرت لك هذا ليسكن ما بك وتخلص لي الخدمة».

فحنى رأسه وقال: «إني عبد أمير المؤمنين وطوع مشيئته».

قال: «إني أعرفك قبل الآن يا سعيد، وقد طالما قرأت اسمك على الكتب التي أُحضرت لنا على يدك. فهل لديك كتب جديدة؟».

قال: «لا يخلو الأمر من كتب سأعرضها على أمير المؤمنين، ولكنني أتيته بكتاب حيّ ناطق لا يسأل عن أدب أو شعر إلا نطق به».

فشخص الناصر فيه كأنه يستفهمه. فقال: «أعني الجارية عابدة التي صارت في قصر الزهراء الآن فهي تغني عن الكتب، وقد انقطعت عن سائر الأعمال في سبيل تعليمها».

قال: «سنحضرها ونشنف أسماعنا بحديثها. وأما الآن فأصدقني. بلغني أنك بارع في فن التنجيم».

فقال: «ذلك شيء تعلمناه من الصغر ولا يزال بعضه عالقاً بالذهن».

قال: «إن خير العلم ما أخذ في الصغر لأنه كالنقش في الحجر».

ولم يبرح الملوك في عصور الاستبداد يشعرون بحاجتهم إلى المنجمين لكثرة مَن يحدق بهم من أهل الدسائس والمتملقين، فكأنما يستعينون بالمنجمين على استطلاع الأسرار وكشف المؤامرات. وكان

الناصر قد سمع عن سعيد الوراق من قبل وعن مهارته في كل فن، ولما دخل عليه ياسر بكتاب ابنه عبد الله ذكر سعيداً بالخير، وأطرى علمه وبراعته في التنجيم، فوقع من نفسه موقعاً حسناً. ولم يكن الناصر ساذجاً، فلم يشأ أن يستسلم لسعيد قبل أن يتدبر أمره، فسأل ياسراً عن قبيلته فقال: «إنه غريب لا أهل له، ولا يهمه غير الاشتغال بالكتب وبيعها: «فسبق إلى ذهنه حسن الظن به، وفتح له قلبه من أول جلسة، ولما كلّمه شعر بقوة فيه ارتاح له وتوقع أن يكون له عوناً كبيراً.

أما سعيد فلم يفته شيء مما جال في خاطر الناصر فأخذ يستعد لتدبير ما جاء من أجله فقال: «لا ينبغي لمولاي حفظه الله أن يستسلم لحقير مثلي، ولا أن يركن إلى التنجيم كثيراً فإنه قد يخطىء».

فأعجب الناصر بتواضعه، وزاد وثوقاً به، فقال: «إن تنصلك من المعرفة التامة يزيدني ثقة بعلمك، فإني لم أرَ بين المنجمين الكثيرين في قصري مَن يعترف بقصوره».

فرفع سعيد بصره إلى الناصر وحدّق في عينيه وقال: «ولكنني لا أحب أن أدعي منجماً. إذا شاء مولاي أن ينتفع بشيء من علمي رجوت إليه أن يكتم خبري عن خاصته ولا يعدّني في جملة المنجمين بل يجعلني في جملة الخدم، ويجعل أني معلم لتلك الجارية، وأنا لا أدخر وسعاً في بذل روحي في خدمته من كل وجه».

فاستحسن الناصر رأيه وقال: «سأفعل ذلك، أما الآن وقد فتح الحديث فأخبرني بما يدلك عليه علمك من حالنا. قل لا تخف».

قال: «إني لا أخاف شيئاً، ولكني أطلب إلى مولاي أن يثق بإخلاصي فيما أقوله، وربما كان في بعضه ما يخالف رأيه».

فاستبشر الناصر بشيء يطلع عليه فقال: «قلت لك قل ولا

تخف. اخرج كتابك وانظر إليَّ وقل ما يدلك عليه علمك».

فمدّ سعيد يده إلى جيبه وأخرج كتاب التنجيم، ففتحه وأخذ يقلّبه وينظر إلى الناصر، ويعيد النظر إلى الكتاب ويعد على أصابعه ويلتفت إلى أشعة الشمس تارة وإلى بركة الزئبق تارة أخرى. ثم أظهر الارتباك وقال: «اعفني يا سيدي من القول اليوم».

قال: «لست تاركك حتى تقول».

فاعتدل في مقعده وأعاد النظر في الكتاب ثم قال: «إني أرى الخوف يأتي أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة به». وسكت وهو يقلب صفحات الكتاب ويراقب ما يبدو من الناصر.

أما الناصر فكان لكلام سعيد وقع شديد على سمعه، وقد نبّه أفكاراً كانت كامنة في قلبه، ولكنه غالط نفسه وتظاهر بالإصغاء كأنه يسمع بقية الحديث.

فلم يفت سعيداً ما جال في خاطر الخليفة فاستأنف الكلام قائلاً: «أخشى أن يكون مولاي أمير المؤمنين قد ندم على سؤاله وإلحاحه».

فقال: «بل على العكس فإني مصغ لما تقول. ولكن ليس في نصف الخطاب جواب. فصرح بما لديك».

قال: «يظهر أن مولاي يظن المنجم يستطيع تعيين الأشخاص، فإذا كان قد قيل له ذلك من قبل فإن القائل ليس من المنجمين أو أنه يزعم للتنجيم قوة فوق قوته. إن هذه الصناعة تقبل التدجيل والإيهام مما لم أألفه. وأنا لا أقول إلا ما تدلني عليه الصناعة تماماً وهي إنما تشير إلى الأوصاف والأحوال. وقد قلت لسيدي أن الطالع دلني على أن الخوف في دار أمير المؤمنين من أكثر الناس ثقة به وأقربهم مودة

إليه، ولو سألني عن اسم ذلك الرجل أو تلك المرأة فلا يكون جوابي إلا من قبيل الرجم بالغيب».

فأُعجب الناصر بما رآه من صدق لهجة الرجل وعزة نفسه، ولكنه توهم أنه يشير إلى أناس لا يريد أن يرتاب فيهم، وإن كان لا يريد أن يرتاب في صدق المنجم، فأصبح في حيرة، وندم على تعريض قلبه للشك، لأنه شديد الحرص على الزهراء محلِ ثقته، إذ لم يكن أعز منها على قلبه، ولا يريد أن يجعل في قلبه سبيلاً لسوء الظن بها نظراً لولعه وشدة تعلقه بحبها، وقد أنفق الأموال في تشييد تلك القصور لأجلها، فكيف يجلب التعاسة لنفسه بالشكوك، وهو لا يرى له غنى عنها بوجه من الوجوه بعد أن امتلكت فؤاده وغلبته على أمره. فلم يرَ خيراً من قطع الحديث أو تحويله فقال: «لله درك من حكيم خبير، قد فهمت مرادك وسنعود إلى إتمام المقال. أما الآن فأرى أن نشاهد تلك الجارية الأديبة».

فأسرع سعيد إلى طي الكتاب وجعله في جيبه وقال وقد سرّه اكتفاء الخليفة بما ذكره له: «هي في دار مولاي بقصر المؤنس في حياطة عبدك ياسر».

قال: «سنبعث إليه أن يهيىء لنا الجارية ويحضرها الليلة إلى بيت المنام في المجلس الشرقي».

فأدرك سعيد أنه قد آن وقت الانصراف، فتحفز للنهوض وهو يقول: «هل يأذن سيدي في أن ألقنها ما ينبغي أن تقوله في حضرته؟».

قال: «لا بأس. افعل».

فخرج سعيد بعد أن حيّى وتأدب، ومشى في الإيوان والخصيان وقوف بأسلحتهم وملابسهم. ولم يكد يخرج من الباب

حتى لقيه ياسر ومعه رجل عرف سعيد من لباسه وقلنوسته أنه سليمان أبو بكر بن تاج طبيب الناصر. وكان سعيد يعرفه ويعرف مهارته في الطب ومنزلته عند الناصر بعد أن شفاه من رمد عرض له، فحياه فابتدره ياسر قائلاً: «ألم تعرف الطبيب؟».

قال: «كيف لا؟ أليسَ هو أبا بكر بن تاج الحكيم النبيل؟».

فهشّ له الطبيب وصافحه وقال: «لله درك! صدق الأستاذ ياسر.. إنك لا تجهل شيئاً، وقد سّرني أن لقيتك الساعة، وأنا أعلم مهارتك في معرفة الكتب، وقد سمعت بكتاب في الطب قيل لي أنه أنفع الكتب وأحسنها».

فقطع سعيد كلامه قائلاً: «لعلك تعني كتاب الحاوي لمحمد بن زكريا الرازي».

فبدا الاستغراب في وجه الطبيب لسرعة خاطر سعيد وتفطنه وقال: "إياه أعني".

قال: «إنه كتاب نفيس، وهو أحسن كتب الرازي وأعظمها في هذه الصناعة لأنه جمع فيه كل ما وجده متفرقاً في ذكر الأمراض ومداواتها من سائر الكتب الطبية للمتقدمين ومَن أتى بعدهم إلى زمانه، ونسب كل شيء نقله فيه إلى قائله».

قال الطبيب: «هذا هو الكتاب. وقد سمعت إطراء كثيراً فيه فهل من سبيل إليه؟».

قال: «لا أعرف منه نسخاً في قرطبة، ولكنني أبعث مَن يستنسخه لك في بغداد. وقد درسته وحفظت أهم مواده». قال ذلك وهو يمشي والطبيب بجانبه وياسر إلى الجانب الآخر والحرس ينظرون إلى ذلك الضيف ويُعجبون بما لقيه من الحفاوة لدى أمير المؤمنين.

قال ابن تاج: «إذا سنحت الفرصة لاستنساخ هذا الكتاب لي عددت ذلك فضلاً كبيراً منك».

قال: «سأفعل إن شاء الله». والتفت إلى ياسر وقال: «أخبرني أمير المؤمنين أنه سيكلفك إحضار عابدة الليلة إلى بيت المنام ليسمع غناءها، وأنا ذاهب الآن لتعليلها بعض ما تقوله في حضرته».

فاستأذن الطبيب في الانصراف وهو يثني على سعيد، وسار سعيد وياسر إلى جانبه وهو يقول له همساً: «كيف وجدت الرجل؟» يعني الناصر.

قال: «إنه كما ينبغي، ولكل أجل كتاب».

ثم سمع صوتاً يستوقفه، فنظر فإذا ببعض الصقالبة يقول له: «إن أمير المؤمنين يدعوك إليه». فقال: «إني آت الساعة». ثم التفت إلى سعيد وقال: «إني منصرف إلى أمير المؤمنين، فاذهب أنت مع هذا الصقلبي وهو يدلك على مكان عابدة».

ومشى سعيد والصقلبي بين يديه حتى أتى قصر المؤنس فتحول به إلى غرفة من غرف الأضياف وقال له: «سأرسل إليك عابدة الساعة». ومضى.

وأخذ سعيد يعمل فكره فيما يدبره لإتمام غرضه. وبعد قليل جاءت عابدة وقد تزينت بأحسن الملابس وأتقنت هندامها، فرأى فيها جمالاً لم يعهده فيها من قبل، فهشّ لها ورحّب بها وأجلسها إلى جانبه فجلست وهي تبتسم وقلبها يخفق وقد تبادر إلى ذهنها أن حُسن هندامها يزيده رغبة فيها لأنها ما برحت إلى تلك الساعة تخاف صدوده. ورغم ما كان بيديه لها من الانعطاف ظلت تخاف أن يؤخذ منها. أما هو فرحب بها وبالغ في إظهار إعجابه بها فجلست وهي مطرقة تنتظر ما يبدو منه فقال لها: «كيف أنتِ هنا؟».

فتنهدت وقال: «أجدني تعسة».

قال: «أتقولين الحق؟».

قالت وصوتها يرتجف: «نعم وحياتك!».

فقال: «وهل من حال أحسن من هذه وأنت الآن جليسة الخليفة وموضع إعجابه؟».

فتنهدت وهي تنظر إليه وتحاذر أن ينظر إليها وقالت: «ألم أقل لك إني لا أطمع في شيء من هذه السفاسف، وإنما منيتي وغاية مطلبي هي أن..». وسكتت.

فقال: «فهمت مرادك، وقد قلت لك أن ذلك ميسور لنا متى شئنا، ولكن لا بد من إتمام الأمر الذي جئنا لأجله. أين هو ذلك الحق؟».

قالت: «هو عندي في مكان أمين».

قال: «احتفظي به. واعلمي أن أمير المؤمنين سيدعوك الليلة ليسمع حديثك ويتمتع بغنائك فابذلي الجهد في إرضائه».

قالت: «سأفعل جهد طاقتي».

قال: «غنيه مما حفظته من كتاب الأغاني».

قالت: «حسناً. سأفعل».

قال: «هل عرفت أحداً من هذا القصر؟».

فأجفلت لعلمها أن ليس في القصر غير الجواري والسراري. وهي تغار من مجرد سماع ذلك من حبيبها، ولكنها لم تستطع السكوت فقالت: «عرفت بعض نسائه».

قال: «مَن عرفت منهن؟».

قالت: «أنت تريد أن أخبرك عن الزهراء زينة هذه القصور كلها». قالت ذلك وهي تنظر إليه وعيناها تبرقان وتراقب ما يبدو منه.

فأظهر عدم الاكتراث وقال: «الزهراء؟ بلغني أنها ربة هذه القصور لشدة تعلق الخليفة بها. لكن أهي تستحق هذا الإكرام؟».

قالت: «أما أنا فلا أراها بالعين التي يراها بها الناصر، ولعلي أظلمها إذا قلت أنها لا تمتاز عن كثيرات من نساء هذه القصور!».

فقال: «لا شك أن حب الخليفة لها يرفع مقامها، فأرجو أن تنالي من الخليفة الليلة ما يجعلك في منزلة أعلى من منزلتها».

فقطعت كلامه قائلة: «لا. لا أريد ذلك. وإني لأراه بعيداً إذ ليس في ما يبعث على الإعجاب، وأنا فتاة مسكينة أحفظ الأبيات من الشعر وأغنيها، وهذا لا يعجب إلا القليلين.. ثم إني لا أحب أن أستقر في قلب أحد سواك». وتلعثم لسانها وكاد الدمع يتناثر من عينيها، فضحك سعيد مستخفاً وقال: «كم يجب أن أكون سعيداً بهذه المحبة!».

قالت وقد غصّت بريقها: «إنك لسعيد يا سعيد، أما أنا الشقية».

فابتدرها قائلاً: «أراك ما زلت تستسلمين للشك؟».

قالت: «كلا. ولكن قلبي يدلني. لا لا. لا شك أنك تحبني ولو شفقة بي. ألا ترى ما أنا فيه من الهيام بك والتفاني في سبيل مرضاتك؟ فكيف لا تأخذك الشفقة بي». ومسحت عينيها بكمّها.

فنظر إليها وحدق فيها وقال: «أراكَ عدت إلى الشك؟».

فقطعت كلامه مسرعة وقالت: «لا. لا أنا واثقة بك فافعل ما

تريد».

قال: «سترين صدق قولي. والآن افعلي ما قلت لك. ولكن أخاف أن تغار الزهراء منك».

قالت: «ولماذا؟ أنا لا أسابقها إلى شيء إلا إذا سابقتني هي!». وعضت على كمها بأسنانها كأنها تلهو بذلك عن التصريح بما كادت تنطق به.

فوقف ومدّ يده إلى يدها ليصرفها، فأحست أنه يريد الذهاب فجذبت يدها من يده وقال: «أذاهب أنت؟».

قال: «نعم ولكننا سنكون معاً الليلة في حضرة الخليفة».

فتنهدت وقالت: «نعم سنلتقي ولكن..».

فأمسك يدها وودعها وهو يقول: «ابعدي عنك البلابل والمخاوف فإن الوقت قد دنا. اذهبي الآن إلى غرفتك». قال ذلك وخرج.

فظلت هي واقفة لحظة تنظر إليه، ثم تحولت نحو القصر تمشي الهوينى وقد استغرقت في أفكارها وتحيرت في أمرها.

سار سعيد إلى مقابلة ياسر في مقره، فلما التقيا دعاه ياسر إلى تناول الطعام معه. وبينما هما يأكلان إذ قال ياسر: «ما الذي صنعته بالخليفة؟».

قال: «لم أصنع شيئاً حتى الآن، فماذا لديك من الأنباء؟».

قال: «رأيت الخليفة قد تغيّر كثيراً وامتلأ إعجاباً بك».

قال: «لم أفعل شيئاً يوجب إعجابه، وما هو التغيير الذي أصابه؟».

قال ياسر: «لا أقدر أن أعين التغيير الذي حصل، ولكنني فهمت ذلك من نسق حديثه في بعض الشؤون المتعلقة بالزهراء».

فلما سمع سعيد ذلك الاسم اختلج قلبه، ولكن رباطة جأشه أخفت ذلك على جليسه فقال: «لماذا تغير عليها؟ لا أظنك مصيباً لأني لم أذكر هذه الجارية في حديثي معه مطلقاً».

قال: «لا أعلم ما الذي قلته له، ولكنني أعلم أني رأيته تغير - وعلى كل حال إن هذه الجارية قد بالغت في الاستبداد وآن لها أن تعرف ما لها وما عليها». قال ذلك بلحن التهديد.

فأظهر سعيد أن الأمر لا يهمه كثيراً وقال: «ربما كان السبب في تغيره عليها ما لحظه من استبدادها، فقد علمت أنها أصبحت لفرط دلالها تتطلب أموراً ليس من شأنها حتى أسمعها الناصر ما تكره وظل غاضباً عليها يوماً وليلة».

فبغت ياسر، ونظر إلى سعيد فرآه مستغرقاً في تقطيع صدر دجاجة بين يديه كأنه لم يقل شيئاً، فقال ياسر: «ومَن أبلغك هذا الأمر؟ ليس في هذا القصر أحد يعلم ذلك غيري، لأن الناصر أسمعها تلك الكلمات في غضبه عليها دون أن يدع أحداً يشعر بذلك خوفاً من الشماتة. لأن كل نساء هذا القصر يحسدن الزهراء على منزلتها. قل لي كيف عرفت هذا؟».

قال: «عرفته!». وهز كتفيه وحاجبيه وهو ينظر إلى السقف تجاهلاً.

فقال: «حقاً إنك ماهر في التنجيم كأنك تطلع على الغيب. لله درك من عالم حكيم!».

فضحك سعيد وقال: «إن الأمر لا يحتاج إلى معرفة الغيب.

دعنا من ذلك الآن وقل لي: «هل أوصاك الخليفة بإعداد عابدة الليلة؟».

قال: «نعم».

قال: «وهل طلب إليك أن تكون الزهراء حاضرة؟».

قال: «نعم».

قال سعيد: «إذن سنراها الليلة. إني طالما سمعت بجمالها».

فقطع ياسر كلامه قائلاً: «ولكنه أمرني أن تجالسكم من وراء الستار، وكثيراً ما يفعل ذلك في مثل هذه الحال لأنه شديد الغيرة عليها».

فقال سعيد: «من وراء الستار؟ وما هي لذته في مجالستها على هذه الصورة؟».

قال: «إنه لا يحجبها إلا إذا حضر مجلسه أحد من الرجال غيرة عليها، وستكون أنت حاضراً الليلة.. فأين أجدك لأذهب بك إلى المجلس؟».

قال: «إني ذاهب لأرتاح قليلاً، وربما نمت ساعة استعداداً للسهر».

قال: «سأمر بك في العشاء ونذهب معاً إلى بيت المنام، أو أرسل إليك مَن يأتي بك إلي». ووقف سعيد فوقف ياسر وودعه وخرج إلى غرفته، ولم يكن يطلب الرقاد وإنما أراد أن يخلو إلى نفسه للتفكير فيما يكون تلك الليلة.

وعند الغروب سمع جلبة وقهقهة في ساحة القصر، فأصغى فإذا بجماعة من الخصيان يداعبون خصياً منهم وهو يصيح فيهم.

فلما سمع سعيد صوته استبشر وعلم أنه قادم إليه وقال في

نفسه: «أتى جوهر الخبيث».

ثم سكتت الجلبة، وبعد قليل دخل على سعيد خصي قصير القامة غريب الهيئة، قصير الساقين، كبير الرأس، واسع الوجه بارز الجبهة، قبيح الخلقة، عليه لباس ثمين لكنه يضحك الثكلى لغرابته، وعلى رأسه قبعة طويلة مخروطية الشكل في رأسها شرابة، وعليه جبة من خز مطرزة تحتها قفطان من حرير أحمر لامع. ودخل على سعيد ولم يحيي فنهض سعيد وقال له: «ما الذي جاء بك يا جوهر؟».

فتقدم الغلام وقبّل يد سعيد وقال: «أتيت أعرض عليك خدمة أقوم بها».

قال: «ومَن أنبأك أني هنا؟».

قال: «هل تفوتني حركة من حركاتك يا سيدي؟ كيف تأتي إلى هنا ولا أعلم؟».

قال: «كيف هي؟».

قال: «كما تعهدها، خالية الذهن، صلبة القلب».

قال: «هل علمت أني في قرطبة؟».

قال: «لا تعلم شيئاً من ذلك».

قال سعيد: «ألم تتغيّر محبتها لذلك الرجل؟».

قال: «إن الرجل لم يترك لها سبيلاً للتفكير في سواه، فإذا غضبت استرضاها، وإذا أمرت أنفذ أمرها مهما يكن، كما قلت لك قبل الآن».

فأطرق سعيد وقال: «هل يعلم أحد أنك جئت إلى هنا؟».

قال: «مَن يعلم ذلك؟ لقد أتيت بحجة اللعب في ساحة القصر

مع بعض الرفاق الصقالبة وفررت من بينهم كأني أطلب حاجة لنفسي».

قال: "نحن الليلة ضيوفكم في بيت المنام".

قال: "أعلم ذلك، وإنما أتيت لأخبرك أنها ستحضر المجلس وتسمع الغناء، وهي شديدة الولع بالصوت الرخيم، ولها صناعة في الموسيقى، وتضرب على العود، وقد حفظت كثيراً من الشعر، ولما علمت اليوم بمجيء عابدة رأيت الغيرة دبت في عروقها، وأظنها تحب أن تزداد توسعاً في هذه الصناعة».

قال: «تحب أن تتعلم الشعر والغناء؟».

قال: «أظنها تميل إلى ذلك».

قال: «إذن أنت تعرف كيف تجعلها تطلب من مولاها أن أعلمها الشعر. فهمت؟».

قال: «نعم يا سيدي.. سمعاً وطاعة.. إني لا أنسى فضلك».

فقطع سعيد كلامه قائلاً: «هل أنت منقطع لخدمتها الآن؟».

قال: «أنا في خدمتها منذ بضعة أسابيع، وأراها ترتاح إليَّ وتُطرب لنظري وحديثي، لكنني أحسبها هذين اليومين في شاغل إذ يندر أن تطلبني إليها، ولا أعلم السبب».

قال: «لعلها غاضبة أو عاتبة أو خائفة».

قال: «لا أعلم، وربما كشفت السبب فيما بعد ـ هل تأذن في انصرافي الآن فإني أخاف أن يستبطئوني ويطلعوا على خبري معك».

قال: «اذهب».

فانحنى وحيى ومضى.

في بيت المنام

أخذ سعيد يهيىء نفسه ويصلح من شأنه استعداداً للذهاب مع ياسر إذا أتاه أو بعث في طلبه. وبعد العشاء أتاه أحد الصقالبة يدعوه إلى قصر المؤنس فخرج، ولما أطل على الحديقة بهره ما رآه فيها من المصابيح المعلقة بأغصان الأشجار أو على الجدران أو القوائم حتى أصبحت الحديقة تتلألأ بالأنوار. ومشى الخصي بين يديه حتى وصل إلى فناء القصر المذكور، فرأى الحرس وقوفاً بأسلحتهم، وعليهم الألبسة الفاخرة. ولم يكد يطل على باب القصر حتى رأى ياسراً بين يديه فاستقبله وحيّاه ومشى أمامه حتى دخل به إلى دهليز مضيء بالشموع العنبرية، وقد فُتَّ المسك في الأرض وفاحت رائحته فعطرت الأرجاء.

وما زال ماشياً وهو يسمع خرير المياه وصوت الرذاذ حتى أطل على قاعة أدهشه ما فيها مما لم يرَ في زمانه مثله.

وكان ياسر يسير بين يديه وهو يلفت انتباهه حيناً بعد آخر إلى بعض النقوش البديعة، فلما أطلا على تلك القاعة وقف سعيد وقال: «ماذا أرى؟».

قال: «هل أدهشك ما رأيته من التماثيل على هذا الحوض؟».

قال: «نعم. أعوذ بالله من قوم مسلمين يقتنون التماثيل!».

قال وهو يهمس في أذنه: «أرأيت هذا الحوض في وسط هذه القاعة؟ إنه جاء إلى أمير المؤمنين هدية من ملك القسطنطينية مع ربيع الأسقف، وهو لا يقوم بمال لجماله وفرط غرابته، وقد كلف مالاً كثيراً وتعباً شديداً قبل وصوله إلى هذا المكان مخافة أن يتحطم ما عليه من تماثيل الآدميين».

فقال سعدي: «وهل يجوز في الإسلام اقتناء التماثيل؟».

فقال ياسر: «ذلك ما نقمه بعضهم على أمير المؤمنين، ولكن الحوض جاءه هدية من ملك عظيم، وهو لا يرى ضرراً من اقتنائه، أو لعل الترف والانغماس في الحضارة سهلا عليه ذلك. فإن منظر هذا الحوض مدهش!».

قال: «نعم، ولكنني أرى فوق الحوض تماثيل أخرى، فهل أتت أيضاً مع الحوض من القسطنطينية؟».

قال: «إن التماثيل الذهبية التي تراها فوق الحوض ليست من صنع بلاد الروم».

قال: «وأين صُنعت إذن؟».

قال: «صُنعت في هذه المدينة، وهي كما تراها جميلة وثمينة».

قال سعيد: «كأني أراها مرصعة... بماذا رُصِّعت يا ترى؟».

قال: «إنها مرصّعة بالدر الغالي النفيس».

فدُهش سعيد وشُغل بذلك المنظر عما كان قادماً من أجله وقال: «أرى هذه التماثيل كثيرة وكأنها تمثل بعض أصناف الحيوان».

فأمسك ياسر بيده حتى دار به من جهة أخرى للحوض بحيث يتبين التماثيل من وجوهها فإذا هي ١٢ تمثالاً من الذهب الأحمر، مفرقة على جوانب الحوض. مجموعة منها تمثل أسداً بين غزال وتمساح. ويقابلها من الجهة الأخرى ثعبان وعقاب وفيل. وعلى الجانبين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وحدأة ونسر. وكل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس يخرج الماء من أفواهها ويصب في الحوض. فوقف سعيد لحظة مبهوتاً ثم قال: «وهذه التماثيل مصنوعة في قرطبة؟».

قال: «نعم إنها مصنوعة في دار الصناعة هنا».

قال: «لم أكن أظن مثل هذا الاتقان ميسوراً في قرطبة لأننا لا نعهد مثله في غير القسطنطينية أو رومة».

قال: «إن في قرطبة من الصنائع الجميلة ما يضارع أحسن ما يصنع في تَينك المدينتين، ولولا ضيق الوقت لذكرت لك شيئاً كثيراً منها. ولكنني أحسب مولانا الناصر قد استبطأنا».

قال: «أين هو الآن؟».

قال: «في مجلس يشرف على هذه الدار بحيث يتمتع وهو جالس هناك بمنظر هذا الحوض ويسمع خرير الماء فيه».

فمشى سعيد بجانب ياسر وعيناه على ذلك الحوض وما يتألق حوله من المصابيح أو الشموع بألوانها المختلفة، فتنكسر أشعتها في رشاش الماء المتساقط فتُبهر النظر بمجالها. وشغل ذلك المنظر ذهن سعيد حيناً ثم عاد إلى هواجسه، ولما وصل إلى باحة المجلس والخصيان وقوف عنده بالحراب قرأ على الباب هذه الأبيات:

صل مَن هويت ودع مقالة حاسد ... ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن أحسن منظراً ... من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما أزر الهوى ... متوسدين بمعصم وبساعد
يا مَن يلوم على الهوى أهل الهوى ... هل تستطيع صلاح قلب فاسد

فتذكر أنه قرأ هذه الأبيات وهو في بغداد في صدر مجلس المأمون، وتقدم فوسعوا لياسر فأزاح الستار ودعا سعيداً إلى الدخول فأطل سعيد على مجلس مرتفع لا جدار له من جهة الحوض بحيث يقع نظر الجلوس هناك على ذلك المنظر البديع. ورأى الناصر في صدر المجلس قاعداً الأربعاء على وسادة من الخز، وعلى رأسه عمامة وشي صغيرة يتخفف بها في المساء، وعليه جبة وشي خفيفة تشبّهاً ببني أمية

في الشام. وأول شيء لفت انتباه سعيد رائحة الطيب فقد كانت مالئة المكان، ورأى بين يدي الناصر عابدة جالسة مطرقة وبصرها يتجه خلسة إلى ذلك الباب حيناً بعد آخر كأنما تنتظر مجيئه. وقد مدت مائدة الشراب والفاكهة، ووقف بعض الجواري في أجمل ما تكون الوجوه والقامات وكلهن قد تمنطقن بالمناطق الحريرية الملونة، طُرّزت عليها أبيات من الشعر، منها:

زنارها في خصرها يطرب وريحها من طيبها أطيب
ووجهها أحسن من حليها ولونها من ثوبها أعجب

وقد أرسلن أطراف المناطق من الخصور تتدلى فوق جلابيب تبرق ألوانها الزاهية، وعلى ذيل بعضها هذان البيتان تطريزاً بالفضة:

أغيب عنك بود لا يُغيّره نأي المحل ولا صرف من الزمن
تعتل بالشغل عنا ما تكلمنا الشغل للقلب ليس الشغل للبدن

وعلى رؤوسهن أكاليل من زهر مضفور، وقد أرسلت شعورهن إلى الظهور، ووقفن متأدبات ينتظرن الأمر لصب الشراب أو تقديم الفاكهة. ومنظر المجلس على الأجمال يُبهر النظر لما في أرضه من الطنافس المزركشة بأبيات الشعر في نحو ما تقدم. وعلى جدرانه الستائر الموشاة بأبيات من الشعر، منها:

هجرتني كي أجاريكم بفعلكم لا تهجريني فإني لا أجاريك
قلبي محب لكم راض بفعلكم استرزق الله قلباً لا يجافيك
أصبحت عبداً لأدنى أهل داركم وكنت فيما مضى مولى مواليك

وكان الأمويون في دمشق يفضلون الوشي على سائر الأنسجة فقلدهم الناصر بذلك في فرش هذه الحجرة وفي لباسه الليلي والظاهر أنه قلّد العباسيين بتطريز الأشعار على الرياش والأثاث، فقد كانت الطنافس والستائر مزينة بأبيات جميلة فضلاً عن ألبسة الجواري.

ولما أطل سعيد على المجلس وقف بعيداً ونظر في جوانب الغرفة لعله يرى مكاناً لجلوس الزهراء إذا حضرت، فتذكر أنها ستجلس وراء الستار، ورأى إلى اليسار ستراً من الديباج الثمين المطرز بالذهب المزدان بالأشعار يقطع الحجرة في عرضها. وسمع حفيفاً وتمتمة فعلم أن الزهراء هناك فتجلد. وفي أثناء ذلك تقدمه ياسر فأخبر الناصر بقدومه فقال الناصر: «يدخل سعيد الوراق معلم جاريتنا عابدة».

فدخل وتنحى ياسر فأشار الخليفة إلى سعيد أن يجلس، فبادرت إحدى الجواري إلى وسادة قدمتها له بجانب عابدة فجلس، فقال له الناصر: «لم نسمع شيئاً من عابدة بعد».

قال: «إنها جارية مطيعة، ما الذي يأمر به أمير المؤمنين؟ هل يلذ له الحديث والغناء؟».

قال: «إن الحديث يلذ لنا هل تحدثنا بشيء لا نعرفه».

قال: «إنها تحفظ الشعر والأدب والأخبار من كل نوع، فما على أمير المؤمنين إلا أن يعين الموضوع الذي يختاره».

فأطرق الناصر هنيهة ثم قال: «أما أخبرتني أنها من مولدات بغداد؟».

قال: «نعم».

قال: «إن لبغداد نوادر غريبة. نحن نحب أن نسمع عن أصحابنا البغداديين وإن كانوا لا يحبون أن يسمعوا عنا». وضحك.

فأدرك سعيد تعريضه وقال: «طبعاً هم لا يحبون سماع ما يسوءهم، لأن أخبار مولانا أمير المؤمنين وما بالغ من سلطانه وسطوته وما أتاه من الفتح والنصر، كل ذلك يسوء أهل بغداد سماعه لأنه

يهيّج غضبهم وحسدهم، وهم الآن في منتهى الاضطراب، وقد ذهبت هيبة الخلافة منهم واستولى الأتراك على دولتهم ووضعوا أيديهم على الحكومة وأصبح الخليفة عندهم اسماً بلا مسمى. فأين هم من أمير المؤمنين صاحب السيادة وجامع كلمة المسلمين والمنكل بالكافرين، إن المسلمين لم تمر بهم أيام كأيامه ولا رأى الإسلام عزاً مثل عزّه!».

وكان الناصر يسمع إطراء سعيد مسروراً، فلما أكثر من الإطراء قطع حديثه قائلاً: «نعم ولكن للبغداديين عصراً لا مثيل له عصر الرشيد والمأمون. ولا يسعنا إنكار ما لهذين من الفضل في نقل كتب العلم، ونحن الآن إنما نجني ثمار ما غرساه. وإني كلف بسماع أخبارهما، وكثيراً ما أتقدم إلى المحدثين أن يقصوا عليّ حديثهما».

فقال سعيد: «فأمير المؤمنين إذن، في غنى عن سماع شيء من أخبار تلك الدولة؟».

قال: «بل أنا أحب ذلك، ويعجبني منه ما كان عن مجالس الأدب والشعر وما كان يدور من الأبحاث الجميلة».

فتصدت عابدة للكلام قائلة: «إن مجالس الأدب كانت تُعقد في البصرة والكوفة على الأكثر، وللكوفيين والبصريين مناظرات ومناقشات كثيرة فيها اللطيف والمفيد».

فاستحسن الناصر غنّة صوت عابدة، ولم يكن قد سمع صوتها بعد، فلفت ذلك انتباهه، فوجه كلامه إليها وقال: «أذكرتني يا عابدة مناقشة طار ذكرها في الآفاق وقد حضرها الرشيد نفسه».

قالت: «أظن مولاي يعني مسألة الزنبور والنحلة».

فضحك الناصر وقال: «نعم إياها أعني».

قالت: «إنها من أغرب الحوادث، وهي تظهر لأول وهلة أنها مسألة لغوية أو نحوية، ولكن خلفاء بغداد كانوا يخلطون السياسة في كل شيء حتى في النحو والحديث والتفسير».

فأُعجب الناصر بحكمها الذي يدل على سعة في العلم وثقة بالنفس وقال: «ماذا تعنين بالسياسة يا عابدة؟».

قالت: «أعني أنهم منذ قبضوا على زمام الدولة لم يدخروا وسعاً في تأييدها ولو خالفوا الشرع أو العقل».

فاستغرب الناصر هذا الحكم وأحب أن يطلع على حقيقته لأنه يساعده في الدفاع عن خلافته، وكان إلى ذلك الحين يعدها مقلقلة فقال: «ماذا تعنين بذلك؟».

قالت: «أعني أنهم لما قاموا يطلبون الخلافة من أجدادكم في الشام تظاهروا بالتقوى والعمل بالكتاب والسنّة، وطعنوا في خلفاء بني أمية لأنهم طلبوا الملك العضود واتخذوا الفتك وسيلة لذلك، فلما ملكوا ارتكبوا أضعاف ما ارتكبه بعض أجدادكم من الفتك والقتل على التهمة. وكانوا يظهرون أنهم يفعلون ذلك رغبة في العلم أو الدين. ولو تدبرت الحقيقة لرأيتهم إنما كانوا ينظرون من وراء ذلك إلى منافعهم. وقد نصر أبو جعفر المنصور فقهاء العراق أصحاب الرأي والقياس على فقهاء المدينة أصحاب الحديث، ولم يفعل ذلك لأنه اعتقد أن الحق في جانب أبي حنيفة رئيس أصحاب الرأي، بل ما أظنه فعل ذلك إلا نكاية في مالك رئيس أصحاب الحديث فيها لأنه أفتى بخلع المنصور وإن لم يخلعه، ولو أن المنصور رأى في تأييده نفعاً له لأيّده».

وكان الناصر يسمع كلام عابدة بلذة وشوق، لما حواه من الآراء الفلسفية التي لم يسمعها من أحد قبلها، خصوصاً أن الطعن في

العباسيين يوافق سياسته، وارتفعت في عينيه وأراد أن يستزيدها فقال: "بورك فيك من فقيهة عاقلة. لكنني رأيتك تشددين النكير على أصحابنا العباسيين، وما أدرانا أن المنصور لم يكن ينصر أبا حنيفة لاعتقاده صحة رأيه؟".

قالت: «لندع الفقه والحديث إلى ما كان من الرشيد وأبنائه في مسألة الزنبور والنحلة وهي من المسائل النحوية».

قال: «هل ترين في هذه أيضاً وجهاً سياسياً؟».

قالت: «نعم يا مولاي.. لأن العباسيين كانوا يرغبون في نصرة أهل الكوفة لأنهم نصروهم لما قاموا يطلبون الخلافة، فقدموهم على أهل البصرة وقرّبوهم إليهم، فطمع الكوفيون في مسابقة أهل البصرة، وصاروا يجادلونهم في المسائل النحوية وفي الأدب والشعر، حتى قامت مسألة الزنبور والنحلة بين سيبويه من أهل البصرة والكسائي من أهل الكوفة، وكان الكسائي يعلّم الأمين بن الرشيد، وكان الأمين ينصره باعتبار أن انتصاره انتصار لأهل الكوفة جميعاً وهم أنصار الخلفاء!».

فقطع الناصر كلامها قائلاً: «صدقتِ صدقتِ، ولولا ذلك لم يتخذ الأمين كل وسيلة لقهر سيبويه، فإنه بعد أن ظهر للملأ أن الحق في جانبه أغرى ذلك البدوي بتخطئته والحكم للكسائي، فخرج سيبويه من بغداد وقصد إلى بلاد فارس. لا شك أنهم ظلموه كما قلت تحزباً لأنصارهم الكوفيين. لله درك من حكيمة!».

كان سعيد أثناء ذلك يوجه انتباهه إلى ما وراء الستر لعله يسمع شيئاً يهمه، فشعر بحركة فأدرك أن الزهراء لا بد أنها ملت سماع ذلك الحديث من فلسفة التاريخ، وأنها صارت شديدة الميل إلى سماع الغناء، فنظر إلى عابدة وأومأ إلى جيبها يشير إلى القانون الذي كانت

تركّبه وتعزف عليه، والتفت إلى الخليفة وقال: «إن الحكمة لا تحلو من فم المرأة يا أمير المؤمنين كما يحلو الغناء!».

فضحك الناصر وأشار إلى السقاة فصبوا الأشربة من أباريق الفضة في أقداح الذهب، وقدموا للناصر ولسعيد، وأمر الجارية أن تشرب فاستأذنته في إعفائها من الشرب.

فقال: «اشربي يا عابدة. ليس هذا مسكِراً وإنما هو نبيذ التفاح. اشربي».

فمدت يدها وتناولت القدح فرأت عليه نقشاً يحيط به بيتان من الشعر هذا نصهما:

وما لبس العشاق ثوباً من الهوى ولا أخلقوا إلا بقية ما أبلى
ولا شربوا كأساً من الحب حلوة ولا مـــرة إلا وشـربهـم فضـــلى

فشربت وشرب سعيد فقال الناصر: «هل تُسمعينا شيئاً من الغناء؟».

قالت: «كما تشاء يا أمير المؤمنين».

فقال سعيد: «هل يأمر أمير المؤمنين أن تغني غناء أهل الأندلس، أم غناء أهل العراق، أم أهل المدينة؟».

فقال: «ما غناؤنا فإننا نسمعه وعندنا مَن يُحسنه، ولكننا نحب سماع غناء أهل بغداد. أما غناء أهل المدينة فهو الغناء القديم ولا بأس به».

فتذكر سعيد أنه يشير إلى الزهراء، وهي التي تُحسن غناء أهل الأندلس، وهو يعلم أنها وراء ذلك الستر، فأحب أن يسمع غناءها فقال: «إذا استحسن مولانا أن يأمر بعض جواريه المغنيات بالغناء على طريقة أهل الأندلس وعابدة تغني على طريقة أهل بغداد كان ذلك

مجاوبة جميلة».

فقال الناصر: «صدقت». وأومأ إلى إحدى الجواري الواقفات في خدمتهم فتقدمت نحوه فأشار إشارة فهمتها، فمضت إلى وراء الستر، ففهم سعيد أنه أمَرَ الزهراء بالغناء وقال الناصر: «سنسمع غناءً أندلسياً على العود، فأين عود عابدة؟».

قال سعيد: «إنها تضرب على عود لا مثيل له، ولا أظنكم سمعتم به لأنه حديث العهد في الصناعة ومخترعه ما زال حياً».

فشخص الناصر ببصره إلى عابدة فلم يجد معها عوداً إلى جانبها، وأوشك أن يستفهم سعيداً عما يعنيه فرأى عابدة تمد يدها إلى خريطة معها وتُخرج منها أعواداً أخذت تعالجها حتى صارت آلة قد شُدت أوتارها، فقال الناصر: «أهذا عود؟».

قالت: «كلا يا سيدي، إنه القانون».

فقال: «أظنه الآلة التي ركّبها الفارابي في حضرة سيف الدولة؟».

قالت: «نعم يا سيدي، إنها هي».

قال: «سمعت أنها أدهشت الحضور فأبكتهم ثم أضحكتهم. فهل تعرفين الضرب عليها؟ وأين تعلّمت؟».

فأجاب سعيد عنها قائلاً: «أدركت الرجل في مكان وأخذ عنه مثال قانونه ومبادىء صناعته وعلمت عابدة ذلك».

فقال الناصر مستغرباً: «أأنت علّمتها الموسيقى أيضاً؟».

قال: «نعم يا سيدي».

فقال: "بورك فيك. إنك تصلح لكل شيء». والتفت إلى عابدة وقال: «أسمعينا، أو تمهلي لنسمع صوتاً من غناء أهل

الأندلس». وصفق وأصغى الجميع فخرج من وراء الستر صوت عود بصناعة جيدة. وكان أكثر الناس إصغاء سعيد، ثم سمعوا الغناء فطُرب الناصر طرباً شديداً.

حتى إذا فرغ الغناء وراء الستار، نظر الناصر إلى عابدة كأنه يستطلع رأيها فيما سمعته فقالت: «إنه صوت مطرب، سمعت مثله ممن يحفظ غناء زرياب المغني!».

فقطع الناصر كلامها قائلاً: «غناء زرياب؟ صدقتِ إن هذا المغني هو الذي حمل هذه الصناعة إلى الأندلس. وقد قال الذي نقل هذا الصوت إلينا أنه من أصوات زرياب، فأَسمعينا ما عندك من غناء بغداد».

وكانت قد أصلحت القانون فتناولته واعتدلت في مجلسها وجعلت تضرب عليه ضرباً لم يسمع الناصر مثله، وكان قد استخفه الطرب وهاجه الشراب، فجعل يحرك يديه ورجليه ويزحف عن سريره، فاغتنمت عابدة تلك الفرصة وغنت صوتاً لإبراهيم بن المهدي أحسنت توقيعه وإعرابه، فلم يتمالك الناصر أن صاح من الطرب: «لله درك من مطربة معربة! زيدينا زادك الله جمالاً وصنعة».

فغنته صوتاً آخر على لحن زاده طرباً. وأشار إلى الجواري أن يسقينَه، فدارت الأقداح وسعيد يُظهر أنه يشرب وهو لا يشرب، وكذلك عابدة، فلما أحس سعيد أن الشراب أخذ من الناصر أشار إلى عابدة فأصلحت العود كما فعل الفارابي في حضرة سيف الدولة فغلب على الناصر الضحك وأغرب فيه، وسعيد يراقب ما يبدو وراء الستار، فسمع همساً وضحكاً، فأدرك أن ضحك الناصر وشدة طربه من غناء عابدة يهيجان غيرة الزهراء.

وبينما هم في ذلك إذ سمعوا نحنحة من وراء الستر لم يفطن

لها إلا سعيد، وراقب ما يبدو من الناصر بعدها فرآه انتبه لنفسه بغتة وأمسك عن الضحك وقال لعابدة: «لقد أطربْتِنا بارك الله فيك».

فأدرك سعيد أنه يريد فض الجلسة، فأومأ إلى عابدة فتحفزت للنهوض، فلم يدعها الناصر للبقاء، لكنه أشار إلى قيمة الجواري الواقفات للخدمة أن تزيد عابدة حفاوة، فمشت بين يديها إلى غرفتها. وتحفز سعيد للنهوض والاستئذان فأومأ إليه الناصر أن يمكث، ونهض الناصر ودخل من باب يؤدي إلى غرفة أخرى وأشار إلى إحدى الجواري فدخلت وراء الستر. فشعر سعيد أنه بعث إلى الزهراء لتمضي إليه. فلبث وهو يعمل فكرته فيما عسى أن يكون سبب تلك الدعوة، ولم يبق في تلك القاعة سواه.

ثم رأى الستر يتحرك، وإذا بجوهر خارج من ورائه، فلما رآه فرح بمجيئه وتوقع أن يسمع منه شيئاً جديداً، فسأله بالإشارة فتقدم إليه وهمس في أذنه: «إن الغيرة كادت تقتلها!».

ففهم أنه يعني الزهراء فقال: «ماذا فعلت؟».

قال: «لم تتمالك أن تنحنحت للناصر لتزجره عما أظهره من الإعجاب والخفة».

فضحك سعيد وقال: «لا بد أنك ساعدت في إيقاد تلك الغيرة... طبعاً.. وأخيراً ماذا ترى؟».

قال: «إني أثرت غيرتها، وجعلتها تفهم أن إتقان غناء عابدة سيقدمها عليها لدى الخليفة، وأشرت عليها أن تتعلم الغناء».

قال: «على مَن؟».

قال وهو يتطاول ليهمس في أذن سعيد: «ستطلب من الخليفة أن يكلفك تعليمها غناء بغداد!».

فبانَ البشر في وجه سعيد وقال: «وهل تظنه يقبل؟».

قال: «إذا طلبت هي ذلك فلن يخالفها لأنه طوع إرادتها. ألم ترَ مبلغ تأثير تلك النحنحة فيه وهو في إبان طربه؟».

قال سعيد: «لقد أحسنتَ يا جوهر، بورك فيك. طالما توقعت منك المهارة والذكاء. إني أسمع قلقلة مفتاح في باب كما أسمع وقع خطوات، لعل الخليفة قادم. امضِ».

قال: «لا أظن الخليفة يعود إليك بنفسه، ولكنه يبعث رسولاً بما يريد. هذا الرسول جاء. أستأذنك، إني منصرف». قال ذلك وعاد إلى ما وراء الستار.

ولبث سعيد صامتاً يشغل نظره بما هنالك من الأنوار والزخارف، وإذا هو بياسر قد دخل، فهشّ له ونهض لاستقباله وقد توسم في وجهه خبراً فقال: «خيراً إن شاء الله؟».

فابتسم ياسر وقال: «جئتك برسالة من أمير المؤمنين. فهو يثني على علمك، وقد أمر لك بجائزة سنية. ثم هو يطلب منك أن تمكث في هذا القصر بضعة أيام لأنه يحتاج إليك في أمر».

قال: «ألم يقل لك ما هو ذلك الأمر».

قال: «كلا».

فأطرق سعيد كأنه يفكر ثم قال: «أنا أقول لك».

قال: «هل تعرف ما يجول في ذهن الخليفة؟».

قال: «وما الفرق بيني وبينك إذن؟». وضحك مماجنة.

فجاراه في الضحك وقال: «قد تعودنا منك معرفة الغيب. قل ما الذي يريد منك؟».

قال: «يريد أن أعلّم جاريته الزهراء الغناء، ما قولك؟».

فربُتَ ياسر كتف سعيد تودداً وإعجاباً وقال: «قد لاحظت ذلك منه وإن لم يقله لي».

قال: «أنا أقوله».

قال: «وهل ساءك ذلك؟».

قال سعيد: «كلا. ولكنني جئت من منزل الأمير عبد الله على أن أعود إليه مع عابدة بعد يوم أو يومين، فكيف أمكث هنا أياماً؟ أخاف أن..».

فقطع ياسر كلامه قائلاً: «مهما يكن من أمر فإن قول أمير المؤمنين لا يُرَد».

قال: «نعم، أعرف ذلك، وأنا باقٍ كما أمر. فهل تبقى عابدة معي أم هي ذاهبة؟».

قال: «لم يقل لي شيئاً عن ذلك، ولكني أستدل من قرائن الأحوال أنها باقية لأنه أمر أن نعد لها غرفة خاصة ونقدم لها كل ما تحتاج إليه».

قال: «لكنه لا يلبث أن يأمر بإخراجها لأن الزهراء...».

ففهم ياسر مراده فابتدره قائلاً: «لا. لا... إن الزهراء إذا أظهرت الغيرة من عابدة لصناعتها في الغناء فهي لا تخاف أن تتقدم عليها، لعلمها أنها جارية أدب ومنادمة. وقد فهمت ذلك من يوم مجيئها.. وزد على ذلك أن الزهراء ذات دهاء وتعقل، وإنما غلبت الناصر بتعقلها أكثر مما غلبته بجمالها. وما لنا ولهذا؟ هيا بنا الآن إلى الحجرة التي أعددناها لك ريثما يبعث الناصر في طلبك».

قال: «حسناً». ومشى مع ياسر حتى خرج من ذلك القصر إلى

بناء بجانبه، فأدخله ياسر غرفة هناك ببابها خصي أمره أن يكون في خدمته وانصرف.

ودخل سعيد تلك الغرفة فوجد فيها كل ما يحتاج إليه لتبديل ثيابه فقعد هنيهة وقد أطلق لنفسه عنان الفكر، وأخذ يتدبر ما سمعه وما يتوقع أن يكون. ثم بدل ثيابه ونام.

استيقظ سعيد في صباح اليوم التالي، وجلس ينتظر أمر الخليفة، فلما أبطأ عليه لبس ثيابه وخرج يتمشى في الحديقة، وأمر الخصي الواقف لخدمته أن يدعوه إذا طلبه الخليفة وعيّن له المكان في الحديقة.

وخرج حتى نزل حديقة بجوار القصر فيها بركة يتدفق الماء فيها من أنابيب الرصاص. فوقف عندها وأخذ يتأمل حركات الماء، وأفكاره تائهة فيما هو فيه، فلاحَت منه التفاتة فرأى شبحاً خارجاً من جانب القصر من باب لم يعرفه، فحول نظره إليه فرآه رجلاً في لباس الخصيان من طبقة الوصفاء الذين يلبسون الدروع السابغة. لكنه رآه يمتاز عنهم بمنطقة حمراء مطرزة بالذهب تدل على تقدمه بين الأقران بالمنصب والخدمة. وتبين في وجهه شيئاً يعرفه، فحدق فيه فإذا هو ساهر غلام الأمير عبد الله. ولحظ من حركاته إنه يحاول الخروج خلسة دون أن يختلط بخصيان القصر فقال في نفسه: «لا يخلو أن يكون مجيء ساهر هذا لأمر ما». وانزوى في ظل خميلة هناك كأنه يتأمل أزهارها. فمر ساهر مرور اللص وهو يحسب سعيداً لم ينتبه له. فلما تجاوز الخميلة أعاد سعيد النظر إليه فتحقق أنه ساهر بعينه. ولو لم يره يحاول إخفاء أمره لم يسيء الظن به. فحفظ ذلك في ذاكرته وظل يتمشى في الحديقة نحو ذلك الباب لعله يكشف شيئاً جديداً، فرأى الخصي الموكل بخدمته مسرعاً نحوه فعلم أن الخليفة يطلبه، فتجاهل

وظل ماشياً فأدركه الخصي وناداه، فالتفت سعيد إليه وسأله عن غرضه فقال: «إن أمير المؤمنين بعث في طلبك».

قال: «هلم إليه». ومشى نحو الباب الذي خرج منه ساهر.

فاعترضه الخصي قائلاً: «من هنا يا سيدي». وأشار إلى الباب الآخر.

فقال سعيد: «لكن هذا أقرب. أليسَ مولانا الأمير في هذا القصر؟».

قال: «بلى. ولكن المرور من هذا الباب محظور».

فأطاعه ومشى وهو يقول: «لماذا؟».

قال: «لأنه يؤدي إلى مقام السيدة الزهراء».

فحفظ ذلك في ذهنه وسكت.

وبعد ذلك دخل قصر المؤنس وتوجه إلى بيت المنام، فاستقبله ياسر رئيس الخصيان وقد بدت البغتة في وجهه وقال: «أين كنت؟».

قال: «كنت أتمشى في الحديقة».

قال: «بعث أمير المؤمنين في طلبك».

قال: «ها أنذا!».

قال: «انتظر ريثما أستأذن لك».

فوقف سعيد ودخل ياسر ثم عاد وأشار إليه أن يتقدم، فمشى حتى دخل غرفة في صدرها سرير عليه فراش من ريش النعام المكسو بالحرير الأحمر الزاهي، وقد جلس عليه الناصر وهو لا يزال بلباس النوم وعلى رأسه قبعة (طاقية) من الحرير الموشى بالذهب، وقد علقت بالسيف مراوح من ريش النعام تتحرك بتدبير خاص. وحول السرير

وقفت الوصائف بالألبسة الفاخرة، فلما دخل سعيد أشار الخليفة إلى الجميع بالخروج، واستدناه فمشى حتى وقف بين يديه فقال له: «لا أظنك تجهل منزلتك عندنا بعد أن دعوناك للدخول علينا ونحن في الفراش. فإن رفع الكلفة يدل على الرضاء والصفاء. اجلس".

فانحنى سعيد وظل واقفاً، فأمره ثانية أن يقترب منه ويجلس، فمشى حتى صار بجانب السرير وجلس جاثياً على وسادة هناك وهو مطرق تأدباً، فقال له الناصر: "يحسن بالعقلاء التأدب بين يدي الملوك، ولكنني ذكرت لك منزلتك عندي بالأمس لما آنسته من علمك وصدق لهجتك فدع التهيب».

قال: «إن تنازل أمير المؤمنين مع مملوكه إلى هذا الحد يحملني على زيادة الشعور بحقارتي، ويزداد المولى حفظه الله رفعة في عيني».

قال: «إن مقام أهل العلم محفوظ عندنا. إنهم عيون الملك ونبراسه، وقد رأيت أنك من خيرة العلماء المخلصين».

فشكره بالانحناء وسكت، فقال الناصر: «لا نسألك التنجيم الآن، فقد أجلنا ذلك إلى فرصة أخرى، ولكن جاريتنا الزهراء سمعت غناء تلميذتك عابدة فأحبت أن تُتقن الغناء على يدك، فهل تفعل؟».

فنهض سعيد وهو يتلملم من التأدب وقال: «إن العبد لا يخيّر وإنما هو طوع إشارة مولاه، وإني لسعيد لأن فيَّ شيئاً أقدر أن أخدم أمير المؤمنين ببذله».

فقطع الناصر كلامه قائلاً: «أنت سعيد على كل حال.. إنك سعيد بعلمك وأدبك. ولا تظنني نسيت ما طلبته من كتمان حقيقة منصبك وإظهارك بمظهر معلم عابدة. وفي هذا المساء يأتيك رسول الزهراء فتذهب إلى غرفتها لتلقينها بعض ألحان بغداد».

فأشار بيده على رأسه مطيعاً.

فقال الناصر: «أنت تعلم منزلة الزهراء عندنا».

فكرر سعيد انحناء رأسه كأنه يقول: «نعم أعلم جيداً».

فقال الخليفة: «فأعد لها ألحاناً جميلة مما صنعه إبراهيم بن المهدي، فإننا نحب صنعة أبناء الخلفاء، ولا بأس من تعليمها بعض أصوات إسحاق الموصلي».

قال: «سيرى أمير المؤمنين ما يسرّه فإن عبده لا يحتاج إلى إيضاح».

فقال له: «وقد أمرنا لك بجائزة هي دون ما تستحقه، وسنوالي ذلك عليك ما دمت على حُسن ظننا فيك».

فوقف سعيد وقد أحس أنه قد آن له أن ينصرف، فاستأذن وخرج، فلقيه ياسر في الدهليز فأخبره بما أمر له به الخليفة من العطاء وقال: «يظهر أنك حظيت برضا أمير المؤمنين».

قال: «أنا لا أستحق هذه الحظوة، ولكن ما قدّر يكون».

فاكتفى ياسر بذلك ومشى مع سعيد إلى باب غرفته، وتركه خوفاً من الرقباء.

الزهراء

دخل سعيد الغرفة فرأى الخادم قد أعد له الطعام فتناوله، ثم جلس واستغرق في التفكير فيما سيكون عند اجتماعه بالزهراء، وهو يعلم أنه سيجتمع بها وهي وراء الستر، وكلما تصور ذلك الاجتماع خفق قلبه.

وقضى ذلك اليوم على أحر من الجمر بين الجلوس في الغرفة والتمشي في الحديقة، وقد طال عليه الوقت، فلما غربت الشمس

عاد إلى الغرفة ولبث في انتظار الرسول ولما دنا وقت العشاء ولم يأت الرسول شغل خاطره، ثم رأى جوهراً قادماً فهشّ له، وهو يتوقع أن يدعوه للذهاب إلى الزهراء، فرآه يمشي نحوه ولا يتكلم، فابتدره قائلاً: «ما وراءك؟».

قال: «ما ورائي شيء».

قال: «وكيف ذلك؟ ألم تبعثك الزهراء في طلبي؟».

قال وهو يهز كتفيه: «كلا.. وقد كنت أنتظر أمرها بذلك».

فقال سعيد: «وهل عدلت عن تعلم الغناء؟».

قال: «لا، ولكنني لا أعلم أين هي؟».

قال: «كيف ذلك؟ أليست في غرفتها؟».

قال: «ليست هناك».

قال: «لعلها عند الخليفة؟».

قال: «كلا».

قال: «أين هي إذن؟».

قال: «لا أدري يا سيدي، وإنما أعلم أن وصيفاً جاءها في الأصيل معه امرأة قال أنها ماشطة، فخرجت الزهراء معها ولم تعد بعد».

فاستغرب سعيد قوله وقال: «أليس في القصر مواشط؟».

قال: "في القصر مواشط كثيرات، ولكن. لهذه الماشطة صناعة خاصة في إصلاح الشعر».

قال: «ألم تفتش عنها في القصر؟».

قال: "فتشت عنها في كل مكان أعهدها تقيم به فلم أجدها».

فدُهش سعيد وأطرق لحظة ثم قال: «ألا تعرف الوصيف؟».

قال: "أعرفه، وقد كان في الصباح عندها».

فانتبه سعيد وقال: «لعله صاحب المنطقة الحمراء».

قال: «نعم هو، هو بعينه. كيف عرفت ذلك؟».

قال: «عرفته.. وهو نفسه الذي أتاها بالماشطة؟».

قال: «نعم هو بعينه».

قال: «هل رأيت الماشطة؟».

قال: «لم أرَ وجهها، لأنها مبرقعة».

فتوسم سعيد في الأمر دسيسة وقال: «الآن وقتك يا جوهر».

قال: «لبيك يا سيدي».

قال: «تبحث عن الزهراء في كل غرفة ودهليز حتى في السراديب وعلى السطوح.. ابحث عنها الآن وآتني بالخبر، لا بد من وجودها هنا».

فقال: «سمعاً وطاعة». وخرج.

ومكث سعيد وقد أخذته الدهشة، وجعل يفكر فيما سمعه وهو لا يكاد يصدقه لولا اعتقاده صدق ذلك القزم. وبعد قليل جاءه جوهر والبغتة بادية في وجهه وقال: «تعال يا سيدي».

فمشى معه حتى أتى دهليزاً من دهاليز القصر يؤدي إلى باب يستطرق إلى حديقة خاصة لا يدخلها أحد إلا بأمر الزهراء. فلما وصلا إلى الباب أشار جوهر بأصبعه إلى نور ضعيف يظهر من خلال الأغصان وقال: «انظر».

فنظر فرأى الزهراء، وإلى جانبها شبح بلباس النساء، وتفرس

في وجهه فإذا هو عبد الله بن الناصر، فخفق قلبه وارتعدت ركبتاه من شدة التأثر ولولا رباطة جأشه لوثب عليهما. ولكنه تجلد وأعاد النظر فلم يرَ وجه الزهراء، ولكنه عرفها من ثيابها على شهادة جوهر. أما عبد الله فرأى وجهه، وأنصت فسمعهما يتحادثان همساً، وهَمّ أن يدنو لسماع الحديث فسمع وقع خطوات في الدهليز فخاف أن يؤخذ بالتلصص ويعود الذنب عليه. فتحول وجوهر معه نحو الدهليز فرأيا ياسراً قادماً يتمشى، فلما رأى سعيداً سلّم عليه وسأله ما يريده فقال: «أنا في انتظار السيدة الزهراء لأعلّمها الغناء حسب أمر الخليفة».

قال: «اذهب إلى غرفتها، ألا تعرفها؟».

قال: «هذا خادمها يعرف الغرفة، ولكنه يقول إنها ليست هناك».

قال: «لعلها في الحمّام؟».

قال جوهر: «ليست في الحمام يا سيدة ولا في أي محل آخر أعرفه، وقد جئت للتفتيش عنها، ورأيت في الحديقة نوراً فهل تظنها هناك؟».

قال: «أين؟ تعال». ومشى جوهر معه. أما سعيد فرجع إلى غرفته، فلما وصلا إلى الباب رآها ياسر مع عبد الله فدُهش وقال: «هي هنا. ماذا تعمل؟».

قال جوهر: «لا أعلم، وأخاف إذا رأتني أن تقتلني، إني ذاهب يا سيدي إلى غرفتها انتظرها فيها».

قال: «اذهب، واحذر أن تذكر ذلك لأحد».

قال: «سأكتمه عن كل إنسان». ومضى.

لم يشأ ياسر أن يضيّع الفرصة للانتقام من الزهراء المتكبرة،

فأسرع إلى الناصر، وكان قد عاد إلى غرفة في ذلك القصر تعوّد أن يجلس فيها للنظر فيما يعرض عليه من الأعمال، فدخل عليه بلا استئذان. وكانت هذه عادة رؤساء الخصيان مع الناصر. ووقف بحيث يعلم الناصر أنه يريد مخاطبته فأشار إليه فدنا فقال: «ما وراءك؟».

قال: «قد أمر مولاي أمير المؤمنين سعيداً الوراق أن يعلّم الزهراء ألحاناً جديدة».

فقطع الناصر كلامه قائلاً: «ألم يعلّمها؟».

قال: «إنه لا يزال في انتظارها».

فاستاء الناصر من تعرض ياسر وتسرعه وهو يعلم أن في نفسه شيئاً عليها: «لا تلبث أن تأتيه، وما الذي يدعوك إلى العجلة؟».

قال: «تعجلت في نقل الخبر إلى مولاي لأن أحد خدمها أخبرني أنها ليست بالقصر ولا هي عند المعلم».

فبغت الناصر وقطب حاجبه وقال: «أين هي إذن؟ لعلها في الحمام أو في الحجلة».

قال: «ليست في القصر كله يا سيدي».

فوقف الناصر وقد غضب من ياسر لإلقائه الشك في ذهنه وهو يقول: «أين هي؟ لا بد أن تكون في غرفتها أو...». وسكت ومشى يتبع ياسراً، والخدم تختبىء من طريقهما، فقاده ياسر إلى مكان يُشرف منه على الحديقة. فرأى الزهراء واقفة وبجانبها شبح لم يعرفه، حتى نبّهه ياسر إلى سحنته، فعرف أنه ابنه عبد الله، فهاج الدم في عروقه وأوشك أن يصرخ فيه لو لم يمسك نفسه خوف الفضيحة، وأكبر أن يظهر شكّه أمام ياسر فتجلد وقال: «يظهر أنها في شاغل من ولدنا عبد الله حفظه الله، ولا بد من أمر فيه خير لنا. وقد كان ينبغي

أن تلقاه في غرفة من غرف القصر».

وكان عبد الله قد ودعها وهرول مسرعاً في الحديقة، وعادت هي إلى القصر، فأظهر الخليفة أن الأمر لا أهمية له وصرف ياسراً، وذهب هو إلى غرفته وقلبه يتقد غيرة وحنقاً، وحدثته نفسه مراراً أن يدعو الزهراء إليه في تلك الساعة فينتهرها ويوبخها ويستطلع خبرها، لكنه لم يشأ أن يمكن ياسراً من الشماتة بها. فلما صرفه وأوصاه أن يكتم ذلك أخذ يفكر فيما رآه فعظم عليه ولم يستطع صبراً عن معاتبتها في الحال، فبعث وصيفة تستقدمها، فعادت الوصيفة وقالت: «إنها في الفراش لا تستطيع النهوض».

وقد تعود الناصر أن يحتمل هذا الدلال منها فلا يغضبها، أو هي عادة المحبين في مثل هذه الحال، وإنما يغلب منهم السابق إلى الدلال، وقد يكون في نفس المحب عتب على حبيبه فإذا رأى منه غضباً أو تجنباً شغل بمراضاته عن عتابه. فصبر الناس نفسه وذهب إليه وهو يكظم غيظه، حتى إذا دخل غرفتها تنحى كل مَن كان هناك من الخدم والوصائف وظلت هي وحدها وكانت حالما وصلت إلى غرفتها قد نزعت ثيابها وارتدت ثوباً تعودت لبسه في ملاقاة الناصر يزيدها جمالاً ورونقاً. وكان جمالها جذاباً يأخذ بالعقول، ويكفي دليلاً على ذلك استيلاؤها على قلب الناصر حتى شغلته عن كل مَن في قصوره من السراري والجواري، وأصبح لا يصدر إلا عن رأيها، ولا يُرد لها طلباً، وقد بنى قصور الزهراء رغبة في مرضاتها وإحياءً لاسمها.

وإذا جالستَ الزهراء فأول ما يخاطبك عيناها ثم لسانها ثم يستولي عليك عقلها وظرفها، فلا تملك دفعاً لما ترميك به من السهام النافذة تخترق الأحشاء. وكان في عينيها نور لا يُعبَّر عنه بغير السِحر،

ولها قامة كالرمح، مع بعدها عن الخلاعة والتبرج. وكانت فصيحة اللهجة ذكية الفؤاد سديدة الرأي مع تعقل ورزانة، يتهيّب جليسها من حديثها ويشعر بقوة حجتها وصحة برهانها.

وكان الناصر يأنس بمجلسها ويُعجب بكل شيء تأتيه، فيرتاح لرؤيتها يُطرب من حديثها أو غنائها. إذا جالسها شغل بها عن كل شاغل، لكنه كان يلحظ فيها في بعض الأحيان انقباضاً لم يكن يعرف سببه. وقد تكون في مجلس طرب، والخليفة إلى جانبها يطريها ويدللها، وهي في إبان فرحها، فتتغير سحنتها بغتة، ويتولاها الانقباض رغم ما تحتال به لإخفائه عن الجلوس. وكثيراً ما سألها الناصر عن سبب ذلك التغيير فتنكره أو تنتحل له سبباً لا يقتنع به الناصر، ولكنه يجاريها.

فلما شاهد ما أتته في تلك الليلة أخذ يراجع تاريخ معاملته هذه المرأة لعله يرى موجباً لهذا التصرف فلم يجد سبباً يوجبه، فخطر له ما كان يلحظه فيها من الانقباض فقال في نفسه: «لعل لهذا علاقة بذلك». ثم عزم على ملاقاتها فبعث إليها فأدركت لنباهتها أن الخليفة لم يبعث إليها إلا وفي نفسه شيء من العتب لأنها لحظت في القصر حركة دلتها على أن الخليفة مشى نحو الحديقة. فلم ترد الذهاب إليه لعلمها أنه سيأتيها، واتخذت القاعدة التي أشرنا إليها وهي مصادمة العتاب بالغضب أو الدلال. وجعلت من أسباب مرضاته لبس ذلك الرداء الذي تعودت أن تلبسه والخليفة طوع إرادتها.

لبست ذلك الثوب وهو بلون السماء وعليه تطريز من الفضة بأشكال النجوم وبينها القمر، وقد طُرز على حاشية الثوب من الأسفل هذان البيتان:

وإني لأهواه مسيئاً ومحسناً وأقضي على قلبي له بالذي يقضي

فحتى متى روح الرضا لا ينالني وحتى متى أيام سخطك لا تمضي؟

وقد تمنطقت بمنطقة من الخز بحلقات ذهبية، وشدت من الأمام بعروة من الذهب مرصعة بالماس. وكان فرش تلك الغرفة يأخذ بالعقول لما فيه من النقوش والأشعار على الأبسطة والستائر والجدران. وكان سريرها من الأبنوس منصوباً في أحد جوانب تلك الغرفة الواسعة وعليه نقش منزل بالعاج وهذه الأبيات:

ومجدولة أما مجال وشاحها فغصن وأما ردفها فكثيب
لها القمر الساري شقيق وإنها تطلع أحياناً له فيغيب
أقول لها والليل مرخ سدوله علينا بك العيش الخسيس يطيب
فقالت: «نعم إن لم يكن لك غيرنا ببغداد من أهل القصور حبيب

وكانت كلة سريرها من الحرير سماوية اللون وعليها هذان البيتان:

من قصر الليل إذا زرتني أبكي وتبكين من الطول
عدو عينيك وشانيهما أصبح مشغولاً بمشغول

ناهيك بما على الطنافس والوسائد من الأشعار المطرزة مما يدهش البصر غير ما على الحجلة من النقوش الجميلة، وكانت حجلتها معصفرة بالذهب وقد طرزت عليها أبيات تطريزاً جميلاً وهي:

دعيني أمت والشمل لم يتشعب ولا تبعدي أفديك بالأم والأب
سقى الله ليلاً ضمنا بعد هجعة وأدنى فؤاداً من فؤاد معذب
فبتنا جميعاً لو تراق زجاجة من الراح فيما بيننا لم تسرب

وكان في تلك الحجلة حق من الذهب فيه بخور أمرت الزهراء بإحراق شيء منه فتصاعدت رائحته واختلطت بروائح الأطياب.

وحالما علمت الزهراء أن الخليفة قادم إليها أمرت بإيقاد الشموع

وتهيأت لاستقباله بذلك الثوب الجميل كأنها لم تفعل شيئاً يوجب عتاباً أو مؤاخذة.

برح الخليفة غرفته وهو يغالب غضبه ويكظم غيظه، فلما أقبل على غرفة الزهراء، رآها خرجت لاستقباله وهي تجر ذيل ثوبها تيهاً، ووقفت تنتظر ما يبدو منه، فرأته ظل ماشياً لا يلتفت إليها، فأحبت أن تبادءه بالمسألة، فهمّت بيده وأكبت عليها كأنها تريد تقبيلها، فاجتذبها من بين يديها وظل ماشياً إشارة إلى غضبه عليها. فمشت في أثره الهوينى وهي مطرقة بلا تذلل أو خوف، وأظهرت العتب لهذا الجفاء. أما هو فما زال ماشياً حتى تصدر القاعة فجلس على وسادة وقد قطب، ولم يدع الزهراء للجلوس فظلت واقفة، ثم رفع بصره إليها فرآها تنظر إليه نظر العتاب بما يعجز عنه اللسان. فصبر لعلها تقول شيئاً فبسطت كفّها وقدمتها له، فقرأ عليها بيتاً منقوشاً بالحناء وهو:

فديتك قد جبلت على هواكا فقلبي ما ينازعني سواكا

فلما وقع نظره وجد للكلام سبيلاً فحول وجهه عن تلك الكف وقال: «قد كان ذلك من عهد بعيد». وهز رأسه هزة الغضب.

فقالت: «هل يأذن أمير المؤمنين في الجلوس؟».

فأشار إليها أن: «اجلسي».

فقعدت بين يديه وقالت: «ما لي أرى مولاي قد تغيّر على جاريته؟».

قال: «لم أتغيّر أنا يا زهراء!».

قالت: «ولا أنا يا سيدي. كيف يخطر ببالي التغيّر وأنا في نعمة لم يحلم بها أحد قبلي؟».

قال: «أراك سعيدة في هذه القصور».

فابتسمت وقالت: «كيف لا أكون سعيدة وأنا مشمولة برضى أمير المؤمنين رافع لواء الإسلام والمسلمين؟».

قال: «لا تكذبي.. كم من مرة رأيت أسباب التعاسة في محياك وسألتك عن علة ذلك فأنكرت؟ أظنني عرفت العلة الآن». قال ذلك بنغمة الظافر ولسان حاله يقول: «كشفت سرك!».

فلما أشار إلى انقباضها أجفلت، وأخذ الانقباض يغالبها وهي تبتسم وقالت: «لا يخلو الإنسان من أسباب قهرية حتى لا يكون أهل الأرض مثل أهل السماء، فلولا هذا الانقباض القليل الذي يتولاني في بعض الأحايين لكنت أحسبني في النعيم».

فأعجبه تخلصها بهذا الإطراء، ولكنه لم يقتنع فقال: «نعم ولكن أحب أن أعرف سبب ذلك الانقباض. ما هو سبب انقباضك الفجائي أحياناً وأنت جالسة إليَّ ونحن في طرب وغناء؟».

فتنهدت رغم إرادتها وقالت: «يندر أن يحدث ذلك، ولا أذكر سببه».

قال: «أنا أعلم سببه».

قالت: «أمير المؤمنين أعلم».

قال: «لم أكن أعلم ذلك قبل اليوم». وتنحنح فأدركت أنه لا يلبث أن يذكر ما شاهده منها فقالت: «وكيف عرفته؟».

قال: «عرفته محض اتفاق. هل حفظت درسك في الألحان اليوم؟».

قالت: «كلا يا سيدي».

قال: «ولماذا؟».

قالت: «لأني كنت في شاغل».

قال: «ما الذي يشغلك عن ذلك وأنت الآمرة الناهية في هذه القصور كلها، وصاحبة السيادة على مَن فيها من الجواري والغلمان؟».

قالت: «إن كثرة الجواري وسعة القصور لا تُغني الإنسان عن الانشغال، وهذا أمير المؤمنين يده فوق كل يد ومع ذلك فهو يرى ما يشغله أحياناً».

فسبق إلى ذهنه أنها تؤنبه على تعلقه بعابدة وتشير إلى ما استخفه من الطرب في تلك الليلة فقال: «أظنك تحاسبينني على خطواتي وتعدين عليَّ أنفاسي.. ها أنك قد عرفت ما شغلني أحياناً. فقولي ما الذي يشغلك؟ قولي ما الذي شغلك عن الدرس الليلة؟». قال ذلك بصوت فيه شيء من التهديد، وحدّق بصره فيها فلم تتهيب من تهديده بل ظلت رابطة الجأش وقالت: «إن ما شغلني عن الدرس هو أهم من الدرس في نظري».

قال: «طبعاً هو أهم من الدرس، وتقولين ذلك صريحاً؟».

قالت: «قد تعودت الصراحة في القول فلا أغيّرها».

قال: «أصدقيني إذن وقولي ما شغلك عن الدرس؟».

فلما أبطأ جوابها عاد فسألها: «مع مَن كنت مختلية هذا المساء؟».

فبغتت، ولكنها تمالكت رشدها وقالت: «مع الأمير عبد الله ابن أمير المؤمنين».

قال: «ولماذا؟».

قالت: «لسبب لا أقوله».

قال: «أوَتكتمين ذلك عني؟».

قالت: «نعم يا سيدي، أكتمه».

قال: «ولكن ذلك يسوءني وأنت تعلمين».

قالت: «لم أكن أعلم أنه يسوءك، وقد حصل».

قال: «تقولين بجسارة أنه حصل ولا تريدين أن تطلعيني على السبب؟ تقولين ذلك صريحاً بلا تخوّف؟ يا لله من هذه القحة!».

فتبيّنت الغضب في عينيه وساءها لفظ (القحة) فقالت: «لم أتعود هذا الغضب من أمير المؤمنين ولا هذه الألفاظ». وأطرقت دلاً واشتغلت بإصلاح الأساور في زندها وهي تنظر إليه».

فتأثر الناصر من عتابها، ولكنه أصر على استطلاع سرها فقال: «أصبت، إنك لم تتعودي مني هذا الجفاء لأني لم أرَ منك ما يبعث عليه. فأنت الآن قد خرجت عن عهدي بك».

قالت: «بماذا؟ لأني كلمت ابنك؟».

قال: «ليست مخاطبته مما تؤاخَذين عليه، ولكنك فعلت ذلك سراً، وأتيت لعبد الله بثياب امرأة، ولا أدري كيف أطاعك هو على ذلك. إنه خائن». وأحس الناصر أن الغضب يكاد يخرجه فتماسك وسكت.

فقالت: «إذا غضب أمير المؤمنين من عملي فالذنب ذنبي وليس ذنب الأمير عبد الله، فلا يتهمه بشيء، وسوف تظهر براءته».

فقال الناصر: «والآن قولي.. ألا تخبريني عن سبب تلك الخلوة بعبد الله؟».

قالت: «لا أقول ذلك الآن. لا تغضب يا مولاي، إني لا أستطيع أن أقوله، ولكن المستقبل يتكفل بكشفه».

فلما يئس من استجوابها حدثته نفسه أن يحملها عليه قهراً، ثم رأى في ذلك حطاً من كرامتها وهو يحبها ويحب المحافظة على منزلتها لكثرة حسّادها في بلاطه. وكثيراً ما جاءته الوشايات بها وهو يدافع عنها ويظهر حُسن ظنه. فرأى إن حَملها على الإقرار بالقوة يحط من كرامته لدى أهل دولته، فضلاً عن شغفه بها، فهو يميل بعواطفه إلى تبرئتها أو قتلها، وهو يرى بقاءها لازماً له، ويعد وجودها فألاً حسَناً على دولته، لأنه منذ عرفها والسعد خادمه. في الحرب والإدارة السياسية، على أن المحب كثير الظنون قريب الشكوك، فلما تذكر أنه رآها في خلوة مع ابنه على تلك الصورة ثارت غَيرته ولكنه رأى من الحكمة أن يتمهل في الحكم واستطلاع السر بالحسنى، فأخذ يفكر كيف يتخلص إلى الرضى. فلحظت هي تفكيره فجثت بين يديه وقالت: «كيف يظن مولاي السوء بي وقد غمرني بنِعَمه ورفع منزلتي وجعلني موضوع حبه وأقرب الناس إليه ومحل ثقته؟».

فلما سمع هذه اللفظة تذكر قولاً سمعه من سعيد أول يوم لقيَه في قصره حين طلب إليه أن يستطلع طالعه فقال له يومئذ: «إن الخوف يأتيك من أكثر الناس حظاً من ثقتك». فعاد إلى الارتياب، ولكنه صمم على الصبر فوقف وهو يقول: «أنا ذاهب، وينبغي لك أن تعرفي لي سكوتي الآن مع ما يحيط بي من أسباب الريب».

قالت: «عرفت ذلك لك في جملة إفضالك، وسترى أني موضع ثقتك». ومشت في أثره، ولحظت أنه يمشي الهوينى كأنه يتوقع أن تدعوه للرجوع، أو كأن قلبه لم يطاوعه على الخروج. فكان يخطو خطوتين ويقف هنيهة ثم يخطو، وهي تمشي في أثره لتشيعه إلى

باب الغرفة. فلما وصل إلى الباب وقف والتفت إليها فرآها مطرقة مفكرة، فتبادر إلى ذهنه أنها عدلت عن الكتمان فتحول نحوها وقال: «ألا تغيّرين رأيك وتطلعينني على الحقيقة؟».

قالت: «قلت لمولاي ما يمكنني أن أقوله، وأنا أعلم أن حياتي وموتي بين شفتيه ولكن..».

قال، ولم ينتظر تمام كلامها: «أسألك سؤالاً واحداً فأجيبي عنه بالصدق؟».

قالت: «اسأل يا سيدي، فإني لا أقول غير الصدق».

قال: «أتحبين ابني عبد الله؟».

قالت: «نعم أحبه». ولم يتلجلج لسانها أو يتغير وجهها.

فبغت لهذه الجسارة ونظر في وجهها وأجال نظره فيها وهي لا تبالي، فقال لها: «تقولين ذلك بجرأة؟».

قالت: «ألم تشترط عليَّ الصدق؟ إني أحب الأمير عبد الله. كيف لا أحبه وهو ابن سيدي أمير المؤمنين؟».

فرأى في هذا التعبير ما يخفف الغضب، وندم على تكراره السؤال فسكت ومشى إلى غرفته، وعادت هي إلى غرفتها واستلقت على سريرها وتنهدت كأنها أطلقت نفساً كان محبوساً في صدرها يكاد يخنقها. فأتاها جوهر وأخذ يماجنها التماساً لتسليتها، فأشارت إليه أن يتركها وحدها.

أمرت الزهراء إحدى وصائفها أن تهيء لها الفراش، وجاءت وصيفة أخرى لتساعدها في تبديل ثيابها، وهي لا تزال مستغرقة في الأفكار. فلما فرغت من تبديل الثياب أمرت بإطفاء الأنوار إلا ضوءاً ضعيفاً. وأرخت الكلة على سريرها تلتمس الرقاد فلا تجده.

وما أغمضت عينيها حتى تراكمت عليها الهواجس، وأخذت تفكر في حالها وفيما يظهر من سعادتها التي يحسدها عليها الناس، وما يعتور تلك السعادة من أسباب الشقاء. فعادت بذاكرتها إلى صباها، منذ حملها النخاسون من جبال الصقالبة وهي طفلة ومعها أخوها، ولما تذكرت أخاها تنهدت وتقلبت على فراشها تريد أن تنسى تلك الذكرى، فلم تزدها هذه الرغبة إلا تذكيراً، فتذكرت كيف حُملت مع أخيها إلى إيطاليا وعليهما أطمار بالية لا تقيهما البرد، ولكن جمالها كان يلفت الأنظار، فتلقفها أحد تجار الرقيق من اليهود، وكان خبيراً بأسرار هذه التجارة، فعرف أن مثلها في جمالها لا يدفع ثمنها غالياً له إلا المسلمون في صقلية. وكانت جزيرة صقلية يومئذ في حوزة المسلمين تحت سيطرة دولة العبيديين في المغرب. وكان أمراؤها يتقربون إلى خلفاء تلك الدولة بأمثال هذه الهدايا. فأراد أن يبتاع الزهراء ليرسلها هدية فأبت، وتوسلت إلى التاجر ألا يبيعها إلا مع أخيها لأنها كانت شديدة التعلق به، ولم يكن لها تعزية في ذلك الأسر والفقر إلا هو، فأطاعها التاجر، واشترط على أمير صقلية أن يشتري الاثنين معاً، فرضِيَ وابتاعهما لأن جمال الزهراء بهره، وأعجبه ما آنسه من لطفها وذكائها. وحدثته نفسه أن يستبقيها له لكنه كان ذا حاجة لدى الخليفة العبيدي صاحب افريقية، وهو يومئذ المهدي، فقرّ رأيه على أن يرسلها إليه ويستبقي أخاها عنده يربيه في داره ويدربه على الجندية على عادتهم في استخدام المماليك. فأبت الزهراء عليه ذلك، وتقدمت إليه أن يرسل أخاها معها فيكون حيث تكون فلم يطاوعه قلبه على رفض طلبها بعد ما آنسه من لهفتها.

وتذكرت الزهراء صباها في تلك الجزيرة، وكيف استغربت ما شاهدته هناك من ظواهر المدنية مما لم تكن وقعت عيناها على شيء مثله

من قبل، لأنها نشأت بين الجبال والأودية ترعى الماشية أو تحتطب. ومع ذلك فقد كانت سعيدة هناك لأنها لم تكن تعرف ما وراء تلك السذاجة البدوية من تنعم المدن. وكان أسعد الأوقات عندها عندما ترجع مع أخيها وهما يتساندان في نقل حمل من القش أو العيدان، أو يسوقان بعض الماعز، وأبواهما ينتظرانهما في كوخ حقير، فيشعلون تلك العيدان ويحومون حولها للاستدفاء. وكان هذا يلذ لها أكثر من الفراش اللين مع ما يغشاه من الكلل المطرزة والستائر وما تضوّع في سماء تلك الغرفة من الأطياب.

فلما تذكرت ذلك تنهدت، وقد ضاق صدرها، فدفعت الغطاء عنها وتقلبت في فراشها، وأخذت تناجي نفسها بقولها: «ويلاه ما هذه الهواجس.. آه ما أجمل تلك الجبال الجرداء! وما أشهى رائحة دخان العيدان وأنا بقرب أخي». ولما ذكرت أخاها جلست على الفراش فجأة، والتفتت إلى ما حولها على ذلك النور الضعيف، فرأت الوصيفة التي تنام عند قدميها لا تزال جالسة كأنها شعرت بأن الزهراء لم تنم بعد، فظلت جالسة لعلها تحتاج إلى شيء.

فلما رأتها الزهراء أجفلت، لأنها كانت تود أن تكون وحدها، لعلها تطلق لأشجانها العنان.

وكانت تلك الوصيفة أخص بها، وقد فتحت لها قلبها واتخذتها أماً، وأطلعتها على بعض سرها. ولم تكد الزهراء تجلس على الفراش حتى نهضت الوصيفة واقفة تتوقع منها أمراً، فنادتها الزهراء قائلة: «ألا تزالين جالسة يا خالة؟».

فقالت: «كيف أنام يا سيدتي وأنا أراك تتقلبين على فراشك. هل تحتاجين إلى شيء؟».

قالت وفي غنة صوتها دليل على ما تكتمه: «لا حاجة بي إلى

شيء».

فقالت: «بل أنت تحتاجين إلى أشياء!».

فتنهدت الزهراء وقالت: «نعم.. ولكن..».

فتقدمت الوصيفة حتى وقفت بجانب السرير وقالت: «هل أرفع هذه الكلة؟».

قالت: «افعلي.. إني أراني لا أستطيع الرقاد».

قالت: «يظهر أن حديثك مع أمير المؤمنين أقلقك، لا بأس عليك، فهو لا يلبث أن يرضى صاغراً». قالت ذلك بصوت منخفض كأنها تحاذر أن يسمعها أحد.

فقالت الزهراء: «أعلم ذلك جيداً، ولكن رضاءه لا يخفف شيئاً من قلقي».

قالت: «ما الذي يقلقك وأنت سيدة هذه القصور وساكنيها، وربة الجمال والذكاء لا يرد لك أمر، حتى أمير المؤمنين صاحب السيادتين يتمنى رضاك».

فتنهدت وتشاغلت بجمع شعرها وإرساله إلى الوراء، ثم قالت: «أتظنين السعادة يا خالة فيما ترينه من الرياش والأثاث أو فيما يحدق بي من الخدم؟ إني لتعسة شقية!». وغصت بريقها.

قالت: «ماذا حدث يا سيدتي؟».

قالت: «لم يحدث شيء، ولكن هذا النور الضعيف ذكرني أشياء كنت أحاول نسيانها».

قالت: «هل أُنير الشموع؟».

قالت: «لا..».

قالت: «ماذا أفعل؟.. ماذا تريدين أن أفعل لراحتك؟».

قالت: «إن الذي يريحني لا تقدرين عليه».

فأطرقت الوصيفة هنيهة وكأنها تذكرت سبب ذلك القلق وقالت: «أظنك عدت إلى الحديث القديم.. إن ذلك التذكار يا سيدتي لا فائدة منه. إن أخاك لا سبيل إليه وقد آن لك أن تنسيه».

فمدت الزهراء يدها إلى فم الوصيفة كأنها تحاول أن تسكتها وقالت: «لا تقولي ذلك.. كيف أنساه؟ وأنا لا أزداد إلا تذكراً، إني أتذكر صباي يوم حُملت من صقلية مع أخي. أتذكر الآن وجهه الصبوح وقد أخذ بيدي ووقف إلى جانبي على ظهر السفينة وهي تُقلع من مياه صقلية.. يا ليتنا بقينا في تلك الجزيرة ولم ننتقل منها أو يا ليتنا غرقنا معاً في تلك المياه..».

قالت: «ولكن انتقالك كان سبباً في وصولك إلى هذه النعمة التي يحسدك عليها أقرانك، بل يحسدك عليها نساء العالمين».

قالت: «هذا صحيح، ولكن ينقصني وجود أخي ليتمتع بهذه السعادة معي.. آه مَن ينبئني عن مكانه.. هل هو حيّ أم ذهب طعاماً للأسماك». ومسحت عينيها بطرف كمها.

قالت: «لا يعلم ذلك إلا الله. ولو كان حيّاً لعلم بمقامك وجاء إليك».

قالت: «كيف يعلم وهو لا يعرف اسمي الزهراء، وإنما يعلم أن اسمي (حسناء). فلو كنت معروفة بهذا الاسم لبلغه خبري».

فقالت: «صحيح.. وأين افترقتما يا سيدتي؟ هل تخبريننني؟ لعَلّي أستطيع أمراً ينفعك؟».

فقالت الزهراء: «فارقته في عرض البحر. اختطفني القرصان

ونحن على تلك السفينة، ولا أعلم ماذا فعلوا بأخي».

قالت: «ألم تسألي عنه؟».

قالت: «مَن أسأل؟ وقد نُقلت من أناس لا أعرفهم إلى أناس لا أعرفهم وكلهم لصوص، اختطفني اللصوص من بين ذراعي والدي وباعوني إلى تجار من صقلية مكثت عندهم مدة علموني فيها اللسان العربي، ثم باعوني لأمير صقلية، وهذا أمرَ رجاله فحملوني على سفينة قائلين أنهم ذاهبون بي إلى ملك عظيم في افريقية، فرضيت لأن أخي كان معي، فلم تجر السفينة بنا إلا بضعة أيام حتى سطا علينا لصوص البحر في ليلة ليلاء، وهم كثيرون في هذا البحر يسطون على السفن ينهبون ما بها ويسمونهم القرصان. وقد كان في إمكاني أن أبقى هناك ولكن..».

فتعجبت الوصيفة من قولها وقالت: «ولماذا لم تبقي؟».

فغصت بريقها وسكتت وهي تتلهى بمسح دمعتين انحدرتا على خديها وقال: «لم أبق لأني كنت أطلب النجاة من رجل هناك يزعم أنه رئيس تلك السفينة، وما برح منذ أقلعنا من صقلية وهو يتقرّب إليَّ وأنا أشعر بنفور منه لا أدري سببه، وهو يدنو مني ويعدني ويمنيني ويظهر انعطافه نحو أخي ويلاطفه، فأظهرت لأخي نفوري من ذلك الرجل وتواعدنا أننا إذا وصلنا إلى بر افريقية شكوناه إلى ملكه. وأدرك هو غرضنا فجعل يضيق علينا. فلما جاءنا القرصان خطر لي من شدة كرهي لذلك الرئيس أن انتقالنا إلى سفينة القرصان ينجينا منه. ونحن في كل حال غنيمة للقوي، فلم ندافع كثيراً، ولم تكن نجاتنا في أيدينا. فما شعرت إلا وأنا على سفينة القرصان وقد أقلعت بنا، وكنت أحسبهم خطفوا أخي معي فلم أجده، فبكيت وصرخت وما من سميع، فأخذت أشعر بالتعاسة من ذلك الحين. وحملني القرصان

إلى شاطىء الأندلس فباعوني إلى لصوص آخرين، وهكذا حتى وصلت إلى رجل حملني إلى قرطبة، فلما رآني ياسر رئيس الخصيان اشتراني لسيده أمير المؤمنين. فشغلت في بادىء الرأي بمصائبي ثم بالانتقال إلى هذه النعمة، وما لبثت أن عدت إلى أمر أخي، ويكاد الندم يأكلني لأني أحسبني كنت سبباً في هذا الفراق». ولما بلغت إلى هذا الحد ترقرقت الدموع في عينيها، وهي لا تجرؤ أن تجهر بالبكاء لئلا يظن من يسمعها أنها تبكي خوفاً من غضب الخليفة.

وكانت الوصيفة تسمع كلامها وتُعجب لشدة تعلقها بأخيها، لأنها هي لو كانت مكانها، صارت بهذه المنزلة من الجاه والنعم ما كانت لتذكر أحداً من أهلها. لكن الناس يتفاوتون بإحساسهم وعواطفهم.

كشف الحجاب

كانت عاطفة الحب عند الزهراء قوية كعاطفة البغض، مع تعقل وصدق مودة، وكانت قد تعشقت أخاها عشقاً جعلها تجد الحياة مرة بغيره. وقد أبغضت رئيس تلك السفينة ولم تعد تستطيع أن تتصوره، فلما صارت إلى تلك النعمة صارت تحب أن يكون أخوها معها ليشاطرها مسرّاتها، وهي مع ذلك لا تعرف مصيره. وهل هو حيّ أم ميّت؟

ويغلب فيمن يحب كثيراً أن يكره كثيراً، فيكون حبه كلفاً وبغضه تلفاً، وفيهم مَن لا يعرف من الحب إلا اسمه، وإنما يكون الحب في نظره قضاء منفعة أو طمعاً في غرض، فإذا تجرد عن ذلك لم يبق له أثر.

أما الوصيفة فلما رأت يأس الزهراء أرادت أن تشغلها عن ذلك الحديث بسواه، ولم يكن يشغلها شيء عنه فقالت: «احمدي الله أنك

نجوت من شخص تكرهينه.. و..».

فابتدرتها قائلة: «نعم نجوت.. وليتني ما نجوت..». وكفت عن الكلام كأنها ندمت على ما فرط منها، فساعدتها الوصيفة على تغيير الموضوع فقالت: «إن تفكيرك يا سيدتي في أخيك لا فائدة منه، وقلبي يحدثني بأنك ستلتقين به.. ألم تسألي المنجمين عنه؟».

فقطعت الزهراء كلامها قائلة: «إني لا أصدق المنجمين، ولا أثق إذا سألتهم ألا يبلغوا الخبر إلى الناصر. ولا أريد أن يعرف أني مشتغلة عنه بأحد، لأنه لم يُشغل عني بسواي».

فقالت: «أحسنت». واقتربت من أذنها وقالت همساً: «ولكنني علمت أن الرجل الذي أمره مولانا الناصر أن يعلمك الغناء بارع في التنجيم لا مثيل له فيه».

قالت: «تعنين سعيداً الوراق؟ هل يعرف التنجيم؟».

قالت: «أنا على ثقة من ذلك، وقد علمت أن مولانا يعول عليه سراً في استطلاع الغيب، وله فيه ثقة كبرى، فإذا جاء لتعليمك الغناء، اسأليه فلعله يفيدك، ولا خسارة من ذلك».

قالت: «ولكن سؤاله في هذا الشأن يقتضي. لا بأس، سأرى». وأحست من تلك الساعة براحة أذهبت قلقها، فأظهرت أنها تميل إلى الرقاد، فساعدتها الوصيفة بإرسال الكلة، ونامت وهي تعمل فكرتها فيما تفعله.

أما سعيد فذهب في تلك الليلة إلى غرفته ينتظر أن يأتيه جوهر بما دار بين الناصر والزهراء، ولم يفت جوهر شيء مما دار بينهما، فجاء إلى سعيد وقصّ عليه ما سمعه. فبات تلك الليلة وهو يتوقع أن يبعث الخليفة يطلبه في الغد.

وفي الصباح جاء ياسر يدعوه إلى الناصر، فنهض ومعه كتاب التنجيم وياسر يحرضه على الإيقاع بالزهراء. فمضى حتى دخل على الخليفة وهو لا يزال في فراشه، فدعاه إلى الجلوس فجلس، فقال له الناصر: «هل علمت جاريتنا الزهراء شيئاً؟».

قال: «كلا يا مولاي لأني لم أجدها في غرفتها بالأمس».

فقال: «ألم يدلك تنجيمك عن سبب غيابها؟».

قال: «لم أبحث عن سبب ذلك، ولو أمرتني لفعلت». ثم أخرج الكتاب وأخذ يقلب فيه ويتأمل بعض أسطره كأنه يحسب ويستخرج، والناصر ينتظر ما يقوله. فلما أبطأ في الكلام قال له: «ماذا وجدت؟».

قال: «يأمر مولاي بمبخرة».

فصفّق وأمر له بما أراد، فجيء إليه بمبخرة من ذهب فيها جمرة، فأخرج من جيبه قطعة من البخور ووضعها في المبخرة، وجعل يتفرس في الدخان المتصاعد منها، ثم ترك الكتاب وجعل يده على حاجبه كأنه يستظل بها من الشمس، وهو ينظر إلى الدخان ويقول: «ماذا أرى؟ أليسَ هذا الأمير عبد الله؟».

فلما سمع الناصر قوله تيقن اقتداره على استطلاع الغيب وظل ساكتاً ليرى ما يبدو منه، فأنزل سعيد يده وأعاد التفرس في الدخان وهو يتصاعد من المبخرة إلى السقف وقال: «بلى هذا هو الأمير عبد الله ابن أمير المؤمنين في الحديقة والزهراء إلى جانبه، هذا يا سيدي ما أراه. ولا أدري إذا كان البخور يخدعني».

قال: «وهل خدعك من قبل؟».

قال: «كلا، وإنما استبعدت ذلك لأني تركت الأمير عبد الله

في قصره ولم أسمع أنه جاء إلى هذا القصر».

قال: «ينبغي لك أن تعرف كيف جاء».

فعاد إلى المبخرة ووضع عليها قطعة أخرى من البخور ونظر إلى دخانها وقال: «هو هو بعينه، وعليه لباس النساء، والزهراء إلى جانبه تحادثه». قال: «ماذا كان حديثها؟».

قال: «لم أسمع شيئاً».

قال: «أحب أن أعرف الحديث الذي دار بينهما».

قال سعيد: «وهذا ما أحب أن أعرفه أنا، ولكني لا أسمع شيئاً الآن».

قال: «هل ترجو أن تسمع شيئاً في فرصة أخرى».

قال: «نعم يا سيدي».

قال: «يكفي الآن، فاكتم ما رأيت، ومتى تمكنت من سماع الحديث فأخبرني. وما الذي يساعدك على سماعه؟».

قال: «يساعدني أن أسمع صوتها تتكلم».

قال: «ستقوم اليوم بتعليمها الغناء، وسأبعث إليها بأنك آت لهذه الغاية عند العصر».

فأشار برأسه إشارة الطاعة وقال: «الأمر لمولاي، ولكن الأفضل ألا يكون ذلك في غرفتها لكثرة مَن فيها من الخدم والوصائف. أو يأمر مولاي أن تكون هناك منفردة ومعها وصيف أو وصيفة فقط».

قال: «حسناً، وإنها تفضل ذلك أيضاً، فمتى ذهبت إليها تجدها في غرفتها منفردة».

قال: «هل أذهب إليها في أصيل هذا اليوم؟».

قال: «افعل». وتزحزح الخليفة من مكانه فنهض سعيد واستأذن وخرج.

وفي العصر أصلح شأنه واصطحب ياسراً إلى غرفة الزهراء فأوصله إلى باب الغرفة ودخل فأخبرها بمجيئه وانصرف. فدخل سعيد من باب الغرفة فوجد في وسطها ستراً منصوباً خرج إليه من ورائه جوهر وأظهر أنه لم يره إلا في تلك الساعة وقال له: «أنت معلم الغناء؟».

قال: «نعم».

قال: «إن مولاتي في انتظارك وراء هذا الستر بأمر الخليفة. اجلس». وثنى وسادة وقدمها له فجلس، ثم ذهب وأتاه بعود وقال: «هذا عود لتدلها به على ما تريد أن تفعله».

فتناول سعيد العود ووزنه على لحن ودفعه إلى جوهر وقال: «ادفعه إليها».

فدخل به وسلّمه إليها فقال سعيد: «اضربي عليه لحن كذا».

فأخذت تضرب عليه وهو يشير عليها أن تصلح هذا الوتر وتشده أو ترخيه، وتغيّر هذه النقرة أو تلك وهي تفعل، وأفكارها تائهة لأنها ما زالت مشغولة بأمر أخيها والتنجيم.

ولم يكن هو أقل اشتغالاً بها، وود لو أنها تزيح ذلك الستر ليراها، وندم لأنه لم يشترط على الناصر مجالستها ورؤيتها، ولكنه أومأ إلى جوهر أن يحتال في إبرازها. فأخذ جوهر يظهر الضجر من ثقل الدرس بينهما وقال: «إن التعليم على هذه الصورة لا يفيد».

وكان لقوله وقع استحسان عند كليهما فقال سعيد: «لو

استأذنت أمير المؤمنين في أن نتقابل لم يمنعنا. وإذا أمرت الزهراء بذلك الآن كان الأمر لها».

فقال جوهر: «ما أظن سيدتي تمانع في ذلك ونحن في هذا الجناح من القصر وجدنا ليس من يسمع أو يرى». ودخل إليها فخاطبها همساً ثم عاد وقال: «إن سيدتي تأمر برفع الستر على شرط».

قال: «وما هو؟».

قال: «بلغها أنك عالم بالتنجيم..».

فقطع سعيد كلامه قائلاً: «ومَن أبلغها ذلك؟».

قال: «علمت والسلام.. وأنا أعلم أيضاً. فالشرط يا سيدي أن تستطلع أمراً شغل بالها منذ أعوام. فإذا فعلت ذلك وأصبت كشف الستر وقابلتها. فهل تقبل هذا الشرط؟». قال ذلك وهو يتلوى ويتماجن.

فقال سعيد: «أما وقد أمرت فلها عليَّ ذلك». ثم وجّه خطابه إليها فقال: «ما الذي تريدين كشفه يا سيدتي؟».

قالت وصوتها يتلجلج: «لا أقول ما هو، ولكنني أقول إني فقدت شخصاً منذ أعوام كثيرة ولا أعلم ما صار إليه أمره، فإذا كنت تعرف التنجيم حقيقة فقل لي مَن هو! وأين هو!».

فأخرج سعيد كتابه وأخذ يقلب فيه، وقد استولى السكوت على المكان، فلم يعد يُسمع فيه إلا حفيف صفحات الكتاب ثم قال: «إنك تبحثين عن أخ شقيق».

فلما سمعت الزهراء قوله لم تتمالك أن صاحت: «نعم، أخي، شقيقي، لله درك!. هل هو حي؟ أخبرني حالاً».

فأعاد التقليب وقال: «نعم حي؟».

فاستغربت حكمه السريع وشكّت في صدقه وقالت: «أتعرف اسمه؟».

قال: «أي إسمَيه تريدين؟».

قالت: «وهل له اسمان؟».

قال: «نعم، له اسمان، اسم تعرفينه واسم جديد لا تعرفينه».

قالت: «ما هو اسمه الذي أعرفه؟».

قال: «سالم».

فصاحت: «نعم سالم.. سالم.. قل لي هل هو حي؟ قل رعاك الله».

قال: «نعم، إنه حي ولكنه..».

قالت: «ولكن ماذا؟».

قال: «ولكنه تحت خطر القتل».

فلما رأته صدق في معرفة أنه شقيقها وعرف اسمه صدقت قوله عن الخطر المحدق به، وأخذت ترتعد وقالت: «وأي خطر؟. وأين؟.. قل لي.. فإن أمير المؤمنين ينقذه منه إكراماً لي».

قال: "يا حبذا ذلك.. ولكن الخطر عليه من أمير المؤمنين نفسه».

فلم تعد الزهراء تستطيع استبقاء الحجاب بينها وبين سعيد، فنهضت وأطلت من وراء الستر، وقد أرخت على رأسها خماراً مزركشاً وعيناها تلمعان من الدهشة. فنهض سعيد عند رؤيتها كأنه وقف احتراماً لها فقالت: «الخطر عليه من أمير المؤمنين؟». وحالما وقع نظرها على سعيد تراجعت وحولت بصرها عنه لحظة، ثم أعادت

النظر إليه، وتفرست في وجهه كأنها تعرفه أو تعرف رجلاً يشبهه ولكنها أحست بقشعريرة.

أما هو فنظر إليها بهدوء وقال بصوت خافت: «لا تضطربي يا حسناء. إن أخاك سالماً لا بأس عليه ولو كان الخليفة خصمه».

فلما سمعته يناديها باسمها القديم أجفلت وزادت رعدتها ولم تعد تقوى على الوقوف وقالت: «لست منجماً ولكنك نبي».

فضحك وحوّل وجهه عنها ليهدأ روعها وقال: «لست نبياً ولا منجّماً».

فغطت وجهها بكفها وقالت: «ماذا أرى.. ويلاه.. هل أنا في يقظة أو في منام؟».

قال: «بل أنتِ في يقظة يا حسناء».

فرفعت كفيها عن عينيها ثم أعادتهما وتحولت مسرعة إلى ما وراء الحجاب وهي تقول: «نعم في يقظة. يا ليتني كنت في منام».

وكان جوهر واقفاً يسمع ما دار بينهما وقد أخذته الدهشة، فلما رأى الزهراء عادت إلى وراء الستر تبعها وقال لها: «ما بالك يا سيدتي؟.. اسأليه أين أخوك الآن.. أتمي الحديث».

فدفعته بيدها، فأظهر أنه استلقى على ظهره من عظم الدفعة، وأخذ يتماجن فقال: «الحق عليَّ لأني خالفت مولاي وأذنت في خروجك إلى المعلم».

أما سعيد فإنه ظل واقفاً لا يتكلم، ثم تقدم وأزاح الستر بيده فرأى الزهراء قاعدة وقد جعلت رأسها بين كفيها وأطرقت كأنها أصيبت بالجمود فقال لها: «ما بالك يا سيدتي؟ هل عدلت عن الاستفهام؟ هل أذهب؟».

فأدارت ظهرها له وانزوت وراء الستر وقالت: «نعم اذهب. اذهب. ولكن لا.. لا تذهب».

فقال: "أذهب؟ أم لا أذهب؟ أذهب لأني قلت لك الحق؟ إني ذاهب». وأرخى الستر من يده وتحوّل، فوثب جوهر إليه وأمسك بردائه وقال: «تعال.. إلى أين ذاهب؟».

فأشار سعيد إلى جوهر أن يخرج من الغرفة ويتركهما فخرج.

فلما بقي سعيد وحده وقف والستر لا يزال مسدلاً بينه وبين الزهراء وقال لها: «والآن يا حسناء ماذا تريدين؟ نحن الآن في خلوة.. اخرجي إليَّ وانظري في وجهي».

فلم تجبه، فرفع الستر ودخل، فرآها واقفة وهي مطرقة تنظر في الأرض وقد امتقع لونها وتبدلت سحنتها وتولتها الرعدة فقال لها: «انظري إليَّ».

فرفعت يدها كأنها تتقي بصره بكفها وقالت: «دعني، لا أقدر أن أنظر إليك، قل لي مَن أنت؟».

قال: «قولي أنتِ مَن أنا؟ كما قلت لكِ مَن أنتِ».

فقالت: «قل مَن أنت..».

قال: «أنا سعيد الوراق بعثني أمير المؤمنين لأعلمك غناء أهل العراق».

فرفعت بصرها إليه وتفرست فيه وهي تتجلد وقالت: «كلا، بل أنت لص غادر».

فضحك وقال: «لست لصاً ولكن اللص مَن يخون وليّ نعمته ويختلي بالغرباء، يأتي بهم إلى قصر الخليفة بأثواب النساء».

فصاحت: «ويلك. إنك شيطان، بل أنت عفريت من

العفاريت».

فقال بصوت هادىء: «أنا مَن أنا.. فالأفضل لك أن ترجعي إلى رشدك وتتكلي عليَّ، إذ ليس مَن يفرج كربك سواي».

فتماسكت ووقفت وهي تفرك عينيها ولا تصدق أنها في يقظة وقالت: «قل لي مَن أنت حالاً».

قال: «أقول أم تكتفين بما قلته؟».

قالت: «قل.. قل سريعاً». وكانت عيناها تبرقان من الدهشة وشفتاها ترتجفان من الغضب وقد شخّصت فيه.

فقال: «أنا سليمان».

فلما سمعت اسمه صرخت ووقعت مغشياً عليها فبادر إلى رشها بعطر كان معه حتى أفاقت، وحالما فتحت عينيها ورأته تراجعت وغطّت وجهها بيديها وقالت: «أنت سليمان!.. إنك أصل بلائي.. سوف أريك عاقبة عملك.. ألا تزال تتعقبني، وكنت السبب في ضياع أخي؟». قالت ذلك ونهضت وهمّت بالخروج كأنها تريد أن تستعين عليه بأحد، فأمسك بيدها وأوقفها وقال: «تمهلي ولا تلقي بيديك إلى التهلكة، اعلمي أن حياتك وحياة أخيك في يدي».

فوقفت وهي تنظر إليه وتتفرس في سحنته، وهو يرنو إليها بلطف وسكينة، ثم قال: «لا تغضبي يا حسناء. ولا تنقمي عليَّ فإني ارتكبت العظائم في سبيل حبك. إني أحبك». قال ذلك بلحن المحب الولهان.

فلم يزدها ذلك إلا غضباً وقالت: «أنا لا أحبك، يكفي ما جررته عليَّ من البلاء».

قال: «لم أجرِ عليك بلاء. ولا ذنب لي عندك سوى أني أحبك

وقد عرفتك قبل أن يعرفك صاحب هذا القصر».

قالت: «وتجرؤ عليَّ جارية أمير المؤمنين؟ ألا تعلم أن الناصر إذا اطلع على حقيقة أمرك قتلك حالاً».

قال: «لا تجعلي للطيش سبيلاً إلى عقلك، تذكري أخاك وإن حياته في يدي، إذا شئت قتلته في هذه الساعة».

قالت: «كذبت.. فقد عرفت الآن أنك تحتال عليَّ وتحملني على خيانة مولاي ومولاك الناصر. فلا تطمع في نيل مرامك - إنك مائت لا محالة، دعني وإلا صرخت صرخة جمعت عليك أهل القصر فيسوقونك إلى حتفك».

فترك يدها وقال: «يظهر أنك لم تصدقي قولي، إن أخاك حي وأنه في خطر القتل ولا ينقذه من الموت شيء غير استرضائي. لا تتهوري.. إذا كنت تعتقدين كذبي وأنك قادرة على أذاي فهذا لا يفوتك في أي وقت أردته فلا تعجلي فتعود العائدة عليك. إن لأمير المؤمنين ثقة في تنجيمي لا تتزعزع».

فقطعت كلامه قائلة: «أنا أخبره أنك خائن وأطلعه على حقيقة أمرك».

فقال: «هل تظنينه يصدقك؟».

قالت: «نعم يصدقني».

قال: «لا.. ومع ذلك فإن الخطر يبقى على أخيكِ لأن الناصر حالما يعلم به يبعث فيطلب رأسه.. فالأحسن أن تتبصري».

فاقشعر بدنها وخافت على أخيها وتجلدت وكظمت وقالت: «ها أنذا متبصرة، قل ما هو خبر أخي».

فتقدم نحوها ونظر إلى عينيها نظر الاسترضاء وقال: «إني

أشكو إليك غرامي بك وإخلاصي في خدمتك وأنت تشتمينني وتهددينني! انظري إلى الفرق بيننا! أما أخوك فقد سألتني عن اسمه وقلت لك أن له اسمين ذكرت أحدهما ولم تسأليني عن الآخر».

قالت: «وما هو الآخر؟».

قال: «اسمه صاحب النقمة».

وكانت تعلم أن ذلك اسم رجل من أشد أعداء الناصر وأكثرهم سعياً في خلعه. وقد قام لتحريض العرب والبربر على مناوأته وإخراج الدولة من يده. وقد بذل الناصر الأموال وبثّ الجواسيس في البحث عنه فلم يظفر به. ولا شك عندها أن الناصر حالما يسمع به يأمر بقتله، ولو عرف أنه أخوها، وقد يغضب عليها من أجله. لكنها مع ذلك ما زالت تظن سعيداً يكذب تخويفاً لها. فلما ذكر اسم أخيها هذا أظهرت الاستخفاف وقالت: «لا يمكن أن يكون هذا الرجل أخي. إنك تخدعني ترويجاً لغرضك، دع عنك هذا وارجع عن غيك، وأخبرني عن حقيقة حال أخي فأعفو عنك وأكتم أمرك».

قال: «يا سيدتي.. أو يا حبيبتي.. إني لا أكذب.. إن صاحب النقمة هو أخوك سالم نفسه وإذا شئت أتيتك بالدليل المحسوس».

قالت: «وما دليلك؟».

قال: «دليلي قريب. ألا تعرفين خط أخيك؟».

قالت: «أعرفه».

فمد يده إلى جيبه وأخرج رقاً ملفوفاً في منديل تناوله وفتحه قال: «اقرئي».

فقرأت سطراً مكتوباً بالدم هذا نصه:

«أنا سالم صاحب النقمة أعاهد نصراء الحق على أن أبذل حياتي في سبيل قتل عبد الرحمن الناصر.. كتبه سالم صاحب النقمة».

فأخذت تقرؤه وتعيد قراءته وتتفرس في الخط فإذا هو خط أخيها نفسه، فرفعت بصرها إلى سعيد، فحدق هو نظره إليها عنوة، فأحست بمجرى كهربائي تسرب في عروقها فأضعف عزيمتها، فتولاها الخوف على نفسها وعلى أخيها، ووقفت مبهوتة لا تبدي حراكاً، ولفّ سعيد الرق في أثناء ذلك ووضعه في جيبه وهو يقول: «ما رأيك الآن يا حسناء؟».

فشعرت بأن قواها تخور، ولم تعد تستطيع الوقوف، فقعدت على البساط وأطرقت وظلت ساكتة.

فقال: «هل رأيت أني ناصح لك، وإني أتيت لإنقاذك وإنقاذ أخيك؟ ألا ترين أني قادر على أن أقتله بكلمة واحدة؟ ارجعي عن جفائك وقسوة قلبك، وارحمي قلباً كاد يذوب شوقاً إليك. إن سليمان الذي رأيته على ظهر السفينة يوم خروجك من صقلية رجل يحبك ويهواك. وما أنا ربان السفينة ولا أنا خادم فيها، وستعلمين متى أخلصت الحب لي أني أهلٌ لمحبتك.. لقد ركبت الأخطار وتعرضت للموت من أجلك. وقد فعلت فعل المحب المتفاني في سبيل حبيبه. ولو أنك علمت ما فعلته من أجلك ما رفضت طلبي، وسوف تعلمين. ولا يغرنك ما ترينه من القصور والزخارف، إنها لا تلبث أن تذهب ولا يبقى غير الحب. وها أنذا أعرض عليك هذه النعمة فلا ترفضيها!».

وقعت الزهراء في حيرة ولم تعد تعلم بماذا تجيب، وترجح لديها أن أخاها في قبضة سعيد ولا نجاة إلا بمسايرته. ولكنها ما

زالت تكرهه وتود قتله، ولا تجد سبيلاً إلى ذلك. فعمدت إلى الملاطفة فقالت: «والآن، ما العمل؟ هل أخي قريب من هذه الديار؟».

قال: «بل هو في هذه الديار في مخبأ لا يعرفه أحد سواي».

قالت: «وما السبيل إليه. وكيف العمل؟».

قال: «سأخبرك عن السبيل في فرصة أخرى، إنما أرجو منك الآن أن تثقي بي. ولا أظنك تفعلين. فإن لم يفعلي فدمك ودم أخيك على رأسك، ولقد نصحت لك وفعلت كل ما تطلبين مني فما رأيك؟».

فأطرقت وأعملت فكرها فيما وقعت فيه فلم تجد لها سبيلاً غير الملاطفة ريثما تحتال في النجاة، فعادت إلى رشدها وتعقلها ورباطة جأشها. لكنها أحست بتغيير طرأ على إحساسها بعد تلك النظرة التي اخترقت أحشاءها وهزت أعصابها وقضت على إرادتها، وخيّل لها من تلك اللحظة أنها طوع إرادته ولم تعد تملك رأيها فقالت: «اصبر كما قلت. وأخشى أن تكون خدعتني».

قال: «دعي عنك الشكوك».

فسكتت قليلاً ثم قالت: «وكيف ألتقي بأخي. هل تستقدمه إلى هنا؟».

قال: «كيف يقدر على دخول هذا القصر؟ الأسلم أن تذهبي أنت إليه، وتقنعيه بالرجوع عن الثورة ثم نحتال لاسترضاء الخليفة عنه، وأظننا ننجح، ثم نقيم هنا معاً وأنت في منزلتك، ولا يعلم أحد بما جرى. والآن لا ينبغي لنا أن نفترق قبل أن نحسن التفاهم، فهل أنت واثقة بما أقول؟».

فطأطأت رأسها وقالت: «نعم».

فقال: «سنتفق على وقت نخرج فيه خلسة إلى مقر أخيك. لا أقدر أن أتصور فرحك به ساعة اللقاء وسيخبرك هو أنه مدين لي بحياته، ولولاي لم يبق حياً!».

فكان لهذا التعبير وقع حسن على قلبها فابتسمت وقالت: «أنت كنت السبب في حفظ حياته؟ شكراً لك».

قال: «لا فضل لِيَّ في شيء من ذلك لأني فعلت ما يدفعني إليه شعوري، فإن حبك يا حسناء قد استولى على كل جارحة من جوارحي. ألا أفعل ما يرضيك؟ وهل يكون لي فضل إذا فعلته؟ والآن دعيني أعلمك لحناً تغنينه للناصر إذا سألك عما تعلمته».

قالت: «حسناً». ونادت جوهر فأتى وعاد إلى خدمتها. فعلمها سعيد لحناً، ثم ودعها على أن يعود في الغد لتعليمها، ومضى وقد مالت الشمس إلى المغيب، وسار تواً إلى غرفته. وكان الخليفة قد نزل إلى مجلسه في ذلك النهار لأحوال سياسية اقتضت مقابلة بعض السفراء من ملوك النصارى المجاورين، وكان يؤثر أن يقابلهم في قصر قرطبة.

أما سعيد فمكث في غرفته، حتى جيء إليه بالعشاء فتناوله ولم يخرج، لأنه أحب الخلوة ليعمل فكره في إتمام الحيلة للفرار بالزهراء من تلك القصور.

وذهب إلى فراشه وقد أنهكه التعب لشدة ما أثارته تلك المحادثة في نفسه، وقد كان ينتظر هذه المقابلة منذ أعوام عديدة، وسعى فيها وبذل كل مرتخص وغالٍ في سبيل الوصول إليها. وهو يعلم الخطر المحدق به، ولكنه جنّ بحب الزهراء ولم يعد يحسب للحياة حساباً. ورغم ما رأيت من تعقله ودهائه فإن حبه الزهراء غلب على عقله وأخذ بمجامع قلبه. وليس للعقل سلطان على قلوب المحبين، فقد

تجد الرجل العاقل يقيس الأمور ويبحث أسبابها ونتائجها، وقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب. فإذا استولى الحب على قلبه ارتكب من الهفوات ما يتنزه عنه الجهلاء، وهو يرى أنه عاجز عن تجنبها. وإذا تأمل ما يأتيه من الخفة والطيش في سبيل الحب خجل من نفسه ولا يرى له مندوحة للخلاص مما وقع فيه.

كان سعيد قد أحب الزهراء وافتتن بها منذ رآها في صقلية، وكان قد قدم الجزيرة في مهمة سياسية بعثه بها المهدي صاحب افريقية، فغلبت على عقله وأراد أن يستأثر بها لنفسه، وركب السفينة معها على أن يحتال في اجتذاب قلبها ثم يرى السبيل للفرار بها. أما هي فحالما وقع نظرها عليه أحست بنفور منه، وصاركلما اقترب منها ابتعدت عنه، وهي تزداد نفوراً، حتى آثرت أن يأخذها اللصوص على أن تبقى بقربه.

أما هو فأخذ أخاها معه ورباه على الغرض الذي أجمع عليه العبيديون في افريقية، وهو كره آل مروان في الأندلس والسعي في الاستيلاء على مملكتهم. وكان سعيد من كبراء هذه الشيعة وله نفوذ كبير عند المهدي العبيدي ومَن جاء بعده على عرش الخلافة الفاطمية في القيروان. وقد عهدوا إليه في القيام بمهام جسام، وكانوا قد بثوا هذه الروح في كثيرين من كبراء القواد في الأندلس نفسها. ومنهم الجمعية التي كانت تجتمع في قرطبة سراً.

جاء سعيد إلى قرطبة في مهمة سياسية من عدة أعوام. وكان قد علم بالبحث والتدقيق أن حسناء التي عرفها في صقلية صارت إلى الناصر في قرطبة وسماها الزهراء. عرف ذلك بدهائه واهتمامه، وكتمه عن أخيها وجعل همه الوصول إليها. وأقام حولها الجواسيس وكاتبها بأساليب مختلفة يستعطفها، وهي تستخف به وترذله، فلا

يزداد إلا شغفاً بها، حتى أصبح يسعى في الوصول إليها ولو نكاية فيها واسترداداً لكرامته ودفعاً لإهانته. وكان يعلم تعلقها بأخيها فأتاها بهذه الحيلة.

وقضى بضع ساعات في غرفته وقد سادها الظلام، غارقاً في بلباله وقد فرّ النوم منه وتولاه الأرق لعظم ما جاش في خاطره في ذلك اليوم.

وبينما هو جالس على فراشه في العتمة وبصره متجه إلى نور يظهر له من نافذة تطل على داخل القصر إذ وقع نظره على شبح يتمشى هناك بخفة كأنه يحاذر أن يسمع أحد وقع خطاه، فتفرس فيه فإذا هو ساهر، وعليه لباس الوصفاء كما رآه في المرة الماضية. فنهض واقتفى أثره، فرآه يلتمس غرفة الزهراء. فما زال في أثره حتى رآه دخل الغرفة، وقد وقفت الزهراء لاستقباله، وهي لا تزال في ثوبها النهاري كأنها كانت على موعد معه. فثارت الغيرة في قلب سعيد، وجعل يغالب نفسه فلم يستطع صبراً على ما شاهده، فمشى حتى دخل الغرفة ولم يشعر به أحد منهما. فرأى ساهراً جاثياً أمام الزهراء، وسمعه يقول لها بصوت المحب الولهان: «مريني يا سيدتي فأنا رهين أمرك، وليس أشهى على قلبي من أن أنفذ إرادتك، ويكفيني شرفاً وسعادة أن تقع أوامرك في أذني».

فأجابته هي بقولها: «انهض يا ساهر، بارك الله فيك. إني مسرورة من مروءتك وصدق مودتك. قل لسيدك أني لولا حبي له لم أطلب مقابلته، ولا بأس عليه من أهل هذا القصر، فليأت على عجل».

ثم لمحت سعيداً داخلاً فبغتت وبانت البغتة في عينيها، ولحظ ساهر تغيّرها فالتفت فلما رأى سعيداً تنحى ثم انصرف.

أما سعيد فظل ماشياً وهو يتجلد ويتماسك حتى صار بين يدي الزهراء وهي تنظر إليه والغضب ظاهر في عينيها فقالت له: «ما الذي جاء بك إلى هنا الآن؟».

قال وهو يتلطف في التعبير: «جئت لأتمتع برؤيتك قبل الذهاب إلى الفراش، وقد تمتعت بما يُذهب عني النوم!».

فقالت بلحنٍ الاستخفاف: «ما كان أغناك عن هذا المجيء! كأنك تتلصص عليَّ وتراقب حركاتي ومَن يدخل عندي أو يخرج. إن أمير المؤمنين لم يفعل ذلك!».

فقطع سعيد كلامها وقال: «أمير المؤمنين لم يفعل ذلك لأنه لا يحبك مثل حبي!». قال ذلك وتنهد.

فقالت وهي تبالغ في الاستخفاف: «صدقت أن الناصر لا يحبني ولكن أنت وحدك تحبني. ما كان أغناني عن هذه المحبة، بل ما أحوجني إلى بغضك!». قالت ذلك وهي تصر بأسنانها.

فلما رأى جفاءها تقدم نحوها وهو يتكلف الاسترضاء وقال: «سامحك الله يا حسناء. أهكذا كلما شكوت إليك غرامي وذلي زدت نفوراً وجفاء؟».

فلما دعاها باسمها الأصلي، تذكرت أخاها فخافت عليه وعادت إلى التجلد والملاطفة فقالت: «لقد أسأت إليَّ بمجيئك على هذه الصورة حتى أغضبتني وحملتني على ما قلته. ونحن كما تعلم قد تواعدنا واتفقنا».

قال: «إنما حملني على المجيء حبي لك وغيرتي عليك!».

فمدت يدها نحوه كأنها تستوقفه وقالت: «لا فائدة من الغيرة وأنا في هذا القصر. وعما قليل أكون لك. لا تسألني عن شيء».

فلما سمع قولها استخفه الفرح وصاح قائلاً: «تكونين لي؟ قبلت ذلك، وعفا الله عما مضى».

قال ذلك وهو ينظر في عينيها وقد نسي الغيرة والشك، وتناول يدها كأنه يهم بتقبيلها فاجتذبتها منه ونظرت إليه نظر العتاب والتوبيخ وقالت: «امض الآن ولا تجعل للناس سبيلاً إلى الظنون».

فتحول وخرج وهو يحسب أنه نال أهم أسباب السعادة بما سمعه من وعودها. فدخل غرفته واستلقى على فراشه، فعادت إليه هواجسه، وأخذ يفكر في حاله، فاستغرب انقياده الأعمى لداعي قلبه، ونسيانه المهمة الأصلية التي قام من أجلها وقامت معه افريقية كلها، وعول عليه خليفتها ووثق فيه حتى لو كتب إليه أن يجرد جيشاً لفعل، فكيف يشتغل عنه بحب جارية لا تحبه؟ فأحس بصغر نفسه وضعف إرادته كأنه عبد لعواطفه. فأخذ يوبخ نفسه على ذلك الضعف ويهم بأن يرجع إلى رشده وينصرف عن الغرام إلى طلب العلا بحد الحسام، ولكن ما تكاد تتمثل له الزهراء ويتصور أنها ستكون له حتى تنحل عزيمته وتذهب حماسته.

وبقي سعيد في مثل تلك الهواجس، وقد أخذه الأرق، ولم يبقَ في القصر ساهر سواه، فساد السكون، ولم يعد يسمع فيه لا خرير الماء في برك الحديقة وفي البركة الداخلية في بيت المنام، وهو يحمل نفسه على الرقاد ويحاول نسيان تلك الأفكار عبثاً. وفيما هو في ذلك والظلام سائد سمع حركة في غرفته، وما لبث أن رأى شبحاً داخلاً عليه، فاستوى على فراشه وتفرس فيه فإذا هو عابدة تمشي الهوينى. ولما رأته جلس على فراشه أسرعت في خطاها حتى بلغته وجثت بين يديه وقالت: «سعيد، إلى متى تضحك مني؟».

فأظهر الاستغراب وقال: «أضحك منك! ما هذا الكلام؟».

قالت وصوتها مختنق: «نعم تضحك مني وتهزأ بحبي!».

قال: «دعي عنك الأوهام».

قالت: «يكفيني ما قاسيته من الصبر على وعودك، صرح لي بأنك لا تحبني ودعني فأمضي لسبيلي».

قال: «كيف تقولين هذا وأنت تعلمين أني أحبك؟ إننا لم نفرغ من مهمتنا بعد، وأنت على بيّنة من كل شيء».

قالت: «نعم أنا على بيّنة من كل شيء، ولذلك لم أعد أستطيع صبراً».

فأدرك أنها تشير إلى اطلاعها على شيء يكتمه عنها فقال: «ماذا تعنين؟».

قالت: «أعني أنك شغلت عني ونسيت عابدة المسكينة؟». وأجهشت بالبكاء.

فأثر بكاؤها في قلبه وأحس أنه ساءها، ولكنه ما لبث أن تصور الزهراء حتى نسِيَ إساءته وجعل همه إتمام معدات الوصول إليها فقال: «دعي عنك هذه الأوهام. ليس هناك ما يشغلني عنك، وإذا رأيت مني تقرباً إلى أحد سواك فما ذلك إلا سعياً في الوصول إلى الهدف الذي تعلمينه».

فتنهدت تنهداً عميقاً ورددت قوله: «الهدف؟ آه من ذلك الهدف! ما كان أغنانا عنه. بل ما أظننا نصل إليه مع ما أظننا نصل إليه مع ما يُحدق بنا من الأخطار».

فأظهر أنه استاء من شكوكها فقال: «لا تضعفي أملي». وهمس قائلاً: «سيأتي يوم نكون فيه ملوك هذه الجزيرة وتكونين أنت ملكة عظيمة الشأن!».

قالت: «دعني من ذلك. إن السعادة ليست في السيادة ولا في الثروة. إن السعادة في الحب!». قالت ذلك وصوتها يتلجلج خجلاً، وبلعت ريقها ثم قالت: «لو كنت أعلم أنك تحبني مثل حبي لك لكنت أسعد امرأة على وجه الأرض».

فقطع كلامها وقال: «ألم أقل لك أني أحبك؟ ستتحققين صدق قولي عما قريب».

فوقع كلامه على قلبها برداً وسلاماً وأحست أنها في نعيم وقالت: «صحيح؟ صحيح أنت تحبني؟».

فمد يده إلى يدها وقبض على أناملها، فأحست بمجرى كهربي انتفضت له أعصابها وغلبت على أمرها وقالت: «نعم، إنك تحبني، فأنا سعيدة!».

قال: «بقي أن أسألك أنا، هل تحبينني؟».

ولم يتم سؤاله حتى تناثر الدمع من عينيها وقالت والبكاء يخنقها: «أتسألني عن حبي لك؟ أمثلي يُسأل هذا السؤال؟ لم يبقَ في جارحة لم تفتتن بك. ألا يكفيك من الأدلة ما أنا فيه؟ ما الذي حملني على ارتكاب هذه الأخطار؟».

فقال: «لم ترتكبي خطراً بعد. إن وجودك في هذا القصر من أسباب السعادة، ويتمناه كل إنسان، ولكننا سنصل إلى الخطر قريباً، وعند ذلك يظهر المحب الصادق، ولا شك عندي أنك ستبرهنين على صدق محبتك وإخلاصك لي وللإمام العبيدي صاحب افريقية».

قالت: «آه يا سعيد كل شيء سهل في سبيل حبك، دعني أغتنم فرصة هذه الظلمة وأصرح لك بما يكنّه فؤادي من الشغف بك. لو كنا في النهار أو كانت هذه الغرفة مضيئة لخجلت، ولكن

العتمة تستر، إني أحبك إلى حد الجنون، ولا أراك تحبني وتهتم لأمري، مع أني أتفانى في سبيل مرضاتك، افعل ذلك من كل قلبي، ويلذ لي العذاب إذا كان فيه سرورك! فهل عندك مثل الذي عندي؟ أو مثل بعضه يا ترى؟».

فضغط على يدها ثانية وقال: «كفى يا عابدة شكوكاً، لقد دنا الوقت ولا نلبث أن نتفرغ لما نريده، ولم يبق من المهمة التي جئنا من أجلها إلا خطوة واحدة. وهي رهن باردتك أنت!».

قالت: «مُرْ بما تشاء».

قال: «ألا يزال ذلك الحق معك؟».

فوضعت كفها على صدرها وقالت: «هو هنا في أصون مكان».

فقال: «إليَّ به».

فدفعته إليه فأخرج من جيبه ورقة قطعها نصفين، وصبّ ما في ذلك الحق فيهما، وهو مسحوق أبيض لامع، ولفّ كل واحدة على حدة، ودفعهما إليها وقال: «احتفظي بهاتين الورقتين جيداً لوقت الحاجة».

قالت: «وما فيهما؟ هل من بأس عليَّ إذا تناولت منهما شيئاً؟».

فابتدرها قائلاً: «احذري أن تفعلي».

فقالت: «لم أكن أجهل ذلك. ولكنني أرجو ألا أحتاج إلى تناولهما!».

فتجاهل مرادها وقال: «احتفظي بهما حتى آتيك غداً أو بعد غد».

فأدركت أنها ينبغي أن تنصرف، وودعته وهي تتفرس في وجهه، والظلام يحجب علامات المكر والغدر فيه، ولو لم يحجبها فإنها لم تكن ترى في سعيد غير الكمال إذ استهواها بمغنطيسيته.

خرجت عابدة من عند سعيد، فعادت إليه بلابله أشد مما كانت. وقد تمثل له كيف يخادع هذه الفتاة المخلصة ويغريها بالمخاطرة بنفسها بمواعيده الكاذبة، ويراها شديدة الثقة به وهو ينوي خيانتها. وحكّم عقله فرأى أنه يفعل أفعالاً لا يأتيها إلا المجانين. إنه سيرتكب جريمة القتل في أشد الظروف خطراً. وعاد إلى التفكير في مهمته السياسية الأصلية، وكيف أنه كاد يفوز بها لو لم يلهه عنها حب الزهراء. ولما تذكرها خفق قلبه وأعمل فكرته في أمرها وقال: «قد يكون سعيد من قلب الزهراء مثل عابدة من قلب سعيد. فأنا أداجي عابدة وأعدها، فهل الزهراء تداجيني؟ ولكن سعيداً غير عابدة.. إن مَن يرتكب ما ارتكبته ويعمل ما عملته لا يشق عليه أن ينتقم من تلك الجارية، إني أريها العذاب ألواناً.. لا. لا. لا أفعل ذلك مع الزهراء، إنها حبيبتي، لماذا أنا مستسلم لها؟ اتركها وشأنها والنساء كثيرات، وهذه عابدة المسكينة تتمنى رضاي. إن حبي الزهراء سبب بلائي، وسيكون سبباً في ضياع أمة برمتها. ألم يضع الإمام العبيدي ثقته فيَّ، وأهل افريقية ينتظرون نتيجة سعيي؟».

ولما فكّر في ذلك هبّ من فراشه كالمجنون ووضع كفّيه على عينيه كأنه يستحث قريحته لأعمال الفكر في حقيقة حاله. ووقف لحظة ثم عاد فقعد على الفراش وقد تمثلت له الزهراء على أشهى ما يتمناها فقال: «إن نظرة في حسناء تساوي العالم برمته، وما لذة الإنسان من المناصب والمراتب إذا لم يكن له حبيب يحبه؟ الزهراء تساوي كل شيء، ولا بد من المخاطرة في سبيل نيل الأماني. وما فاز

باللذات غير الجسور أما عابدة فإني أشغلها بسواي وأرضيها!».

قضى بقية ليله في هذه الهواجس، ولم ينم إلا قليلاً، وأفاق في الصباح على نقر الباب، ففتح عينيه فرأى ياسراً داخلاً فجلس وحياه ورحب به. فقال ياسر: «أظنني أقلقتك من رقادك».

قال: «كلا بل أنا في شوق إلى رؤيتك».

قال: «وأنا أيضاً.. وقد استبطأتك، وكنت أحسبك تبعث إليَّ لتقص عليَّ ما جرى أمس».

فعلم أنه يعني ما جرى بينه وبين الزهراء لأن ياسراً يكرهها ويريد أن يوقعها فيما يحقرها في عيني الناصر، انتقاماً منها لما يتوهمه من عقوقها ونكرانها الجميل، إذ كان هو الذي أدخلها بلاط الناصر فلم تحفظ له الجميل. وظهر له من حديثه يوماً مع سعيد أنه يوافقه على ذلك، وكان يظنه يستطيع بالتنجيم معرفة سبب اجتماعها بالأمير عبد الله فيفشيه للناصر فيغضب عليها ويطردها. وأدرك سعيد كل ما كان يجول في خاطر ياسر فقال: «إن أمر هذه الجارية حيّرني، ولم أستطع كشف سرها تماماً مع أني قضيت ليلتي ساهراً لم أنم إلا قليلاً أفكر في أمرها، ولما رأيتك داخلاً ظننتك آتياً لتدعوني إلى أمير المؤمنين».

قال: «إنه لم يعد من قرطبة».

قال: «هل بات هناك؟ ولماذا؟».

قال: «ذهب لمقابلة بعض وفود ملوك فرنسا وإيطاليا، وهو يؤثر أن يستقبلهم في قصر قرطبة. فلما أبطأ في الرجوع بات هناك، وقد أوصاني قبل ذهابه أن أفتح عيني لأراقب كل حركة».

فضحك سعيد وقال: «يظهر أنك لم تكن ساهراً».

ففهم مراده فقال: «كنت ساهراً، وقد رأيتُ ساهراً يدخل القصر بلباس بعض الوصفاء فسهلت له الدخول على أمل أن تتورط هي فتقع وقعة لا قيام لها منها».

فأطرق سعيد وفكر فيما يحدث لو أخطأت الزهراء ووقعت في الذنب، فرأى أن الناصر يغضب عليها فيتوسط هو في الإصلاح فيكون له فضل عليها يساعده في نيل عطفها، ثم هو يحب من الجهة الأخرى ـ إذا كان بينها وبين عبد الله تواد ـ أن يكون قصاصها على يد الناصر. فقال لياسر: «ومتى يعود الخليفة من قرطبة؟».

قال: «لا أدري، ولعله يعود في المساء، وقد يبيت هناك الليلة أيضاً ويأتي غداً، وأنا في انتظار رجوعه بفارغ الصبر».

فقال: «وماذا تظنه يفعل إذا علم ما بين الزهراء وابنه من العلاقة؟».

قال: «أظنه يطردها إن لم يقتلها».

فسكت وأظهر أنه يهم بالنهوض، فنهض ياسر وخرج وهو يقول: «وفّق الله سعينا».

فلما خلا سعيد إلى نفسه أعمل فكرته، فرأى أن سعي ياسر ضد الزهراء يفيده في كل حال طالما كان حائزاً ثقة الخليفة يديره كيف يشاء، فمكث يترقب الفرص.

أما ياسر فجعل همه في ذلك اليوم مراقبة الأبواب لعله يرى عبد الله داخلاً ليشي به إلى الخليفة وهو مجتمع بالزهراء. ولكنه كان يخاف أن يأتي عبد الله ويعود قبل رجوع أبيه من قرطبة، فبعث بعض الخصيان يسأل في قرطبة عن رجوع الخليفة متى يكون، فعلم أنه عائد بعد الغروب فأمر أن يكون القصر في تأهب لاستقبال صاحبه، وعاد

إلى مراقبة الأبواب.

اعتقال الأمير عبد الله

غرُبت الشمس ولم يأت أحد إلى القصر، ثم لمح ياسر رجلين في ملابس الخصيان دخلا من باب القصر ولم يعترضهما أحد من الحراس كأنهم كانوا على موعد. وأدرك أن ساهراً أحدهما وأن الآخر لا بد أن يكون الأمير عبد الله. فتنحى ريثما مرا، ثم راقب جهة مسيرهما فرآهما سائرين نحو قصر المؤنس إلى الحديقة التي اجتمعا بها في المرة الماضية. فسار من جهة أخرى ليتحقق أن الزهراء نزلت لمقابلة عبد الله، فلما تحقق ذلك أصبح همه أن يأتي الناصر قبل تفرقهما ليرى اجتماعهما بنفسه فيكون ذلك أدعى إلى غضبه وسرعة انتقامه.

فرجع إلى الباب الخارجي الذي يدخل منه الناصر إذا عاد من قرطبة، وأخذ يتشوّف عن بعد، وقد أظلمت الدنيا، لكن قصور الزهراء كانت تُنار ليلاً بالمصابيح من كل أطرافها. ورآهم ينيرون الطريق بينها وبين قرطبة استقبالاً للخليفة. ولم تمض هنيهة حتى رأى الخصيان والفرسان وعليهم الجواشن قادمين مسرعين، ويليهم سائر الموكب وفي وسطه الخليفة وإلى جانبه تمام رئيس الخصيان زميل ياسر. ولم يكن بينهما تحاب شأن المتنافسين في المناصب في كل زمان، وكان الناصر يقدم تماماً في أغلب الأحيان ويقلل من نفوذ ياسر. وهذا يُعتقد أن الزهراء هي التي جعلت الناصر يتغير عليه، ولذلك ازداد رغبة في الانتقام منها. ورأى هذه الفرصة أثمن الفرص ليظهر إخلاصه للناصر وتفانيه في خدمته ليغير ما في نفسه من تقديم تمام عليه. فلما رأى الناصر في موكبه وتماماً إلى جانبه لم يعد يصبر على التصدي لمخاطبته قبل الوصول إلى القصر مخافة أن يذهب إلى قصر آخر غير المؤنس ثم يشق عليه استقدامه في تلك الساعة.

فلما وقع نظر الناصر على ياسر توسم في وجهه خبراً، فانفرد عن الموكب ومضى نحوه، فمشى ياسر في ركابه حتى دنا من قصر المؤنس، وترجل الخليفة وأشار إلى الناس بالانصراف وظل ماشياً مع ياسر ثم قال له: «ما وراءك يا ياسر؟».

قال: «ما ورائي إلا الخير، وكنت أود ألا أنقل إلى مولاي إلا ما يسره، ولكنني أعلم أنه راغب في معرفة سر ذلك الاجتماع».

فانتبه الناصر إلى أنه يعني اجتماع الزهراء بعبد الله فقال: «هل جاء ولدنا عبد الله إلى هنا؟».

قال: «نعم يا سيدي، ولو أنه جاء كما يجيء سائر إخوته وأهله لم يكن بأس من مجيئه، ولكنه يأتي متنكراً».

قال: «وكيف يأذن الحراس في دخوله؟».

قال: «يأذنون له بأمر الزهراء. فإنها توصيهم بذلك على يد أحد خدمها».

فغضب الناصر وقال: «وأين هو الآن؟».

قال: «في الحديقة المعهودة، وهي معه».

فأطرق الناصر حيناً ثم ضرب برجله وقال: «كأن عبد الله ينتقم مني لأني حبست عابدة عنه؟ أبَلَغت به الجرأة إلى أن يتطلع إلى جاريتي الزهراء نفسها؟».

فسُرّ ياسر من غضب الناصر، وأحب أن يمكنه من الغضب عليها وحدها فقال: «لا أظنه يبغي انتقاماً، ولكنها خدعته، ولا يُخفى على أمير المؤمنين ما جُبل عليه النساء من مكر وخداع».

فمد الخليفة يده إلى جيبه وأخرج ورقة وقال: «هذا كتابه جاءني أمس في قرطبة، ولم يصبر عليّ حتى أعود إلى هذا القصر فيخاطبني».

فقال ياسر: «هل يطلب عابدة؟».

قال: «بل هو يهددني إذا أنا لم أعدها إليه، ولم أفهم معنى تهديده، ولكني فهمت الآن أنه يريد أن ينتقم مني بأخذ الزهراء، ولكن كيف توافقه هي؟».

فقال ياسر: «إن النساء...».

فقطع الناصر كلامه وقال: «أحب أن أراهما وأسمع حديثهما، ولي بعد ذلك رأي». قال ذلك والغضب بادٍ في أسرّة وجهه.

ففرح ياسر لهذا التهديد، وأسرع بين يدي الخليفة، وأرسل إلى خَدَمة القصر أن يخلوا هذا الجناح لأن أمير المؤمنين سيمر به. ولم تمض بضع دقائق حتى لم يبق هناك أحد، فمشى ياسر بين يدي الناصر حتى وصلا إلى غرفة لها شرفة تطل على الحديقة فوجداها مغلقة فقال ياسر: «إنها أغلقتها حتى لا يطل أحد منها عليهما». وأخرج من جيبه مفتاحاً فتحها به بخفة بحيث لا ينتبه أحد لفتحها، ودخل وأعد للناصر مقعداً بجانب الشرفة يطل منه على الحديقة، فرأى الناصر الزهراء جالسة هناك على مقعد من حجر وقد كشفت عن وجهها كأنها مع بعض أهلها، وعبد الله جالس أمامها وقد رفع اللثام عن وجهه فبانَ على نور المصباح جلياً، ولم يبق عند الخليفة شك في أنه ابنه وأنها الزهراء جاريته، فاضطرب وثارت غيرته لكنه صمت كأنه أصيب بالجمود. أما ياسر فكاد قلبه يطير من الفرح لنجاح مهمته. وكان أول شيء سمعاه قول عبد الله: «أنت تعلمين يا زهراء منزلتك عندي قبل الآن».

فأجابته: «نعم أعلم. ولذلك بعثت إليك لأخاطبك في هذا الشأن، ولولا حبي لك لم أفعل».

قال: «إن رضاكِ عزيز عندي، ولكن طفح الكيل ولم أعد

أستطيع صبراً!».

فقالت: «مهما يكن من أمر فلا أرى ما يوجب هذه النقمة».

فقطع عبد الله كلامها قائلاً: «كيف لا أنتقم وقد عاملوني معاملة العبد المملوك، لم يكفهم أنهم سلبوني ولاية العهد حتى أصبحوا يسلبونني أسباب راحتي. هذه جارية أتتني واستلطفتها، وطلبها أخي مني فاعتذرت له، فشكاني إلى أبي فبعث يطلبها ليراها فأرسلتها فحبسها عنده لنفسه!».

قالت: «أهذا يوجب النقمة حتى تنصّر الغرباء على أبيك؟ أليس هو وليّ نعمتنا؟ أليسَ هو أمير المؤمنين وأرواحنا في قبضة يده؟ يجب أن تعلم أني أحبك لأني حالما علمت بتغيّر قلبك على أبيك بعثت إليه لأنصح لك، ولولا حبي وغيرتي على سيدي الناصر وليّ نعمتي لم يكن أسهل عليَّ من أن أرفع أمرك إليه وهو لا يعجز عن القصاص».

قال: «إنه لم يعاملني مثل سائر أولاده، وقد قال لي ابن عبد البر الفقيه، وهو أعلم فقهائنا، أن مَن كان مثل أخي الحكم لا يليق للخلافة لاشتغاله عن أمور الدين بالدنيا».

فقالت: «كأنك تطمع في ولاية العهد؟».

قال: «وما المانع؟ ألم يحدث ذلك في الإسلام؟.. ليس على الخليفة أن يأخذ البيعة لأكبر أولاده، وإنما يجب عليه أن يلاحظ أخلاقهم وكفايتهم».

فقطعت كلامه قائلة: «ليس في وليّ العهد ما يمنع مبايعته. ثم أني لم أكن أنتظر منك أن تخالف أباك في شيء، وأن توقظ الفتنة.. أما أنا فقد تحملت تهمة الريبة من سيدي الناصر لأني كلمتك مرة على انفراد، وقد هددني فلم أفه بشيء خوفاً عليك. فأصغ إلى قولي

وارجع إلى رشدك، فما أنت أولى من أخيك بولاية العهد ولست أهلاً لها، فإن طاعة مولانا الناصر واجبة، وهو الذي اختار أخاك. أما إذا كنت تنوي الخروج عليه فذلك أمر آخر، وأنت أعجز من أن تستطيعه!».

وكان الناصر، وهو جالس يسمع ذلك الحديث، ترتعد فرائصه، وقد أخذته الدهشة. وكان يسترق اللحظ مرة بعد أخرى إلى ياسر فيرى الفشل بادياً على محياه وكأنه قد سقط في يده، على أن اشتغالهما بسماع تتمة الحديث ألهاهما عن كل شيء.

أما عبد الله فلما سمع استخفاف الزهراء به هز رأسه وقال: «أتظنين أني وحدي الناقم على أبي؟ إني آخر الناقمين فقد أساء إلى كل الأحزاب. واستبد بالسلطة واستبدل الخصيان من الصقالبة برجال الدولة من العرب والبربر فلذلك نقم الناس عليه. وأنا لو أشرت إشارة واحدة لالتف حولي ألوف من رجال الحرب فيهم كثيرون مثل صاحب النقمة».

فلم تتمالك الزهراء عند سماع ذلك الاسم عن الوقوف، ثم شغلت نفسها عنه وقالت: «لله أنت من أمير مغرور. لقد نصحت لك وأعيد النصح ثانية، فإذا لم تقبل فإني أبلغ أمرك إلى أبيك، لأني أضن بهذه الدولة أن تذهب فريسة الغرور وقد بناها أبوك على هام الرجال فأحيى بها دولة المسلمين وعزز الإسلام.. فلا تهدمها بطيشك. وعليك قبل أن تقدم على هذا العمل أن تستشير العقلاء».

فقاطعها قائلاً: «لقد استشرت الفقيه ابن عبد البر، وهو أعلم الفقهاء، وإن كان أبي قد آثر عليه سواه. قالت: "أحسب أن هذا الفقيه هو الذي أغراك بأبيك انتقاماً لنفسه من الفشل الذي أصابه يوم الاحتفال إذ امتنع عليه الكلام».

فضحك وهو ينهض وقال: «أنا أعقل من أن أنقاد لسواي.

وسترين».

قالت: «لا بل أرجو أن تعود إلى رشدك وتعدني أن تتوب الآن، وإلا فلست بمنطلق من ههنا».

قال: «أتهددينني؟».

قالت: «لا تستخف بي، فإني أضحي بحياتي في نصرة مولاي ومولاك!».

فهز عبد الله رأسه استخفافاً ومشى فصاحت الزهراء: «ساهر».

فجاء ساهر بأسرع من لمح البصر، فأشارت إليه أن يقبض على الأمير عبد الله، فهجم عليه وقد أعدّ وثاقاً شد به يديه، وعبد الله ينظر إليه مستغرباً وهو يقول: «اخسأ يا غلام. ألا تعلم مَن أنا؟».

فلم يجب ولكن الزهراء قالت: «أنا أعرف مَن أنت، ولا يغرنك أنه كان خادماً لك، فقد كان عيناً لي عندك خوفاً من مثل هذا الطيش أن ينال شعرة من مولاي الناصر».

فلم يتمالك الناصر أن صاح من مجلسه في الشرفة قائلاً: «لله درك يا زهراء!».

فعرفت الزهراء صوت الخليفة، وكانت قد وثقت من القبض على عبد الله، فانسلت واختفت، أما عبد الله فإنه سقط في يده وجمد الدم في عروقه ولم يعد ينفعه الندم، فساقه ساهر إلى حيث سجنه وأغلق باب السجن!.

نهض الناصر من مجلسه في الشرفة، ومشى وياسر بين يديه قد عرته الخيبة وبانَ الفشل واليأس في وجهه ولم ينبس بكلمة. وظل الناصر ماشياً حتى دخل غرفته، وقد أعدوا له المائدة فذهب إليها

فأكل وهو لا يتكلم لعظم ما قام في نفسه من هذا الأمر الخطير الذي فوجيء به، فلم يدر كيف يتصرف. وكان على موعد من لقاء سعيد بعد أن أرسله إلى الزهراء بالأمس يستطلع سر اجتماعها بعبد الله، فخطر له أن يستقدمه ليمتحن معرفته ويستشيره في الأمر، فقد أصبح شديد الثقة به.

أما سعيد فكان في غرفته ينتظر رجوع الناصر، فعلم من حركة أهل القصر أنه جاء فلبث ينتظر وصوله. وبعد ساعة أتاه ياسر وقد امتقع لونه من الدهشة والفشل، وقصّ عليه ما كان والأسف يملأ جوانحه لفشل سعيه ضد الزهراء، وكان يحسب سعيداً يشاركه في الأسف أو يشير عليه بشيء، فتظاهر سعيد بمشاركته في ذلك، ولكن الرعب ملأ قلبه مخافة أن يبوح الأمير عبد الله بخبره فيذهب سعيه أدراج الرياح ويصبح في خطر القتل، فأشار على ياسر أن يذهب ويكتم ما دار بينهما، فمضى وبقي سعيد وحده، وأخذ يعمل فكره، وقد غلب عليه القلق والخوف، فرأى ألا بدّ من المبادرة إلى الفرار.

وبينما هو في ذلك إذ جاءه غلام الناصر يدعوه إليه حالاً، فخفق قلبه خوفاً لئلا يكون الناصر قد اطلع على شيء من سرّه، ولكنه تجلد ووضع كتاب التنجيم في جيبه ومشى بقدم ثابتة حتى دخل على الناصر، فرآه في فراشه وقد أخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً، وهو يظهر السكون والتكتم، فوقف سعيد بين يديه متأدباً ينتظر أمره، فأشار إليه أن يجلس فجلس على البساط جاثياً وأطرق، فقال له الناصر: «أظنك استبطأتني؟».

قال: «نعم، وقد كنت أنتظر رجوع مولاي بفارغ الصبر».

قال: «ولماذا؟».

قال: «لأتبرك برؤيته، ولأنقل إليه خبر المهمة التي عهد بها إليَّ».

قال: «أظنك تعني خبر الزهراء وما دار بينها وبين ولدنا عبد الله».

قال: «نعم يا مولاي».

قال: «ما الذي دلك عليه علمك؟».

قال وهو يبتسم: «لم أجد إلا كل ما يحسن بالجارية الأمينة المُحبة».

قال: «هذا لا يكفي. إن كنت تعرف التنجيم فقل ما هو الحديث الذي دار بينهما؟».

فأطرق سعيد وأخذ يقلّب الكتاب بين يديه وينظر إلى الناصر خلسة، والناصر متكىء على جنبه الأيسر وخده على كفه اليسرى وهو يراقب حركات سعيد، فلما رآه يتردد قال له: «ما بالك؟ قل ماذا رأيت؟».

فأظهر سعيد أنه يخشى التصريح، فقال الناصر: «قل كل ما علمته. لا بأس عليك».

قال: «علمت شيئاً لا أجسر على التفوّه به، وأكاد أكذب تنجيمي ولا أصدقه لغرابته».

فضحك الناصر وهو يعتدل في مجلس وقال: «لا تكذب تنجيمك بل كذب ظنك بالناس إن كنت تظن خيراً. ألم تقل لي مرة أن الأذى يأتيني من أقرب الناس إليَّ؟».

قال: «يظهر أن مولاي الخليفة قد اطلع على السر من سواي».

قال: «نعم. قل اذن بصراحة ولا عليك».

قال سعيد وهو يظهر الاهتمام: «أما وقد اطلع مولاي على ذلك الأمر الفظيع فلا أكتمه ما ظهر لي من الأسرار المتعلقة به».

قال: «قل. أرشدني أني مضطرب البال من التعب وليس من الخوف».

قال: «يحق لمولاي أن يعتب على ابنه إذ أراد الغدر به».

فلما رآه كشف السر، عظم في عينيه وعزم على استشارته والعمل برأيه فقال: «قل ما دل عليه علمك ولا تحاذر».

قال: «دلني علمي على أن الزهراء حفظها الله اجتمعت بالأمير عبد الله لتمنعه من إتيان منكر كان يحاول ارتكابه ضد أمير المؤمنين».

قال: «صدقت وما العمل الآن. قل أني عامل برأيك».

فانشرح صدر سعيد لهذا النجاح، وعوّل على قطع السبل المؤدية إليه، فأعاد النظر إلى كتاب التنجيم، ورمى البخور في النار، ثم أطرق يفكر ويقلّب صفحات الكتاب، والناصر ينتظر فراغه من التعزيم والتبخير، ورأى عينيه تحمران وتدمعان وقد تبدلت سحنته. وأخيراً وضع الكتاب من يده وأشار بيديه جميعاً إشارة القبض وقال: «اقبض عليه حالاً. اقبض عليه وعلى رفيقه في منزله. إنه شريكه في جرمه. واقبض على رجل ثالث كان معك الليلة. فإذا قبضت على هؤلاء فبادر إلى إعدامهم. إن بقاء واحد منهم يفضي إلى الفتنة والحازم من اجتث شجرة الشر من جذرها. هذا هو رأيي قلته بصراحة، وقد نفضت يدي مما قد يأتي به الغد، إن لم يعمل أمير المؤمنين برأيي».

وكان الناصر يسمع كلام سعيد ويتفهمه جيداً، وهو ينوي أن يعمل بكل حرف منه بعد أن تحقق صدق تنجيمه وسداد رأيه مراراً.

أما سعيد فلما فرغ من كلامه أظهر أنه تعب وأخذ يرتعش كأنه أصيب بالبرداء فقال له الناصر: «ما بالك يا حكيم؟».

قال: «إني أخاف أن يتأخر مولاي وتأخذه الشفقة فيذهب بالدولة ولا بد من أن يقبض الآن على فقيه الأمير عبد الله الذي يئس من منصب القضاء فنقم على الخليفة، ولا دخل للبر في شيء منه سوى اسمه.. ويقبض أيضاً على رفيق أمير المؤمنين الليلة فإنه شريك في الأمر، وإذا سأل أمير المؤمنين نفسه علم أن هذا الأخير من أكبر الأعداء، مع أنه من أقرب المقربين. ويفعل ذلك سريعاً وسراً فإن لم يفعل فإني أول المائتين».

فحمل الناصر منه هذا التعبير محمل الغيرة الشديدة على الدولة، ولا سيما أن كلامه عن أولئك الثلاثة وافق ما في نفسه فأمر بعض غلمانه أن يقبض على ياسر حيثما كان ويزجه في السجن، وبعث آخرين إلى قصر مروان للقبض على ابن عبد البر وحمله إلى قصر الزهراء.

وظل سعيد جالساً ينتظر أمر الناصر بالانصراف، فلما لم يصرفه تظاهر بأنه يبكي فقال له الناصر: «ما بالك يا حكيم؟».

ففرك عينيه وقال: «لا شيء يا سيدي».

قال: «لا بل أنتَ تبكي لأمر ما».

قال: «أبكي على الأمير عبد الله، فإني كنت أحبه وقد خسرته، ولكن أمير المؤمنين خير منه. ألا يرجو سيدي رجوعه؟».

قال: «وكيف ترى أنت؟».

قال: «لا أرى دواء لهذا الأمر غير السيف، وإذا خفت الحية فاقطع رأسها وإلا فأنت في خطر منها. إني أرى رأي عبد الملك بن

مروان في سعيد بن الأشدق حين سار إليه وصار من أعوانه بعد أن خرج عليه وحاربه، فلم يرَ عبد الملك خيراً من قطع رأس ابن الأشدق وقتله وأمن الفتنة بعده. تلك سياسة بني أمية في الشام منذ عهد معاوية. وكذلك فعل جدك عبد الرحمن الداخل وغيره من رجال الحزم والدهاء ـ إذا خفت جماعة فاقطع رأسهم، وقد ظهر من تنجيمي أن الأمير عبد الله يوشك أن يجعل نفسه رئيس عصابة ولكن..».

قال الناصر: «لعلك تخاف أن يغلب عليَّ الحنو فأستبقي عبد الله؟». كلا ثم كلا. إني قد سمعت تهديده بأذني، وأما عبد البر الضعيف الساقط فلا بد من قتله لأنه من جملة المحرضين، وأما ياسر فقد تعبت من دسائسه، وكأن الزهراء قتلت أباه فلا ينفك يشكو منها أو يعرض بها، وقد تبين اليوم تحامله عليها. سأقتل الثلاثة قبل أن يطلع النهار».

قال: «يعجبني سداد رأي أمير المؤمنين. تلك كانت سياسة الدهاة من أسلافك إذا خافوا رجلاً قتلوه سراً فيأمنون غوغاء الأحزاب».

قال: «اذهب إلى فراشك ونم مطمئناً، وغداً تجد لوحاً على باب القصر كتب عليه ما فعلناه».

فنهض سعيد وهو يقول: «نصر الله مولانا على أعدائه وأيده بروح من عنده، ولا شك عندي أن مبادرته إلى القصاص على هذه الصورة توقع الرعب في قلوب أولئك الأغرار الذين يتعرضون لبطشه، وإذا أمر مولانا أن يكتب على ذلك اللوح: وهذا جزاء الخائنين، وسيناله مَن هذا حذوهم ولا سيما صاحب النقمة..».

قال: «أصبت بورك فيك». وتزحزح إشارة للانصراف، فخرج سعيد وهو ينظر إلى السماء، وقد رفع يديه يدعو للخليفة

بالنصر، وذهب إلى فراشه وهو يخاف أن يرجع عن قتل أولئك الثلاثة قبل أن يبوح أحد منهم بأمره. وأصبح أهل القصر في الصباح التالي فرأوا على بابه الكبير لوحاً قد كُتب عليه ما معناه:

«نفذ حكم الشريعة بالقتل في كل من الأمير عبد الله، ومحمد بن عبد البر الفقيه، وياسر رئيس الخصيان، لخيانتهم وخروجهم على أمير المؤمنين حامي حمى المسلمين ومؤيد الدين وعلى ولي عهده. وهذا جزاء الخائنين. ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب. فليعتبر كل مَن سوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء أن ينبذ الطاعة ويخرج على الجماعة وأولهم ذلك الخائن الملقّب بصاحب النقمة».

ولم يطمئن سعيد حتى قرأ اللوح وتحقق نجاته من الفضيحة.

الفرار...

كان الناصر بعد خروج سعيد من عنده قد أمر بقتل عبد الله ابنه، وابن عبد البر الفقيه، وياسر، دون أن يراهم، وبعد قليل جاءه الجلاد فأخبره بأنه فعل، فأمر بكتابة اللوح ثم تذكر الزهراء وصدق مودتها، وكان الليل قد مضى معظمه، فبعث إليها يستقدمها إليه ليشكرها ويبشرها بأنه قتل الخائنين. وكانت قد نامت فنهضت وأصلحت من شأنها وأتت إليه وهي تستغرب تلك الدعوة المستعجلة. فلما دخلت عليه رأته جالساً على السرير وبين يديه لوح يقرؤه، ثم وضع اللوح جانباً ورحّب بها قائلاً: «مرحباً بالحبيبة المحبة».

فأكبت على يده تقبّلها، فقبّلها وأمرها أن تجلس بجانبه، فجلست مطرقة فقال لها: «قد أسأنا الظن بك وأنت بريئة، فمعذرة».

فقالت: «إني جارية أمير المؤمنين وهو وليّ نعمتي أفديه بروحي ولا فضل لي».

قال: «بل لك الفضل، فإنك أصدق مودة لي من ذلك الابن الخائن. وقد سمعت ما دار بينكما. لله درك من صديقة أمينة وتباً له من خائن مارق!».

قالت: «كيف علم سيدي بوجود ابنه هنا؟».

قال: «دلّني عليه ياسر الخائن حال وصولي، وقد أراد الايقاع بك فأخذني إلى الشرفة ورأيتكما تتحدثان، فلما رأى براءتك من التهمة التي وجهها إليك خجل ولكنه نال جزاءه».

قالت: «أما عبد الله فإني سأعود إلى مخاطبته وأنا على ثقة من ندمه ورجوعه لأن في فطرته شيئاًمن طيب عنصر أبيه، وإنما اغتر بأقوال المفسدين كالفقيه ابن عبد البر وأمثاله، أما هو فإنه طيب القلب وحسن الإسلام كما لا يُخفى على أمير المؤمنين».

وكان الناصر طروباً بحديثها لأنه كان يطرب لكل حركة من حركاتها، فلما أثنت على عبد الله، وذكرت أنها ترجو إصلاحه، أحس أنه تعجل في قتله، وشعر بالندم، لكنه تذكر الخطر الذي كان يهدده لو لم يفعل فبادر الزهراء قائلاً: «أنا لا أرجو صلاحاً ممن يخون أباه وأخاه، وعلى كل حال فقد قُضِيَ الأمر». ورفع اللوح بيده ووجهه نحوها لتقرأه فما أتت على بعضه حتى صاحت: «ويلاه قتلت عبد الله؟». ولطمت وجهها ونظرت إلى عيني الناصر وتفرست فيهما فرأت الشرر يكاد يتطاير منهما، فأعادت قراءة اللوح حتى بلغت إلى اسم صاحب النقمة فاقشعر بدنها لأنها تذكرت أخاها، وتذكرت أنه سيُقتل مثل تلك القتلة، فغلب عليها البكاء للسببين معاً فظنها الناصر تبكي على عبد الله فقال: «ما بالكِ تبكين؟».

فقالت: «أبكي على شباب عبد الله».

قال بلحن الغضب: «أتبكين على الخائن، وأنتِ أعلم الناس بخيانته؟».

قالت: «أليسَ هو بضعة من أمير المؤمنين؟ وكيف لا أبكيه وقد كنت بسبيل إرجاعه عن خطئه؟».

قال: «أنت أمرت بالقبض عليه بعد أن يئست من إصلاحه».

قالت: «قبضت عليه إرهاباً، ولم يكن عندي ريب في ندمه، ولكن ويلاه! هل قُتل عبد الله حقاً؟».

قال: «نعم قُتل، وكذلك سيُقتل أمثاله الخائنون.. وبعد أن قتلت ابني لهذه الخيانة، لن يلوموا إلا أنفسهم إذا وقعوا في يدي، فإني قاتلهم جميعاً، والقتل أنفى للقتل».

فتذكرت أخاها وما يكون من أمره إذا وقع في قبضة الناصر، فأحبت أن تستطلع رأي الخليفة في العفو عن أمثاله فقالت: «وإذا رجعوا تائبين؟».

قال: «أأقتل ابني وأعفو عن سواه.. لا يقع في يدي واحد من الخائنين إلا قتلته أياً كان!».

فوقع قوله في نفسها وقعاً شديداً، وكانت تعرف شدة الناصر وبطشه، وزادها خوفاً ذكر اسم أخيها، فرأت تأجيل طلب العفو إلى فرصة أخرى، ولا سيما أنها لا تعلم هل يرضى أخوها بطلب العفو، أم لا؟ فينبغي أن تلقاه أولاً لتقنعه، ثم تتوسط له لدى الناصر، لعله يعفو عنه.

وبعد قليل أذن الخليفة في انصرافها، وبعث اللوح لتعليقه بالباب، وتوسد يطلب الرقاد، فتذكر ما دار بينه وبين الزهراء،

فتصور له ابنه عبد الله عند آخر نظرة، فغلب عليه الحنو وأخذ الندم يتسرّب اعتقاده شيئاً فشيئاً، فيغالبه وينتحل الأسباب التي تسوغ السرعة في القصاص تخلصاً من الفتنة، لكنه مع ذلك غلب عليه الأرق وتولاه القلق فلم يغمض له جفن وظل يتقلب كأنه على الشوك.

ولما طلع النهار أحس بضعف وانقباض، فاستدعى طبيبه سليمان بن تاج فأتاه مسرعاً فشكا إليه حاله، وكان سليمان قد قرأ اللوح المعلق بالباب فعلم سبب ذلك الانحراف، فوصف له بعض المنعشات أو المبردات في اصطلاحهم وقال: «لا يُخفى على أمير المؤمنين سبب هذا الانحراف، والعلة تزال بضدها فيستحسن أن يلهو سيدي بما يشغله عن التفكير».

قال: «وكيف ذلك؟».

قال: «تأمر جارية مغنية فتسمعك ألحاناً مفرحة. فإن من الألحان ما يبعث على الحزن ومنها ما يبعث على الفرح. وعرفت فيلسوفاً من أبناء مهنتنا اخترع ألحاناً تضحك وأخرى تبكي. وألحاناً تفرح أو تغضب، لغير سبب موجب للضحك أو البكاء أو الفرح أو الغضب. وإنما يجري ذلك من وقع الألحان على النفس. وأظن ذلك الفيلسوف قد مات الآن ولا أعلم هل علم أحداً هذه الألحان أم لا».

فتذكر الناصر أن عابدة تحسنها فقال: «إن جاريتنا عابدة تعلمت هذه الألحان من معلمها سعيد الوراق».

فقال ابن تاج: «إن سعيداً هذا من عجائب الدنيا لا يوجد شيء من العلوم لا يعرفه حتى الموسيقى، فإذا شاء مولاي أمر جاريته عابدة أن تجالسه فتسقيه هذه المرطبات وتغنيه فإني أرجو شفاءه عاجلاً».

استحسن الناصر رأي الطبيب، وأشار إليه أن يمضي لتحضير

العلاج، وإرساله، وبعث بعض الغلمان إلى سعيد فأتى، فقص عليه ما أشار به الطبيب، فأظهر موافقته على ذلك العلاج، واستأذن في الذهاب للمجيء بعابدة وقلبه يكاد يطير من الفرح لسنوح الفرصة ليتم غرضه.

وكانت عابدة في غرفتها، وعندها بعض الجواري يتحدثن بما هو منشور على ذلك اللوح، ويستغربن وقوعه، فلما رأت سعيداً قادماً أسرعت إليه وقد زادت ضربات قلبها وعلت الحمرة وجنتيها وأبرقت أسرّتها فمشى هو أمامها إلى غرفته، فلما دخلت سلّمت عليه فهش لها واستدناها فأجلسها بجانبه ولاطفها ووضع ذراعه على كتفيها كأنه يضمها تحبباً، فأحست بقشعريرة لم تشعر بمثلها من قبل. فزاد تورد وجنتيها ولمعت عيناها وأطرقت خجلاً وقلبها يخفق فرحاً وهياماً فقال لها: «لقد آن الأوان ودنت الساعة، وإنما تتوقف سعادتك عليك».

قالت: «تتوقف السعادة عليَّ؟ عليَّ أنا؟ إني رهينة ما تريد في سبيل هذه السعادة». قالت ذلك بلهجة المحب المتفاني.

قال: «نعم عليك؟ أين الورقتان اللتان استودعتك إياهما؟ هل احتفظت بهما؟».

فنظرت إليه نظر العاتب وهي تبتسم وقالت: «كيف لا أحتفظ بوديعتك؟ بل كيف أقدر أن أخالف لك أمراً؟». ومدت يدها إلى جيبها وأخرجت الورقتين في صرة ودفعتهما إليه.

فتناول الصرة وقال: «أتعلمين ما بهذه الصرة؟».

قالت: «ورقتان».

قال: «وما فيهما؟».

قالت: «أحسب فيهما سماً. فهل هذا صحيح؟».

قال: «الصحيح لا أقوله لك الآن». وحدق في عينيها فحولت بصرها عنه، وأحست كأن سهماً اخترق أحشاءها أو مجرى كهربياً تسرّب في عروقها فأطرقت وهي تنتفض.

فأتم سعيد كلامه قائلاً: «إن في هذه الأوراق مخدراً ينام صاحبه نوماً طويلاً».

فقالت: «نعم».

قال: «فهمت؟ إن في هذه الأوراق منوّماً لا يقظة بعده!».

فرفعت بصرها إلى وجهه ولم تجرؤ أن تنظر في عينيه وقالت: «لم أفهم مرادك يا سيدي».

قال: «ألا تذكرين أني سألتك يوماً ونحن في الأرباض إذا كنت تتحملين خطر القتل من أجل الحب».

قالت: «نعم، وأذكر أني قبلت أن أتحمل كل خطر. وأنا الآن أعترف بذلك وأفتخر به».

قال: «اعلمي أن الخليفة يشكو من أرق وانقباض، فوصف له الطبيب مَن يسامره أو ينادمه بالغناء بألحان مطربة، وذكر الألحان التي استنبطها الفارابي للضحك والطرب، والخليفة يعرف أنك تحسنين هذه الألحان، فطلب إليَّ أن أدعوك إليه وأفهمك ما يلزم، فها أنذا قلت لك». وسكت.

فظلت ساكتة تنتظر تتمة الحديث فرأته شغل عنها بحك عثنونه فقالت: «ما علاقة هذا بالخطر؟».

فنهض وقال: «لا علاقة بينهما، صدقت.. دعي هذه الأوراق معي وقومي لمنادمة الخليفة فإني أخاف أن يستولي عليك

الضعف».

قالت: «لا تخف من شيء فإن أمرك يبث في قوة وشجاعة».

وكان سعيد على يقين من أن أمره نافذ عندها على الرغم منها، وقد اختبر ذلك مراراً، فإذا أمرها وشدد أمره ونظر في عينيها وهي تنظر في عينيه استهواها فتعمل ما تؤمر به، وهو ما يعبّر عنه علماء اليوم بالتنويم المغناطيسي. ولم يكن تعليله معروفاً في ذلك العصر، أو ربما عبروا عنه بالسحر. فلما قالت له ذلك أمسك يدها بين يديه وحدق في عينيها وأمرها أن تنظر في عينيه ففعلت فدفع إليها الورقتين وقال لها: «إني آمرك أن تسقي ما في هذه الورقة للخليفة الناصر في هذا اليوم».

فارتعشت وغلبت على أمرها وقالت: «سأفعل ذلك يا سيدي».

قال: «اسمعي يا عابدة، ضعي هذه الورقة في جيبك واذهبي الآن إلى الخليفة وهو في غرفته على فراشه ومعك القانون والعود وغنيه واطربيه واسقيه من الشراب الذي وصفه الطبيب. فهمت؟».

قالت وهي تحدق في عينيه ويدها ترتعش بين يديه: «نعم».

قال: «فإذا سمعت أذان الفجر فاعمدي إلى هذه الورقة وصبّي ما فيها في كأس الشراب وقدميها للخليفة. وبعد أن يتناولها ببضع دقائق يغلب عليه النوم ويبقى نائماً إلى الأبد».

قالت: «نعم. وماذا أفعل بعد ذلك؟».

قال وهو يخرج الورقة الأخرى: «وبعد ذلك تأتين إلى هذه الغرفة، فإذا لم تجديني فيها فإنك تجدين قدحاً فيه ماء فذنوبي فيه ما في هذه الورقة واشربيه فتنامين ريثما آتيك وقد أعددت كل ما يلزم للفرار

إلى محلنا حيث نكون قد قمنا بما علينا، وقد دبرت كل شيء».

فتناولت الورقتين وخبأتهما في جيبها ولم يبد عليها اضطراب أو خوف لكنها قالت: «هذا آخر سعينا في سبيل السعادة».

ثم نهضت وتناولت العود وسارت إلى غرفة الخليفة وأخذت تغنيه وتسقيه كما أوصاها الطبيب.

أما سعيد فمكث بعد ذهابها صامتاً يفكر في خطر الأمر، وكيف أنها طاوعته بلا تردد، فلم يبق عليه إلا أن يفر بالزهراء. وقد أراد أن يقتل الناصر مخافة أن يبعث في طلبه بعد فراره بأحب جواريه إليه، وأن يقتل عابدة ليبقى أمره مكتوماً.

ذهب سعيد إلى الزهراء في غرفتها، فقابله جوهر فسأله عنها فقال: «إنها ما فتئت منذ علمت بمقتل الأمير عبد الله ورفيقيه منقبضة النفس لا تكلم أحداً». فعلم سعيد أنها قلقة على أخيها لما قرأت اسمه على اللوح فقال: «استأذن لي عليها». فأجاب مطيعاً. وجوهر هذا من رجال سعيد، أدخله بلاط الناصر جاسوساً فهو يستهلك في خدمته ويحتفظ بسرّه.

عاد جوهر وأشار إلى سعيد أن يدخل فدخل يمشي الهوينى كأنه يفكر في شيء شغل خاطره فوجد الزهراء جالسة على وسادة وقد أسندت خدها بكفها واستغرقت في التفكير، فلما شعرت بدخوله رفعت رأسها إليه فتفرست فيه لحظة ثم عادت إلى الإطراق.

فتقدم نحوها وقال: «هل رأيت صدقي". فلم تجبه.

فقال: «تكلمي يا حسناء. هل علمت أني قلت لك الصدق عن أخيك ومحضتك النصح في كيفية إنقاذه؟».

فرفعت بصرها إليه وقد تلألأ الدمع في عينيها وبدت ملامح

العتب والأسف في محياها، وقالت: «آه ليتك لم تقل شيئاً، ولو بقيت جاهلة أمر أخي لكان خيراً لي من أن أرتكب في سبيل إنقاذه خيانة سيدي وولي نعمتي».

قال: «أراكِ تزدادين حباً له؟».

قالت: «كيف لا، ولم أر منه إلا الخير، بل لم أسمع منه كلمة ساءتني. وقد رفع منزلتي وقدمني على سائر نسائه، وبنى هذه القصور حباً لي!».

وسكتت كأنها همّت بأن تقول شيئاً وأمسكت نفسها حياء.

ولم يفته أنها كانت تشير إلى محبته غير الخالصة، فقال: «تعيرينني بمحبة الناصر يا حسناء؟. لماذا لا يحبك وأنت تتفانين في خدمته؟ وأما القصور فقد بناها لنفسه وحاشيته. أما المحب الصادق فهو الذي يرى نفورك ويأبى السعادة بعيداً عنك، ويرفض الملك ويحترف التنجيم للوصول إليك، يعرض حياته للخطر من أجل حبك. هذه هي المحبة الخالصة وهذا هو المحب الصادق. دعينا من هذا الآن وقولي: أعازمة أنتِ على إنقاذ أخيك أم لا؟ وقد رأيت اليوم بنفسك مقدار غضب الناصر عليه؟».

فأجفلت وقالت بلحن الانكسار والذل: «نعم عرفت».

قال: «إذا كانت نجاته لا تهمك فذلك أمر آخر».

قالت: «أنت تعلم أن نجاته تهمني كثيراً، ولكن الطريق وعر».

قال: «لا بد دون الشهد من إبر النحل. ومع ذلك فإني لا أرى مشقة عليك في الخروج من هذا القصر ليلة واحدة ثم تعودين في الصباح وأخوك معك، وتستعطفين الناصر عليه ثم تستقدمينه كما

تشائين. إذا كنت عازمة على الخروج معي فقولي وإلا فأنا ذاهب». قال ذلك وأظهر أنه يريد الخروج فابتدرته قائلة: «وتهددني أيضاً؟ أهكذا تكون الأريحية؟ ألأني في حاجة إلى خدمتك تنتهرني؟». واغرورقت عيناها بالدموع.

فجثا بين يديها وتظاهر بالتأثر من قولها وقال: «حاش لله أن أهددك فإني إنما ألتمس رضاك وأبذل حياتي في سبيل حبك. أنت صاحبة الأمر، قولي. قولي وأنا فاعل ما تريدين، حتى الموت أنا مستعد لاستقباله من أجلك!. آه لو كان لك قلب مثل قلبي فتدركين مقدار حبي لك! ولكنك قاسية القلب، وطالما وصفتك بهذا الوصف!».

فتنهدت تنهداً عميقاً وقالت: «سامحك الله على هذه التهمة، إني إذا أحببت مضيت في الحب إلى حد التلف. ولك من حديثي بالأمس عن قتيل النهار أحسن مثال؟».

فقطع حديثها قائلاً: «يظهر أنك لم تبغضي أحداً سواي؟».

قالت: «أعترف لك يا سيدي أني لم أحبك، ولكن إذا صدقت الخدمة في إنقاذ أخي فإني أحبك ولو من قبيل الامتنان».

فنظر إليها شزراً وقال: «أأقول أني ميت في حبك وقد ركبت كل مركب خشن في سبيلك وأنت تشترطين في حبي ألف شرط؟ آه قد أحوجتني أن أبوح لك بذنب ارتكبته في هذا النهار من أجل حبك».

قالت: «وما هو؟».

قال: «أنت تعلمين حبي للأمير عبد الله، وقد كنت عنده معززاً مكرّماً، ولكنني أعلم أنه عارف بمقر أخيك فخفت إذا

استنطقه الخليفة أن يدله عليه فيقتله. فأشرت على الناصر أن يبادر إلى قتل عبد الله وقتل رفيقيه؟ بلا سؤال. وقد فعل.. ألا تعدين ذلك فضلاً لي؟».

فانطلت حيلته عليها وصدقته وقالت: «صدقت».

قال: «وتقولين أنك ربما تحبينني إذا أنقذت أخاك؟».

قالت: «أتريد أن أخدعك؟ هذا ما أشعر به، وسنرى».

قال: «لا أفعل شيئاً لا يرضيك، وسترين. وأنا راضٍ بتأجيل الحب حتى تظهر خدمتي. فقولي الآن هل تذهبين؟».

قالت: «إلى أين؟ ومتى؟».

قال: «تذهبين معي الليلة إلى أرباض قرطبة حيث تلاقين أخاك كما قلت لك».

فرفعت نظرها إليه وقالت: «كيف أذهب؟».

فحدق في عينيها تحديقاً شديداً وقال: «تذهبين متنكرة على بغلة بثياب صاحب البريد ومعك جوهر الخادم، وأنا ألاقيك خارج هذا القصر، ونذهب معاً، وسترين أني صديق صادق. قولي نعم.. قولي لا تخافي فما فاز باللذات غير الجسور».

فأحست بضعف إرادتها فنهضت وهي تتنهد وكأنها تتأهب للخروج وقالت: «متى أخرج؟».

قال: «اخرجي بعد الغروب وفي ركابك جوهر».

قالت: «وبعدئذٍ؟».

قال: «وبعد ذلك أخرج أنا من باب آخر ونلتقي معاً خارج هذه القصور في الطريق المؤدي إلى قرطبة ثم نذهب معاً إلى أخيك».

قالت: «أواثق أني أجده هناك؟».

قال: «نعم».

قالت: «هذا آخر اجتماع لنا هنا؟».

قال: «لا حاجة إلى الاجتماع بعده، فقد تم الاتفاق بيننا. اخرجي أنتِ مع جوهر. ألا تثقين بأمانته؟».

قالت: «أثق به كل الثقة».

قال: «فأخبريه بعزمك على الخروج الليلة لمشاهدة أمر يهمك، وإنك لا تريدين أن يعلم أهل القصر بخروجك، وقولي أنك ستتنكرين بثوب صاحب البريد فإن صاحب البريد لا يسأل عن خروجه ودخوله خصوصاً إذا كان معه غلمان الزهراء، ودعيه يهيىء لك الثياب والبغلة».

فوقفت هنيهة وهي مطرقة تعمل فكرها كأنها تتردد، فخاف أن تعدل عن عزمها فقال: «إذا كنت تخافين الخروج فما أنت أهلٌ للحصول على أخيك».

فلما ذكر أخاها عادت إليها جرأتها وقالت: «نعم أذهب. وسنلتقي بعد العشاء في الموقف الثاني في الطريق بين الزهراء وقرطبة».

فقال: «بارك الله فيكِ، فإلى اللقاء». وخرج.

وكان حراس باب القصر جلوساً في المساء يتحدثون بما علموه من مقتل الأمير عبد الله وابن عبد البر وياسر ويستغربون وقوعه. وقد جاءتهم الأوامر مشددة بالانتباه إلى مَن يدخل القصر أو يخرج منه. وبينما هم في ذلك إذ سمعوا قعقعة لجام البريد ثم رأوا البغلة وعليها راكب بثياب صاحب البريد وقد تلثم. وإلى جانبه جوهر على

بغلة، فهمّ الحراس بأن يعترضوهما، فقال لهم جوهر: «هذا بريد مولاتنا الزهراء». فأفسحوا لهما حتى خرجا.

فلما صارت الزهراء خارج القصر منفردة استوحشت والتفتت إلى ما حولها فإذا هي وحدها في صحراء رملية، وكلما بعدت غمرها الظلام لأن أنوار تلك القصور كانت تؤنسها، حتى إذا وصلت إلى الموقف المعهود وقفت وأدار جوهر بغلته نحوها وسألها ما تريد.

فقالت: «إلى أين نحن ذاهبون؟ ما هذا؟ كيف خرجت من قصري وأنا فيه ملكة متسلطة حتى على الخليفة؟!».

فقطع جوهر كلامها قائلاً: «لا تزالين يا سيدتي صاحبة السيادة، وغداً تعودين إلى قصرك ومعك أخوك فلا نعود نشاهدك منقبضة عابسة».

وكان جوهر ظريفاً تستخف ظله فأعجبها تعبيره فقالت: «هل ألاقي أخي؟ يا حبذا ذلك».

قال: «لا بد من لقائه. وإلا فلماذا خرجت؟».

وهّمت بالجواب وعيناها شاخصتان إلى منتهى الطريق تنتظر مجيء سعيد، وبغلتها تتحرك تحتها، فشغلها شبح ظهر عن بعد من ناحية القصر فأسرع جوهر ببغلته لملاقاته. ثم عاد مسرعاً وبشّر الزهراء بأنه سعيد، فلم تدر أتفرح أم تحزن لأنها كانت لا تحبه، ولكنها لا ترى بداً منه أملاً في لقاء أخيها، فظلت صامتة حتى وصل سعيد إليها فحياها وقال لها: «أمسرورة أنتِ يا سيدتي؟». فأشارت برأسها: أن نعم.

فأومأ إليها أن تسوق بغلتها بجانبه. وكانت قد تعودت الركوب لأن الناصر كثيراً ما كان يصطحبها في خروجه للصيد أو

التنزه، وركوب البغال سهل.

وساروا وهم لا يتكلمون حتى أطلوا على الجسر المؤدي من قرطبة إلى أرباضها فوق الوادي الكبير فسمعوا دوي الطواحين، وكانت الزهراء لم تسمعها من عهد بعيد لأنها لم تمر بذلك الجسر من عدة أعوام. ثم قطعوا الجسر وقد مضى هزيع من الليل فأشرفوا على الأرباض وهم سكوت. وكانت الزهراء كلما بعدت عن القصر خطوة اقتربت من الندم خطوتين، فلما دخلت الأرباض ورأت ما هنالك من المنازل الحقيرة عاودها انقباضها وقالت: «إلى أين نحن ذاهبون؟».

فقال سعيد: «إلى سالم».

قالت: "أرى سفرنا قد طال كثيراً".

قال: «لم يبق إلا القليل».

وظلوا سائرين حتى تجاوزوا الأرباض فتصورت أن سعيداً يخدعها، فأوقفت بغلتها وقالت: «أرانا خرجنا من حدود قرطبة».

قال: «نحن على مقربة من المكان. لا تخافي». وبعد قليل أطلوا على الوادي الكبير ثانية، ثم ساروا على الشاطىء حتى وصلوا إلى بيت منفرد، فترجل سعيد وترجل جوهر وأعان الزهراء على النزول، فنزلت وقد أخذت قواها تضعف من الخوف، وكادت تعتقد أنها وقعت في الفخ، ولكنها تجلدت وأطاعت سعيداً، والتفتت إلى ما حولها فإذا هي في بساتين قليلة العمارة. وقد ساد السكون في ذلك الليل فلم يكن يسمع فيه غير خرير ماء الوادي. ثم ما لبثت أن رأت كلباً كبيراً خرج من ذلك البيت وأخذ يحوم حول سعيد ويقفز عليه - وهذا سلام المعرفة عند الكلاب - فعلمت الزهراء من ذلك أنهم وصلوا إلى المكان المقصود، وصارت تتوقع أن ترى أخاها أو أحداً

يأخذها إليه.

وتناول جوهر إرسان البغال وأخذ في شدها إلى بعض جذوع الشجر هناك، وأشار سعيد إلى الزهراء بأن تمشي معه فمشت وهي تحاذر أن يمسها ذلك الكلب بسوء، وقلبها يخفق حذراً من الخديعة. أما سعيد فكان يلاطفها حتى دنت من البيت فتناول من جيبه مفتاحاً فتح به الباب ودخل والظلام حالك، فتراجعت وقالت: «لا أدخل في الظلام». فأشار إليها أن تجلس فقالت: «أين أخي؟».

قال: «هو ليس هنا وإنما أردت أن تستريحي هنيهة».

فأجفلت وقالت: «أستريح؟ كنت أفضّل أن نظل سائرين حتى نصل إليه فقد مضى معظم الليل وسيدركنا النهار، وينبغي أن نكون في القصر صباح الغد».

فضحك وقال: «لا بأس سنكون هناك كما تريدين». قال ذلك وخرج.

فالتفتت حولها فلم تزدد إلا وحشة، وأخذت تفكر فيما أتته من الطيش بتسرعها، ولكنها شعرت بأنها لم تكن مخيرة، وأرادت أن تصيح وتستغيث فخافت العاقبة، فرجعت إلى رشدها وأخذت تتجلد وتفكر، فحدثتها نفسها أن تستغيث بجوهر لعله ينقذها، فنهضت ومشت إلى الباب فرأت سعيداً واقفاً إلى جانبه يكلمه ثم أشار إليه فأسرع نحو الشاطىء وعاد سعيد إلى البيت والكلب يقفز حوله.

فرجعت الزهراء إلى مقعدها ورأت نفسها وحيدة هناك وقد أصبحت في قبضة سعيد، فأخذ قلبها يخفق مسرعاً وجاشَ الحزن في صدرها وأحست بالحاجة إلى البكاء، ولم تستطع أن تحبس دمعها فبكت. ثم دخل سعيد فلما رآها تبكي ضحك وقال: «ما بالك تبكين؟».

قالت: «أخاف أن تكون خدعتني».

قال: «كيف أخدعك أو أريد بك سوءاً وأنا إنما أريد سعادتك، وقد تركت الدنيا كلها من أجل لقائك؟».

قالت: «أين نحن الآن؟ أين أخي؟ بالله أرني إياه، ولا أبالي بعد ذلك ما يصيبني».

قال: «تمهلي، إنك سترينه وستكونين في أوج السعادة».

وبينما هما في ذلك إذ سمعا صفيراً فأجفلت الزهراء وجعلت تتلفت وهي مذعورة.

فقال لها سعيد: «لا تخافي».

فقالت: «وما ذاك؟».

قال: «هذا ربان السفينة ينبئنا بوصولها».

قالت: «وأي سفينة».

قال: «سفينة لنا في هذا النهر ستنقلنا إلى المكان الذي فيه أخوك وهو ليس بعيداً».

فقالت: «ويلاه! إلى أين تذهب بي يا سليمان؟ ألم تعدني بالذهاب إلى أخي؟».

قال: «نحن ذاهبون إليه في الماء وذلك أهوَن من السفر براً».

فقالت: «بالله دعني. ارجعني إلى القصر، قد أستغنيت عن رؤية أخي أو غيره.. ويلاه! ما هذا! أين أنا؟». قالت ذلك وأطلقت لنفسها عنان البكاء. فتقدم سعيد إليها وأمسكها بيدها وقال: «لا تظني سوءاً يا حسناء، نحن ذاهبون إلى أخيك.. تعالي إلى السفينة فإنها ستحملنا إلى منزل تجدين فيه أخاك فتتحققين صدق قولي».

فجذبت يدها من يده وتراجعت، ثم فكّرت فرأت نفسها منفردة هناك وندمت ندماً شديداً على مجيئها، ولكنها لم تقطع الأمل من لقاء أخيها، فتجلدت وأطاعت سعيداً في الخروج إلى السفينة، فرأت الشراع منصوباً فدعاها للنزول، ولم تجد في السفينة أحداً من النوتية، وما لبثت أن رأت السفينة تخترق عباب الماء وليس فيها أحد غيرها وسعيد وجوهر.

فشل سعيد

فلنتركهم يخوضون الماء ونرجع إلى عابدة عند الناصر حيث تركناها تسقيه المرطبات وتغنيه وتنادمه. وقد قضت النهار عنده وهو يتلهى بالحديث والشراب. فلما اقترب العشاء كان الشراب والغناء والخلوة قد هاجت عنده ذكرى ابنه عبد الله، فبدا له ما كان من تسرعه في قتله، وكيف أن الزهراء قالت: «إنها قد تستطيع رده إلى رشده فيبقى عليه». فأحس بشوق لرؤيتها ومحادثتها، فبعث في طلبها فلم يجدها في خدرها فألح في البحث عنها، فلم يقف أحد لها على خبر. فثارت ثورة غضبه وأمر برفع المائدة، وصرف عابدة وخلا إلى نفسه، وراح يفكر فيما فعله، ويتساءل: هل أخطأ بقتل ابنه؟ وهل كان يقدر أن يستبقيه. فقضى ليلة تنتابه الهواجس ولا يجسر أحد على مخاطبته.

وقد كان إخراج عابدة من حضرة الخليفة صدمة قوية للغرض الذي كانت تهيىء نفسها له، وسارت تواً إلى غرفة سعيد فلم تجده، ولحظت من حال الغرفة أنه خرج منها خروج المسافر، ومكثت على ذلك وهي تصبّر نفسها لعله يأتي، فمضى هزيع من الليل ولم يأت فخرجت تلتمسه عند الزهراء فودت مربّيتها، وكانت قد تعرفت إليها، فسألتها هل رأت سعيداً فقالت: «لا هو ولا الزهراء».

فأجفلت عابدة، ودلها قلبها على مكيدة فقالت: «وكيف اتفق خروجهما معاً؟».

فهزت الوصيفة كتفيها كأنها تتنصل من تبعة ما خطر ببالها، فأدركت عابدة أن الوصيفة تشك في أمرهما، ثم شاع في القصر كله خبر غياب الزهراء، ولم تبق وصيفة ولا وصيف ولا خادم ولا خادمة إلا علموا به، وذهب تمام رئيس الخصيان للبحث عنها في جميع القصور فلم يقف لها على خبر.

وعادت عابدة إلى غرفة سعيد لتعيد النظر وتتفرس في الأشياء فلم تزدد إلا اعتقاداً بفراره، فانقبضت نفسها وتولاها اليأس، فجلست على مقعد هناك وقد انحلت عزائمها واسترخت كأنها أصيبت بغيبوبة، واستغرقت في الهواجس وأخذت تراجع تاريخ حياتها مع سعيد، وكيف كانت متيّمة به وهو يعدها بالزواج، وجعل موعده يوم فوز العبيديين على الأمويين، واستعان بها في كثير من الأحوال على نيل أغراضه، وآخرها دخولها قصر الزهراء، وحملها على دس السم للخليفة على أن تكون هذه المهمة آخر العقبات في سبيل نيل مرامها، ثم ها هو ذا يفر من القصر بالزهراء. ولما تصورت فراره بها أجفلت وجلست على المقعد والظلام حالك فغلب عليها الانقباض فاستسلمت للبكاء.

وفيما هي مستغرقة في البكاء. سمعت الأذان، وعلمت أنه أذان الفجر فتذكرت وصية سعيد أن تسقي الخليفة العقار وتشربه في تلك الساعة فغلبت عليها الطاعة للاستهواء، فنهضت وأخرجت الورقة من جيبها وعمدت إلى الكأس وفيها الماء وصبت العقار فوقه وأخذت تتأمله وتقول: «هل الموت مختبىء في هذا الماء؟ الموت ولا هذا العذاب. ولكن لا. لا. ربما صدق سعيد فيأتيني بعد قليل.

لكن كيف يأتي وقد فرّ بالزهراء؟ لا. لا أظنه يفعل، بل هو يشفق على قلبي لأنه يعلم مقدار حبي له».

ثم وضعت الكأس من يدها وأسندت رأسها إلى الحائط فغلب عليها النعاس من فرط التعب، فتوالت عليها الأحلام المزعجة، ولم تستيقظ إلا بعد ساعات. فنهضت مذعورة ورأت الكأس لا تزال كما هي فتناولتها وكان الاستهواء قد ذهب تأثيره فانتبهت لنفسها وقالت: «أين ذهب سعيد؟ هل يعود ويشفق على قلبي؟ سامحه الله ما أقسى قلبه! وإذا لم يرجع فهل أبقى حية. تباً للحياة بعده. الأفضل أن أموت... إن الموت في هذه الكأس».

ورفعت الكأس وتأملتها وهمّت بأن تضعها على شفتيها، فإذا بيد قبضت على ذراعها، فوقعت الكأس إلى الأرض وانسكب ما فيها فأجفلت والتفتت فرأت ساهراً ينظر إليها بوجه عبوس ويقول لها: «أين معلمك؟ أين سعيد الوراق الخائن؟».

قالت: «لا أعلم.. وإني أبحث عنه!».

قال: «قبّحه الله من خائن! قد وشى بالأمير عبد الله والفقيه وعجّل قتلهما، وهو سبب خروجهما على الخليفة، وأنت معه لأنك رفيقته».

فقالت: «أنا؟ أنا المسكينة الذليلة؟ إنه خانني قبل كل إنسان!». وأطلقت لنفسها عنان البكاء، فرقّ ساهر لها وقال: «أخانك أنتِ أيضاً؟».

قالت: «لقد عذبني أعواماً وهو يعدني بالزواج فأطعته حتى هذه الساعة فإذا به قد فرّ.. ألم يفر؟».

قال: «يظهر أنه فرّ والزهراء معه، وقد علم الخليفة بذلك

وبعث يأمرني أن أبحث عنه، فلما وجدتك هممت بالقبض عليك لأنك رفيقته».

قالت: «ويلاه من ذلك الظالم الخائن! آه ليتني أراه فأقتله بيدي قد كنت لهذه الليلة أتعشقه وأتفانى في حبه، أما الآن بعد أن تحققت خيانته فليس في الدنيا أبغض إليّ منه، ولو تأتي لي أن أمتص دمه لفعلت!». قالت ذلك وهي ترتعد من شدة التأثير وتصرّ بأسنانها.

ومن نواميس الحب أنه يزداد بالتبادل أو بالأمل، فالمحب يزداد تعلقاً بحبيبه إذا تحقق أنه يحبه أو استدل من تصرفه على أنه سيحبه فيحيا الأمل. فإذا علم بعد ذلك أن أمله في غير محله. وإن ذلك الحبيب كان يخادعه، أصابته صدمة الفشل فانقلب حبه بغضاً واشتد بغضه بنسبة ذلك الحب. وهذا ما أصاب عابدة لما تحققت خيانة سعيد لها، فإنها نقمت عليه نقمة لا تُقاس بها نقمة أعدى الأعداء.

فقال لها ساهر: «لا شك أنك تعرفين منزله ومخبآته في قرطبة وأرباضها».

قالت: «نعم أعرف كثيراً من أحواله. وحرقت الأرم غيظاً.

قال: «اتبعيني». ومشى نحو غرفة الخليفة، فلقي تماماً رئيس الخصيان وقال له: «إن هذه الجارية تعرف كثيراً من مخبآت ذلك الخائن لأنها كانت معه، وقد خدعها وخانها وكاد يقتلها، فهي تدلنا عليه إذا أمر الخليفة بشرذمة من الجند ترافقنا، فنذهب الآن للبحث عنه».

فدخل تمام على الناصر وقصّ عليه ما قاله ساهر، فأمر أن يرسلوا معه شرذمة من الفرسان الأشداء ومعهم عابدة ترشدهم إلى المكان، فهيأوا الأفراس وأتوا عابدة بجواد ركبته، وركب ساهر جواداً بجانبها وقد أعجبه ما ظهر من أدبها، وكان حسن السريرة مخلص الطوية شديد الحب مع أنه خصي لا يرجو من وراء الحب غير

تعب القلب، ولكنه كان قد أحب الزهراء إلى درجة العشق، ومكتفياً من حبها بأن تبتسم له وتظهر رضاها عن عمله، فخدمها في التجسس على عبد الله خدمة حسنة، ولذلك كان من أكثر الناس غضباً على سعيد لفراره بها.

وكان سعيد على ظهر السفينة ومعه الزهراء وقد تولاها الخوف وأوشكت أن تيأس من النجاة، لكنها صبرت لترى عاقبة الصبر. فجرت السفينة بهم ساعة والريح خفيفة وسعيد يحاول استرضاء الزهراء وهي لا تزداد إلا اضطراباً، تنتقل في السفينة من جانب إلى جانب تتطلع إلى الشاطىء، والظلام يحجب الشاطئين عنها لولا ما تراه من بصيص الأنوار في بعض الأماكن.

وكان جوهر في أثناء ذلك متشاغلاً لا يتكلم. فرأت سعيداً يغافل جوهراً ويدور من ورائه، وبيده كيس معلق بحبل قد حمله ومشى الهوينى، وجوهر في غفلة مشتغل بربط حبل الشراع إلى السارية وقد وقف على حافة السفينة والظلام حالك. فاستغربت الزهراء ذلك التلصص ولم تفقه له معنى. على أنها لم تلبث قليلاً حتى رأت سعيداً وثب على جوهر فجعل ذلك الحبل حول عنقه ورفسه برجله فسقط في الماء إلى قاع النهر، فصاحت الزهراء: «ويلك ماذا فعلت؟». ووقفت وركبتاها ترتجفان، وهي تنظر إلى الماء تتوقع أن يعوم جوهر فلم يعم لأن في الكيس حجراً هبط به إلى القاع. فصاحت: «ما هذا؟». فتجاهل سعيد فزعها ثم قال: «لعلّ جوهر وقع في الماء».

فقالت: «تقول ذلك وأنت الذي أغرقته؟».

قال: «ما لنا وله، دعينا وحدنا».

فأيقنت عند ذلك وقوع الخطر فصاحت فيه: «ويلك يا

خائن!. كيف قتلت الرجل وهو خادمك الأمين؟ ما أسهل القتل عليك!».

وكان سعيد قد قبض على الدفة وجعل يديرها نحو الشاطىء فلم يجبها حتى رست السفينة فنهض إليها وأمسك بيدها وقال: «اطلعي إلى البر».

فتراجعت وقالت: «إلى أين؟ لا. لا أطلع».

قال: «أتريدين البقاء في السفينة؟».

قالت: «بل أُلقي بنفسي في الماء. الموت خير لي من رفقتك». وجذبت يدها من يده وهمّت بأن تلقي نفسها في النهر.

فمنعها وهو يقول: «ألا تريدين أن تلقي أخاك؟ قد وصلنا إلى مكانه وانتهى التعب».

فلما سمعت قوله عاد إليها أملها وأطاعته، فنزلت إلى البر وقد بانَ الفجر، فالتفتت إلى ما حولها فإذا هي في بستان يقوم في وسطه بيت كالذي كانت فيه منذ هنيهة، ورأت البغال هناك أيضاً، ثم شاهدت الكلب الذي رأته بالأمس، وإذا بسعيد قد تناول المفتاح وفتح الباب وأشار إليها أن تدخل، فتحققت أنها في البيت الذي كانت فيه منذ بضع ساعات، وأن سعيداً لم يركب السفينة إلا ليُغرق جوهراً، فصارت ترتعد من فظاعة عمله. ولما دعاها للدخول أبت وقالت: «لا أدخل أو تقول لي أين أخي؟».

قال: «يظهر أن أخاك قد فرّ مع سائر رجالنا من هذه الديار لما بلغهم مقتل الأمير عبد الله، والغالب أنهم رجعوا إلى القيروان إذ كان من أول الأمر أنه إذا أحسسنا بالفشل رجعنا إلى القيروان، فما علينا الآن إلا نذهب إلى هناك».

قالت: «ألا تزال تخدعني؟ لقد انكشفت لي خيانتك، ولكن بعد أن ضاعت حيلتي». قالت ذلك وقعدت على الأرض وأخذت تبكي، فأمسكها سعيد وأراد إنهاضها وهو يقول لها: «لا تستسلمي إلى الظنون. ما أنا والله بخائن، وإنما أنا محب عاشق. اقلعي عن هذا الجنون وتعالي معي إلى القيروان فتشاهدي أخاك، وبعد ذلك تعودين به إلى قرطبة إذا شئت، وإلا بقينا هناك».

قالت: «ألا تزال تذكر الحب والغرام وقد ظهرت خيانتك؟».

فأمسك بيدها وقال: «ادخلي إلى البيت وافعلي ما شئت. لا فائدة من بقائك هنا. قومي ادخلي».

فأطاعته ونهضت حتى دخلت البيت وعرجت على أقرب الغرف فوقفت إلى الحائط وهي في أشد حالات الاضطراب.

فجثا أمامها كالمتضرع وقال: «آه يا حسناء! والله إني لأحبك من قلبي، بل تحبك كل جارحة من جوارحي!. ولقد ركبت الخطر واقترفت الذنوب وأتيت الفظائع طمعاً في الوصول إليك. أيعقل أني أخونك؟ سترين مني ما يُنسيك هذا العذاب. نعم إني أسأت إلى كثيرين ولكنني فعلت ذلك في سبيل حبك، ارحمي متيّماً دَنِفاً لا يطلب من الدنيا سواكِ». قال ذلك بتذلل والدمع يكاد يتناثر من عينيه وهو شاخص إليها.

أما هي فكانت تسمع كلامه مطرقة، فلما فرغ من قوله دفعته بيدها وقالت: «أتعترف بجرائمك وذنوبك وتطلب إليّ أن أحبك؟ إني لا أحبك ولا أقدر أن أحبك!».

فاعتدل في مقعده وقال: «نحن هنا وحدنا، وترينني أستعطفك وأتذلل لك، فلا تستبدي بي واسمعي نُصحي».

قالت: «إن مَن يزعم أنه محب لا يكذب حبيبته ولا يخونها».

قال: «ومتى خنتك؟».

قالت: «ألم تأت بي إلى هنا لمشاهدة أخي فأين هو؟».

قال: «قلت لك أنه رجع إلى القيروان ودعوتك للذهاب إليه فلم تقبلي».

قالت: «هل يعقل فرارهم جميعاً؟».

قال: «نعم، لقد اتفقنا على أن ننتقل إلى القيروان متى شعرنا بالفشل، ولا بدّ أنهم حين سمعوا بمقتل عبد الله وابن عبد البر وياسر، فروا خوف اطلاع الناس على أمرهم. وقد أخطأوا لأنهم لو انتظروا مجيئي الآن لعلموا أن عدوهم الأكبر قد مضى».

قالت: «مَن تعني؟».

قال: «أعني أكبر عدو نخافه ونخشى بأسه».

قالت: «لا أعرف أحداً تعنيه إلا أن يكون الناصر».

قال: «إياه أعني».

فأجفلت وقالت: «وماذا تعني بأنه مضى؟».

قال: «لا تعجبي. أعني أنه مات!».

فتراجع وصاحت: «الناصر؟ الناصر مات؟! خسئت، إن باعك أقصر من أن يناله!».

فوقف وهو يهز كتفيه ويقول: «سواء صدقت أم لم تصدقي فقد قلت لك الحق، ومع ذلك فهو بعيد عنا ولا شيء يمنعني مما أريده، وإذا بقيت على عنادك جعلتني أعمد إلى العنف».

فتفرست في وجهه وقالت: «تقدر أن تقتلني، وأن ترميني في

هذا الماء كما رميت ذلك الخادم الأمين، ولكنك لا تقدر على أن تحول بغضي إلى حب، ورغم ما تقوله من أنك ارتكبت ما ارتكبته التماساً لحبي، فأنا لا أحبك. نعم لا أحبك، فافعل ما تشاء!».

فنظر إليها مستغرباً وقال: «أظنك لم تفهمي مرادي. إنك إذا أقلعت عن هذا العناد وأطعتني فلا تلاقين أخاك فقط بل تعيشين عندي عيشة الملكة الآمرة الناهية».

قالت: «فهمت كل ما تقوله، ولكنني لا أقدر أن أحبك. أقول ذلك مع علمي بأن موتي وحياتي بين يديك فافهم».

فقال: «يا لله ما هذه القحة؟!».

قالت: «لا تكثر اللجاج. ليس عندي غير ما قلته لك، وإن ما تزعم أنك فعلته في سبيل حبي لا يزيدني إلا بغضاً لك، ولو أني خيّرت بينك وبين الموت لاخترت الموت! ألا يكفيك هذا التصريح؟ أقتل ثم أُقتل». قالت ذلك وقد أحمرت عيناها من البكاء والغضب، وأخذت ترتعد، واصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف فقعدت وقد خارت قواها وأسرع تنفسها وأوشكت أن تُصاب بنوبة عصبية. ثم انقلب ذلك الغضب بغتة إلى حزن، فغلب عليها البكاء فأخذت تندب نفسها وتلطم خديها وتقول: «ويلاه يا زهراء! أين أنتَ يا سيدي الناصر؟ نَصَرَكَ الله على أعدائك، وإذا بلغك موتي فاعلم أني مت على ولائك. فإني محبة لأحبائك عدوة لأعدائك إلى آخر نسمة من حياتي.. آه. تباً لك يا سعيد أو يا سليمان أو كما تسمي نفسك. قد ارتكبت آثاماً كثيرة، ألم يكن الأفضل لك أن تقتل نفسك وتخلص الناس من شرك؟ أمن أجل هذا الحب الذي تزعمه ارتكبت كل تلك الآثام؟ أنت تكلفني أن أحبك ولا طاقة لي بذلك، فدعني أو اقتلني!». ولما فرغت من قولها كان التعب قد أنهكها وهي لم تنم

طول الليل الماضي، فضلاً عن الغضب والخوف، فخارت قواها وهي لا تزال في ثوب صاحب البريد.

وكان سعيد يسمع توبيخها وتعنيفها وهو صابر يراعي حركاتها وسكناتها ويتردد بين أن يبقي على المحاسنة وبين أن يأتيها بالعنف، فلما رآها استلقت منهوكة القوى وقد امتقع لونها وكاد يغمى عليها قعد أمامها ومد يده إلى رأسها وأراد أن يمر على جبينها لعله يؤثر فيها بكهربيته أو مغنطيسيته، فحالما لمست يده جبينها انتفضت مذعورة ونفرت منه. فنهض وقد تملكه الغضب وجرى في أثرها وهو يحاول أن يطوق خصرها بذراعيه وهي تتحاشى أن يمسها، فأفلتت منه وقد تدلى شعرها على كتفيها، وهمّت بأن تخرج من البيت إلى البستان فسبقها وأقفل الباب، فأصبحت سجينة، ولكنها أحست بقوة لم تعهدها في نفسها من قبل والتفتت إلى سعيد وقالت: «أهذا ما تزعمه من حبك؟ تثب عليَّ كالوحش الكاسر. والله إنك لن تنالني إلا جثة هامدة».

فتراجع وقال: «كم توسلت إليك وتذللت لك فلم تقبلي، وهل يعجزني إخضاعك وأنا الذي لا يعجزني قلب الممالك وتفريق الجنود؟».

قالت: «قلت لك إنك قادر على قتلي فقط. هذا كل ما يمكنك أن تفعله معي، ولكن القتل لا يهمني. فاقتلني كما قتلت سواي وعش هنيئاً!. ماذا ينجيك من غضب أمير المؤمنين؟ إلى أين تفر من سيف نقمته؟».

فضحك ضحكة ضجّ لها المكان وقال: «قلت لك أن الناصر مضى إلى سبيله».

فصاحت: «إن يدك أقصر من أن تناله».

قال: «يظهر أنك لم تعرفي مَن أنا. وسوف تعلمين».

قال ذلك وهَمّ بأن يذهب إلى غرفة أخرى ليأخذ شيئاً فسمع نباح الكلب، وكان لا ينبح إلا إذا استغرب قادماً، فأجفل سعيد وأنصت وإذا بدبدبة خيول قد تعالت، فتركته الزهراء مشتغلاً بالإنصات وفتحت الباب ووثبت إلى الخارج فعثرت بالعتبة ووقعت، لكنها عادت فنهضت وإذا بعشرات من الفرسان قد ملأوا البستان وفي مقدمتهم فارسان عرفت منهما ساهر فصاحت: «ساهر، ساهر. لله درك. عليكم بهذا الخائن. أحيطوا بالمنزل واحذروا أن يفلت منكم».

فحثوا أفراسهم وأحاطوا بالمنزل، وجاء بعضهم من ناحية الباب فخرج إليهم سعيد وقد تبدلت سحنته وجحظت عيناه وقال لهم: «لا تزعجوا أنفسكم ها أنذا بين أيديكم لا أحمل سيفاً ولا سكيناً ولن أفر». قال ذلك بهدوء وسكينة كأن لم يكن شيء مما كان.

فتقدم إليه ساهر، ووراءه جماعة قد شهروا سيوفهم، وأمرهم بشد وثاقه، فمد سعيد يديه إليهم في هدوء، ونظر إلى عابدة وهي بينهم وقال: «عابدة؟ وأنت أيضاً؟».

فلم تجبه، ولكنها تقدمت إلى الزهراء، وأخذت تخفف عنها فسألتها الزهراء عن الناصر فقالت: «هو في خير، وكيف جئت أنت معه؟». قالت: «أتيت معه لأرى أخي».

قالت: «ومَن أخوك؟». قالت: «يسمونه صاحب النقمة».

قالت: «صاحب النقمة أخوك؟.. إني أعرف مكانه؟».

فصاحت: «بالله أين هو؟ خذيني إليه».

فأشارت إليها أن تنتظر، والتفتت إلى ساهر، وكان قد شدّ

وثاق سعيد ووكل بحراسته أربعة من الجند، وجاء في الحال إلى الزهراء، ووقف متأدباً وقال: «إن لعابدة الفضل الأكبر لأنها دلتنا على هذا المكان، ولولاها لم نستطع شيئاً».

فالتفتت الزهراء إلى عابدة وضمتها إلى صدرها وقالت: «ولا أنسى فضلك يا عزيزتي، وكم تضيفين إلى فضلك أضعافه إذا استطعت أن تهديني إلى أخي».

قالت: «أنا أعرف مخبأه، لكنني لا أقدر أن أدعوه، فإنه يسيء الظن بكل رجال الناصر، وكل أهل الأندلس، خصوصاً الآن بعد مقتل الأمير عبد الله. ولا سبيل إليه إلا بأخذ كتاب أو علامة من سعيد، فإنه يحترمه ويجله».

فقال ساهر: «لا أظن سعيداً يعطينا كتاباً أو علامة».

قالت عابدة: «أنا أكلمه. دعوني أدخل إليه وحدي».

قالت ذلك ودخلت عليه وهو مشدود الوثاق في إحدى غرف البيت. وكان جالساً وقد قطب حاجبيه وأطرق كأنه يفكر، وبانَ الاهتمام في عينيه، فلما لمح ظلها رفع بصره إليها فلم يتمالك عن إرسال دمعتين، فلما رأته يبكي خفق قلبها وتذكرت ما كان له من المنزلة الرفيعة في قلبها، وكيف قضت سنوات وهي ترى السعادة في رؤيته والموت والحياة بين شفتيه، فتأثرت بمنظره وغلب عليها الحنو فقالت: «برغمي أن أراك في هذه الحال، وأنا الجانية عليك لأني دللتهم على مكانك، ولكنك أذهبت رشدي بأعمالك».

فقطع كلامها وقال: «لا ذنب لك يا عابدة، وإنما الذنب ذنبي.. ولا أنسى ما سببته لك من الشقاء. أعرف هذا كله، فلا لوم عليك مهما فعلت، وسيسوقونني إلى الخليفة ثم إلى الموت حتماً. فهذا كله لا يهمني لأن الحياة لم تعد تحلو لي!». وسكت هنيهة ثم

قال: «ماذا فعلت بالناصر؟ هل أصابه سوء؟».

قالت: «لا. فلم أقدر على تنفيذ أمرك».

فتنهد تنهداً عميقاً وقال: «الحمد لله. إني أشعر الآن يا عابدة كأني صحوت من رقاد أو أفقت من إغماء. فإذا كنت قد تعمدت نجاة الخليفة فلك الشكر».

قالت: «لم أتعمده والحق يُقال». وقصت عليه ما وقع وأوجزت، ثم قالت: «لعل الخليفة إذا وثق من توبتك أن يعفو عنك ليستفيد من علمك ودهائك».

فهزّ رأسه هزة الإنكار والاشمئزاز وقال: «لا. لا أحب البقاء بعد الآن لأن نفسي لا ترضى دون الملك أو الخلافة مطمعاً. أما وقد تعذر ذلك فالقبر أولى.. وقد خدعتك وخدعت سواك وفتكت وغدرت طمعاً وطموحاً ففشلت فهل لي أن أجزيك الآن خدمة تريدينها».

قالت: «لا أريد شيئاً، ولكن الزهراء قد لحقها منك عذاب شديد، فإذا كنت تشعر بذلك فأكرمها وأجمعها بأخيها. وأنا أعرف مكانه ولكنه لا يصدق سواك ولا يثق بغيرك، فأرسل إليه علامة منك أو كتاباً أن يحضر إلى هنا، ومتى جاء كنت وسيلة في تعريفه إلى أخته، وهذه كفارة عن كل سيئاتك معها!».

قال: «افعل ذلك.. مدي يدك إلى هذا الخاتم، تناوليه من أصبعي واذهبي إلى المنزل الذي تعرفينه واطلبي سالماً، ولا تسميه صاحب النقمة فمتى جاءك فأعطيه هذا الخاتم واسألي ما شئت».

فمدت يدها وأخرجت الخاتم من أصبعه، وأحست وهي تستخرجه ببرودة أطرافه. ولما أرادت الخروج ناداها فعادت فقال لها:

«أنت تعلمين أن القوم الذين أغريناهم بالثورة لا يزالون يجتمعون هناك، وتعلمين أن الذنب في ذلك ذنبي أنا، فهؤلاء لا تزال الدولة تعدهم أعداءها، فإذا عرفت مكانهم فربما فتكت بهم فتزيد ذنوبي ذنباً آخر، فينبغي أن تذهبي أنت وحدك وتحتفظي بهذا السر وتأتيني بصاحب النقمة وحده. وأنا أرشده إلى الحقيقة، وهذا المفتاح في جيبي لتفتحي به الباب الخارجي، وهو يعود فيحل تلك الجمعية ولا يعرف أحد بها، ولا تجدين الآن منهم أحداً هناك».

قالت: «حسناً». وأخرجت المفتاح ورجعت إلى الزهراء وقالت لها: «هذه هي العلامة، وأنا ذاهبة بها لآتيكم بسالم».

صاحب النقمة

تنكرت عابدة في زي رجل، وسارت حتى وصلت إلى مقر الجمعية وطرقت الباب بالطريقة التي عرفتها، فخرج إليها شاب ملثم الوجه وقال: «مَن الطارق؟».

فقالت: «افتح وخذ هذه الرسالة». ففتح كوة صغيرة في الباب، فمدت الخاتم منها، وحالما رآه فتح الباب ودعاها للدخول وهو يحسبها رجلاً، فقالت: «إن صاحب هذا الخاتم يدعوك إليه الآن. إنه على مقربة من هذا المكان».

قال: «هل هو في ضيق؟».

قالت: «لا. ولكنه يحب أن يراك وحدك».

فدخل وغيّر ثيابه وخرج معها حتى تجاوز الدهليز وهو يتفرس فيها لأنه طرب لرخامة صوتها، وشعر أنها امرأة، فقضى مسافة الطريق وهو يكثر السؤال لغير باعث ليسمع صوتها، وكلما سمعه ازداد استئناساً به، وقد تذكر أنه سمعه من قبل وطرق باب قلبه.

وبعد قليل اقتربا من البستان فسمع صهيل الأفراس وخشِيَ أن تكون أفراس صقالبة الناصر فوقف وقال لها: «أخاف أن يكون في الأمر دسيسة يا سيدي أو يا سيدتي!».

قالت: «كلا وسترى ذلك حال وصولك».

قال: «لا.. لا أخطو خطوة واحدة من هذا المكان قبل أن ترفعي عنكِ هذا القناع».

قالت: «أخاف أن تعرفني». ثم أزاحت اللثام.

وحالما وقع نظره عليها عرفها فصاح: «عابدة! أين سعيد؟ ماذا أرى؟».

قالت: «لا تخف يا سالم. أما وقد عرفتني فلم يبقَ باعث على الحذر، وعما قليل ترى سعيداً، وهو يقصّ عليك خبراً جديداً».

وكان سالم قد خرج وعليه عباءة تحتها السيف والخنجر، وكان طويل القامة عظيم الهيبة جميل الخِلقة يكاد الشرر يتطاير من عينيه، لا يهاب العشرة إذا لقيهم وحده وقد تعوّد الضرب والطعن. فلما سمع قول عابدة وهو يعلم منزلتها عند سعيد واختبر غَيرتها على أحزابه، مشى معها حتى وصلا إلى باب البستان، وكانت الزهراء قد اختبأت في إحدى الغرف ريثما يقابل أخوها سعيداً.

فمشت عابدة بين يدي سالم في البستان، ومشى هو في أثرها مشية البطل الباسل لا يبالي ما هناك من الخيول وفرسانها حتى وصل إلى باب البيت، فسبقته عابدة إلى سعيد وأنبأته بمجيئه وطلبت إليه أن يخاطبه ليستأنس بصوته، فصاح به من الداخل: «سالم؟».

فلما سمع صوته وثب إليه وهو يقول: «لبيك يا سيدي»... ولما رآه موثقاً على تلك الصورة صاح قائلاً: «ماذا أرى؟». واستل

سيفه وقال: «تفديك روحي، مَن أوثقك؟».

فأجابه سعيد بهدوء وسكينة: «تمهل يا بني، نحن في حال غير الحال. أنا أوثقت نفسي، وإنما دعوتك لأعترف لك بأني خدعتك».

فاستغرب سالم قوله وقال: «خدعتني؟ معاذ الله!».

قال وهو يغص بريقه: «نعم خدعتك وخدعت آخرين، ولكن ما لنا ولذلك الآن؟ أحب أن أنصحك نصيحة الوالد. اعلم يا سالم أن الأمر الذي قمنا له قد فشل، وقد قُتل الأمير عبد الله ورفيقه وكبير خصيان الناصر لأنهم اتهموا بالانتماء إلينا، والصواب الآن في الرجوع عن هذا الأمر!».

فصاح قائلاً: «نرجع عنه؟. أنا لا أرجع.. ولا سيما بعد أن جاهر ذلك الخليفة برغبته في الاقتصاص مني، فقد بلغني أنه كتب ذلك على اللوح الذي أعلن فيه خبر الإعدام».

قال: «نعم، قد فعل، ولكن لا فائدة تُرجى من مقاومته، وليس من الحكمة مجاهدته عبثاً، فالرجوع إلى الصواب أَوْلى. أبلغ هذا سائر الرفاق».

قال: "لا حاجة إلى أخبارهم، فإنهم تفرقوا بالأمس خوفاً عند اطلاعهم على ما وقع".

قال: «وأنت؟».

قال: «كنت عازماً على البقاء والمثابرة سعياً وراء ما اعتزمناه بما بثته فيَّ من الأنفة وطلب الحق. ولكن؟!».

قال: «قلت لك رأيي في هذا الشأن».

قال: «وإلى أين أنت ذاهب بهذا الوثاق؟».

قال: «إني سأُساق إلى الخليفة ليحاكمني».

قال: «وكيف تقبل ذلك؟ دعني أنقذك بحد هذا الحسام».

قال: «لا تفعل!».

قال: «أذهب معك للمحاكمة أو القتل ولا أتخلى عنك».

قال: «تأتي معي، ولكن لتكون صاحب القول الفصل والكلمة النافذة في بلاط الخليفة».

فدُهش لهذا القول ولم يفهمه فقال: «ماذا تعني؟ أن الناصر لا يكاد بصره يقع عليَّ حتى يأمر بقتلي لأني كنت أكثر أعدائه مجاهرة بعداوته».

قال: «نعم. ولكن لك شفيعاً لا ترد شفاعته».

قال: «مَن هو ذلك الشفيع إن لم يكن أنت؟».

قال: «ألا تذكر أختك حسناء؟».

فقال: «دعني من ذكراها فقد مضت أعوام عدة لم أسمع عنها شيئاً، ولكن صورتها لم تبرح ذهني، ما الذي دعاك إلى ذكرها الآن؟».

قال: «لأنها ستكون شفيعة لك عند الخليفة».

فصاح قائلاً: «أختي حسناء؟ هل هي حية باقية؟ أين هي؟.. أم أنت تعبث بي؟».

قال: «أختك حسناء حية، وهي الآن صاحبة المقام الأول عند الناصر».

فأطرق سالم يفكر فيما سمعه ولا يكاد يصدقه. ثم رفع بصره إلى سعيد وقال: «أصدقني الخبر يا سيدي، فقد سمعت منك مراراً أنها ماتت».

قال: «نعم قلت لك هذا، ولذلك أعترف الآن بأني خدعتك، فإن أختك لا تزال حية، وهي أقرب الناس إلى قلب الناصر».

قال: «يا للعجب!.. ماذا أسمع؟ كيف غاب عني هذا الأمر كل هذه الأعوام وأنا على مقربة منها؟».

قال: «لأنك لا تعرف اسمها الجديد، فكما غيّرت اسمك من سالم إلى صاحب النقمة، غيّرت هي اسمها من حسناء إلى الزهراء».

فصرخ وقد دُهش وقال: «الزهاء؟.. الزهراء حبيبة الناصر أختي؟ ماذا تقول؟».

قال: «نعم، إن الزهراء أختك، وهي تتفانى في حبك».

قال وقد جحظت عيناه: «هل تعلم بوجودي؟».

قال: «كانت تحسبك ميتاً إلى أمس، فأخبرتها بأنك حي، فهربت من بيت الخليفة وأتت معي ليلاً لتراك وتنصح لك بالرجوع إلى طاعة الناصر».

فصاح وقد أخذته الدهشة: «أين هي؟».

قال: «هي قريبة منك». وأشار بعينيه إلى غرفتها.

قال: «هي هنا الآن؟». وتلفّت حوله.

وكانت الزهراء ساعة رجوع عابدة مستلقية في بعض غرف البيت ترتاح من عناء ذلك الليل، فدخلت عليها عابدة وحدها فنهضت وسألتها عن سالم فقالت: «إنه سيأتي بعد قليل، فقد تركته في بيته يتأهب للمجيء».

فقالت: «أصدقيني. أظنك لم تجديه أو لعله قد فرّ أو مات.. قولي».

فقالت: «وحياتك هو حيّ وسيأتي بعد قليل».

فصدقتها وصبرت نفسها، وكلما سمعت حركة أو صوتاً حسبت أخاها قادماً، وعابدة تشاغلها ريثما يفرغ سعيد مما هو فيه. وإذا بالزهراء نهضت فجأة وقالت: «أسمع صوت أخي، هذا صوته يرن في أذني!». وهرولت نحو الباب فتبعتها عابدة، ولما دنت من الغرفة سمعت كلاماً، فقالت: «أسمع سعيداً يتكلم. مع مَن؟».

قالت: «ستعلمين بعد قليل».

قالت: «أظنه يكلم أخي». واقتربت من الباب وكان مغلقاً فسمعت أخاها يقول: «أهي هنا الآن؟».

فعرفت صوته ففتحت الباب، وكان قد أخذ يتلفت حوله فوقع بصره عليها وهي بلباس صاحب البريد فلم يعرفها. أما هي فوقفت لحظة تتعرف ملامحه وتتفرس فيه. ثم ألقت نفسها عليه وهي تصرخ: «أخي. أخي سالم».

فلما سمع صوتها عرفها فضمها إليه وتعانقا، وعابدة وسعيد ينظران إليهما نظر الاشفاق، وقد تغير قلب سعيد وتبدلت عواطفه وأحس فظاعة الذنب الذي أوشك أن يرتكبه لو لم تتداركه عابدة بالجند ويقبضوا عليه. فإنه كان عازماً على الفتك بها وبأخيها إذا هي لم تبادله الحب والغرام. فلما رأى تعانقهما والدموع تتساقط من عينيهما فرحاً بذلك اللقاء، شعر بخطر الذنب الذي كان عازماً على ارتكابه، وأحس بلذة الإحسان في هذا اللقاء لأنه كان وسيلة التعارف بين الأخوين، وجعل يتأمل حركاتهما فكانا يفترقان لحظة ريثما يتأمل أحدهما وجه صاحبه ثم يعودان إلى المعانقة.

وفرحت عابدة لأنها كانت الوسيلة في إنقاذ الزهراء وأخيها، وسرّها على الأكثر أنها لم تقتل الخليفة، ولا هو علِمَ أنها كانت عازمة

على قتله، وإن لم يكن ذلك العزم من فعلها.

أما سالم فإنه بعد أن قبّل أخته مراراً، تباعد ونظر إلى ما حوله ثم أعاد نظره إلى أخته وقال: «لا أزال أحسبني في منام، لأني كثيراً ما ضممتك في منامي وقبّلتك مثل هذه القبلات ثم أستيقظ فلا أجد أحداً».

قالت: «أنتَ في يقظة يا حبيبي، وقد تمت سعادتي الآن بلقياك».

فقال: «أليسَ الفضل في هذا الاجتماع لصديقنا سعيد؟».

قالت: «نعم له فضل». وتنهدت فصاح سعيد وقال: «أنا أَوْلى بهذا التنهد يا حسناء». قال ذلك وهو مغلول اليدين، فلم يستطع سالم مشاهدته على تلك الحالة فقال لأخته: «حلّوا وثاق سعيد، فهو لا يفر».

فاعترضه سعيد قائلاً: «لا. لا أريد أن يحل وثاقي!».

فحولت الزهراء انتباهه إلى عابدة وقالت: «إن الفضل الأكبر في هذا اللقاء هو لهذه الأديبة اللطيفة. هل تعرفها؟».

فهز رأسه مجيباً وقال: «نعم أعرفها».

قالت: «وهل عرفتها قبل الآن؟».

قال: «عرفتها مع سعيد الوراق. يا للعجب! ماذا أرى؟ أهذا سعيد صاحب الرأي الصائب والقول الفصل؟!».

أما عابدة فقد توسمت في ملامح سالم وحركاته تودداً إليها وإعجاباً بها فتحرك قلبها. وكانت هذه أول مرة يتحرك فيها قلبها لغير سعيد فغضبت لتحركه خوفاً من أن يسوقها إلى بلاء جديد، فأحبت أن تلهو عن ذلك بشيء آخر فقالت للزهراء: «وهل نسيت يا سيدتي

ساهراً؟».

قالت: «لا أنسى فضله من وجوه كثيرة. أما لقاء أخي فأنا مَدينة به لك بنوع خاص».

ثم نادت ساهراً، وكان في طرف البستان مع سائر الخصيان، فأتى ووقف متأدباً فقالت له: «هذا أخي صاحب النقمة».

فأجفل وصاح: «أخوك؟ هذا أخوك؟ وتقولين صاحب النقمة؟! أليس هو طلبة أمير المؤمنين؟ أعوذ بالله كيف يكون أخاً لأعز الناس عنده؟».

فقالت: «وسيكون من أعز الناس عنده لأنه أخي!».

فحنى رأسه موافقاً وقال: «نعم سيكون. والآن يا سيدتي ألا نعود إلى القصر فإن أهله في قلق شديد لغيابك!. قالت: «نمضي لتوّنا».

فخرج وأمر الصقالبة أن يتأهبوا للركوب ويحملوا معهم سعيداً مخفوراً وسارَ الجميع قاصدين إلى القصر.

المحاكمة

كان أهل القصر في وجل لغياب الزهراء، وقد علموا بذهاب ساهر والصقالبة للتفتيش عنها، وكان الخليفة أكثر الجميع قلقاً وغضباً، ولو أخذت الزهراء وهو في ريب من إخلاصها لكان وقع المصيبة عليه أخف كثيراً. أما الآن بعد أن ظهر له من حبها وإخلاصها في خدمته ما ظهر، علاوة على تعقلها وروّيتها، فأصبح شديد التعلق بها يفديها بأعز ما لديه. فقضى معظم ذلك النهار في قلق لا يرتاح له بال، وهو يرسل الوصيف أثر الوصيف ليتشوفوا الطريق عن بُعد، وصعد هو على منارة من منائر جامع الزهراء ليُشرف منها على الطريق

المؤدي إلى قرطبة فلم يرَ شيئاً.

وفي الأصيل جاء البشير برجوع ساهر والصقالبة، ومعهم سعيد والزهراء وعابدة ورجل آخر لم يعرفوه، فأمر أن يؤتى بهم إلى بيت المنام في قصر المؤنس، وجلس لهم مجلسه يوم جاءته عابدة وسعيد حيث البركة وعليها التماثيل الذهبية وغيرها. فأدخلوا عليه الزهراء أولاً وهي لا تزال بلباس صاحب البريد، فلما رآها استغربها، فكشفت عن وجهها وأكبت على يده تقبّلها، فلما عرفها صاح بها: «ويحك ما هذا؟».

فقالت: «هذا الثوب الذي تنكرت به ساعة الفرار».

فقطب حاجبيه وقال: «ساعة الفرار؟.. لماذا تفرين؟ أرأيت مني إنكاراً لحقك، وأنت أعز الناس عندي لما تأكدته من صدق مودتك وإخلاص طويتك؟! كيف تفرين؟».

قالت: «فررت للبحث عن أخ لي كنت أحسبه قد مات، ثم بلغني أنه على قيد الحياة، في مكان بالأرباض فذهبتُ لأراه».

قال: «ما كان أجدرك أن تطلبي إحضاره فيؤتى لك به ولو كان وراء سد يأجوج».

قالت: «نعم أعلم ذلك، ولكني أخاف على أخي من أمير المؤمنين».

قال: «تخافين على أخيك مني؟».

قالت: «نعم يا سيدي. إنما خوفي عليه منك وحدك وليس من سواك!».

قال: «أإلى هذا الحد تسيئين الظن بي؟ كيف أكافئك على صنيعك الجميل بأذى أخيك؟».

قالت: «أيعدني أمير المؤمنين إذا جاءه أخي وكان مذنباً أن يعفو عنه؟».

قال: «لك ذلك».

قالت: «ولو كان ذنبه كبيراً؟».

قال: «ماذا عسى أن يكون ذنبه؟».

قالت: «قد يكون من الخارجين على الدولة».

قال: «أعفو عنه. إكراماً لك، ولو كان صاحب النقمة».

قالت: «هو صاحب النقمة عينه يا سيدي».

فاستغرب قولها وقال: «وكيف يكون صاحب النقمة أخاك؟».

فقصت عليه حديثها عن أخيها، وما كان من أمر سعيد، وكيف أحبها ولم تحبه، وما فعله للوصول إليها، إلى أن فرّ بها بالأمس، وكيف أنقذها ساهر وعابدة.

وكان الخليفة يسمع كلامها باستغراب ودهشة، فلما فرغت منه انجلت أشياء كثيرة لم يكن يفهمها، وتبينت له أمور زادته ثقة بالزهراء فقال لها: «لقد عفونا عن أخيك، أين هو؟».

فأمرت أحد الغلمان أن يدعو سالماً، فخرج وعاد به، فدخل سالم وهو يمشي مشية الشجاع في احترام، فأعجب الناصر بما في وجهه من دلائل البسالة والجمال، فأشارت إليه الزهراء أن يقبل يد الناصر ففعل ووقف، فقال له الناصر: «أنت صاحب النقمة؟ قد بلغنا خبر خروجك علينا في جملة الخارجين. فما الذي رأيتموه من الناصر حتى خرجتم عليه؟».

فخافت الزهراء أن يقول أخوها كلمة تغضب الناصر فيعود إلى

الانتقام فقالت: «ألم يعف أمير المؤمنين عنه؟».

قال: «عفوت، ولكنني لم أفهم ما يحمل هؤلاء على الخروج، وكان الإسلام على وشك السقوط فأنهضته، وكانت الدولة مبعثرة فجمعت شتاتها وقهرت أعداءها. ألم أرفع شأن الإسلام بعد أن كادت هيبته تذهب بما أتاه أصحاب بغداد من أسباب الضعف، فأتاني ملوك النصارى يتزلفون ويتقربون، وهاداني أكبر ملوك النصرانية وخطبوا مودتي. أليس في ذلك عز للإسلام والمسلمين؟ مَن استطاع ذلك من الخلفاء قبلي؟ وأنتم مع ذلك تتآمرون وتتواطأون؟». وكان يقول ذلك وصوته يرتجف من الغضب حتى خافت الزهراء غضبه، ونظرت إلى أخيها مخافة أن تبدو منه كلمة تبعث على هياج الناصر، فسمعت من الخارج صوتاً يقول: «لا ذنب لأحد من المتآمرين، إنما الذنب لواحد منهم».

فعرف الخليفة أنه صوت سعيد فأمر بإدخاله وهو موثق اليدين وليس على وجهه شيء من مظاهر الخوف، وإنما كانت عيناه حمراوين يكاد الشرر يتطاير منهما. فلما وقع نظر الخليفة عليه أمر أن يحل وثاقه، فتقدم بعض الحرس إلى حلّه، ووقف بضعة منهم إلى جانبيه بالسيوف المسلولة، وأشار بدخول سائر القادمين، فدخلت عابدة فوقفت بجانب الزهراء، ودخل ساهر ووقف متأدباً بجانب سالم، فأمر الخليفة سعيداً أن يتقدم حتى يقف في وسط القاعة، فتقدم بقدم ثابتة وجأش رابط فقال له الناصر: «أنت سعيد الوراق صديقنا وموضع ثقتنا؟». فلم يجب.

فقال: «أهذا جزاؤنا، إذ قربناك وأكرمناك وجعلناك مستشارنا؟». تحرضنا على قتل ولدنا لأنه خرج علينا وأنت السبب في خروجه؟ ثم تتجاسر على الفرار بالزهراء من قصرنا؟ هل بعد

ذلك من مسوغ للرفق بك؟.. يسوءني والله أن أخسر مشيراً عاقلاً حكيماً مثلك، ويا للعجب كيف ارتكبت هذه الفظائع؟ كيف جعلت لهذه الدنايا سبيلاً إليك فاقترفت أموراً يتنزه عنها الجهلاء وأهل الطيش، وأموراً يستحيي أهل الفجور من إتيان مثلها؟ أين كانت حكمتك؟ أين كان عقلك وسداد رأيك؟ بل أين كان تدبيرك وأنت تعلم أن فرارك بالزهراء لم يكن ليتم لك وعبد الرحمن حي؟ فإنه يملأ الأرض عليك خيلاً ورجالاً ويأتي بك صاغراً ذليلاً.. إذا لم يكن لك شرف يعصمك عن ارتكاب الرذائل ويردعك عن خيانة مَن أكرمك وقدمك أفلم يكن لك عقل يدلك على ما تتعرض له من الخطر؟!».

وكان سعيد واقفاً يسمع كلام الناصر، وينظر في بيت من الشعر مطرز على إحدى ستائر القاعة، وسائر الحضور ينظرون إليه ينتظرون ما يعتذر به عن نفسه، وكلهم يعرفون قوة حجته ورجاحة عقله. ورغم ما أساء به إليهم لا تزال منزلته رفيعة في أعينهم.

فلما سمع سعيد سؤال الناصر إياه، نظر إليه وقال: «أما سوء التدبير فلا أقبل التلطخ به، فإن تدبيري لو عرفه المولى لما وجد به خرقاً، ولكن القضاء قضى بفساد ذلك التدبير، لأقف هذا الموقف».

فقال الناصر: «كأنك دبرت الوسيلة لقتلي أيضاً ولم تنجح؟.. فماذا دفعك إلى ذلك ونحن لم نقصّر في إكرامك؟ وما الذي كنت تتوقعه من اقتراف تلك الجريمة. إنها لم تكن لتغنيك بالمال ولا لترفع منزلتك، بل قد تكون سبباً في الحط من شأنك حتى عند نفسك يوم يثوب إليك رشدك وترى أنك قتلت الأبرياء وأسأت إلى مَن أحسن إليك!».

فاعتدل سعيد في موقفه ووجّه خطابه إلى الناصر وقال: «إن أمير المؤمنين لم يقل لي شيئاً لا أعلمه، وقد اعترف لي بسداد الرأي

والحكمة والتعقل، ولكنه لم يسألني عما حملني على مخالفة الصواب وتعريض نفسي للخطر.. لم يحملني على ذلك يا أمير المؤمنين طمع في مال، فإن الأموال كثيرة عندي، ولكني أرتكب كثيراً من الرذائل.. ارتكبت الخيانة والغدر والكذب، وأنا أعلم جيداً أنها رذائل وإن مثلي يجب أن ينزه نفسه عنها. ولكني لم أرتكبها طمعاً في المال أو الجاه كما قلت، ولكن...». ولما وصل إلى هنا غص وتغيّرت سحنته وتشاغل ببلع ريقه والجميع سكوت وقد علقوا أنفاسهم تشوقاً لسماع ما يعتذر به عن نفسه، فلما سكت جعل بعضهم ينظر إلى بعض.

أما سعيد فرفع كمه ومسح به دمعة انحدرت على خده، واستدرك فقال: «لا يظن أمير المؤمنين إني أبكي جزعاً من الموت، إني لا أرى السعادة في الحياة كما أني لا أراها في الجاه ولا المال».

فاستغرب الخليفة تعبيره وتشوّق لتتمة حديثه فقال: «أنا أعلم أنك لا تخاف الموت لأن أعمالك الماضية تدل على ذلك، ولكني سألتك عن سبب إقدامك على الخيانة وأنت أعقل من أن تأتيها عن جهل، ألم تخش بأس أمير المؤمنين؟».

فأجابه سعيد: «إن الرذيلة التي لا يجوز ارتكابها مع أمير المؤمنين لا يجوز ارتكابها مع سائر الناس. واستأذن الإمام الناصر في كلمة أقولها وأنا في آخر يوم من أيام الدنيا. إن المنصب الذي يشغله أمير المؤمنين إنما ساقته الأقدار إليه وهو غير مخير، لا تغضب يا سيدي. لو لم تولد من بيت الخلافة وينصرك الناس على قتل الناس لم تبلغ هذا المقام، فأنت وصلت إليه على جسر من الجماجم فوق بحر من الدم. وأي فخر في ذلك؟ فلما رفعوا مقامك وبايعوك وجعلوك خليفة بُنيت القصور وأكثرت من الجواري والخصيان وأمرت الناس

أن يعظموك، وقد فعلوا وهم يحسبون لك فضلاً عليهم، والفضل لهم في صيانة دولتك والدفاع عن حياتك. ثم أنت تنكر على أحدهم جزءاً صغيراً مما تحوزه لنفسك. ولا ذنب لك في ذلك فإنها القاعدة التي جرى عليها الناس من قبل، ولكنها ليست هي أسباب السعادة».

فامتعض الناصر من تلك الجسارة لكنه تجلد وصبر عليه حلماً وسعة صدر وقال: «ربما كنت مصيباً لكنك لم تجبني عما حملك على تعريض نفسك للخطر فضلاً عن ارتكاب الخيانة وغيرها من الرذائل وأنت الحكيم العاقل؟».

قال: «لست أول حكيم عاقل ارتكب الرذائل في سبيل مطلبه».

قال: «نعم، ولكننا لم نفهم الغرض الذي حملك على ذلك».

قال: «إن الغرض الذي حملني على هذه الرذائل من أشرف الأغراض، بل هو أشرفها جميعاً لأن عليه يتوقف عمران هذا الوجود، بل هو سنّة من سُنن الله في خلقه وفضيلة من أكبر الفضائل. وأما سواي فإنه يرتكب الرذائل في سبيل أغراض تخالف سنّة الوجود وقد نهى عنها الشرع والعرف. كم من رجل ارتكب الغدر والفتك والقتل التماساً لمنصب الملك أو الخلافة، وهذا المنصب نفسه مشوب بأمثال هذه الرذائل لأن طالب الملك متى ناله أحل لنفسه كل محرم، وساعده الناس على التمادي في الأثرة، وصار يحسب أموال الرعايا وأنفسهم حقاً له، فيبني القصور ويزخرفها بالذهب والفضة مما يجمعونه له من تعب الفقراء، ويقتني الجواري على اختلاف أنواعهن، ويتحكم في رقاب الناس وأموالهم كما يشاء، ولا يرى لسواه حقاً. بل الويل لمن يجرؤ على الاعتراض. ولو لم أكن على باب

الآخرة لم أقله!».

فدُهش الجميع لهذه الجسارة مع ما فيها من الحكمة البالغة، ولم يجسر أحد قبله على مثل هذا التصريح في حضرة خليفة شديد البأس، ولكنهم غضوا من أبصارهم تهيباً من الخليفة.

أما الناصر فظل على إظهار الاستخفاف بما يسمعه، ولم يشأ أن يجعل نفسه المقصود بذلك التعريض فقال: «صدقت، إن كثيرين من طلاب الملك لم ينالوه إلا بسفك الدماء، وهؤلاء إخواننا العباسيون أكبر شاهد على ذلك، وزعيمهم أبو مسلم الخراساني الذي كان يقتل على الشك، لكني لا أزال أنتظر أن أسمع منك السبب الذي حملك أنت على ما فعلت، ولم ألح عليك بالاستفهام إلا لأستفيد من حكمتك، فقد كنت كما تعلم كثير الثقة بعلمك والإعجاب بتعقلك».

تنهد سعيد تنهداً عميقاً، وأجال نظره في الحاضرين حتى وقع على الزهراء، وكانت شاخصة ببصرها إليه وقد غطت رأسها بالنقاب وأخذ منها الإعجاب به كل مأخذ، فلما رأته ينظر إليها حولت نظرها عنه، أما هو فلما وقع نظره عليها ابتسم شفت عن معانٍ كثيرة، وتنهد ثانية وقال وهو يوجه كلامه إلى الناصر: «إن السبب الذي حملني على ما ارتكبته هو أشرف الأسباب، بل هو الوسيلة الوحيدة لجمع شتات الناس وتأليف قلوبهم وحفظ أنواعهم، وهو الذي أمر به الشرع وأوصى به الله، وقد امتدحه الحكماء وتغزل به الشعراء بل هو أكثر الفضائل. ذلك السبب يا سيدي هو (الحب). هذا هو الذي حملني على ارتكاب ما ارتكبته. فهل في الحب عار وقد جاء ذكره في القرآن والحديث؟ أليسَ هو سبب نظام الكون؟».

فلما قال ذلك أجفلت الزهراء وأطرقت حياءً لعلمها أنه يُشير

إلى حبه إياها، ولم يخفِ غرضه على الناصر فقال له: «ولكن الله ينهي عن التعدي على نساء الآخرين».

قال: «نعم يا سيدي، ولكن الحق الطبيعي في الحب للمحب الأول خلافاً لما هو جارٍ في أعمال الناس، فإن القوي يفوز بما يريد والضعيف يذهب حقه هدراً».

فقال الناصر: «وإذا كان الضعيف حكيماً ألا تقضي عليه حكمته أن يخاف العقاب فيبتعد عن عرين الأسد؟».

قال: «نعم إذا استطاع إلى ذلك سبيلا، ولكنه غلب على أمره، وتمكن الحب من قلبه حتى أعمَى بصيرته وأصبح لا يرى للحياة معنى بدون الاجتماع بحبيبه. كما يعمي طالب الدنيا بزخرفتها، وكما يعمي طالب السيادة فلا يرى غير مطلبه، وكما يعمي طالب الجاه فإنه يقتل ويغدر ويخون في سبيل الحصول عليه، والسيادة ظلم واستبداد تخالف الحرية الطبيعية التي منحها الخالق لبني الإنسان. وأما الحب فإنه شريعة طبيعية أمر الخالق بها وقال في كتابه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة﴾. فلا عجب إذا توسل إلى غرضه بفتك أو قتل أو غدر خصوصاً إذا حال بين المحب ومحبوبه شخص آخر».

فلما سمعت الزهراء قوله خافت أن يظن الخليفة أن بينها وبين سعيد تبادلاً في المحبة قبل مجيئها إليه، فاستأذنت في الكلام، فأذن لها فقالت: «ولكن شرط المحبة الصحيحة أن تكون متبادلة، فإذا لم تكن كذلك بطُلَت فضيلتها وأصبح طلبها تعدياً».

فنظر سعيد إليها وهي تتكلم وقد ترنح لصوتها الرخيم، فلما فرغت ظل ساكتاً ينظر إليها كأنه يتوقع أن تعود إلى الكلام، فلما علم أنها فرغت قال: «إن الحب فضيلة مهما اعترضه أو تقلبت عليه

الأحوال لأنه أساس العمران، والمحبون هم الفضلاء، ولولاهم لخلت الدنيا من الرحمة والإحسان. ولولا الحب يا حسناء لكانت الحياة كالصحراء القاحلة ماؤها أجاج وهواؤها سموم، وإنما يجعل (الحب) ماءها عذباً وسمومها نسيماً آه من الحب!». ولما قال ذلك شرق بريقه ثم أجهش، والناصر ينظر إليه ويعجب، وكانت عابدة أول مَن شارك سعيداً البكاء، فإنها لم تستطع إمساك نفسها لما غلب على قلبها من الذكريات الماضية، وكيف كانت عالقة القلب بسعيد وهو يضحك منها ويستخدمها في سبيل سواه، لكنها ما زالت تشعر بالعطف عليه، فلما رأته يبكي بكت.

أما الزهراء فأجابت سعيداً قائلة: «ولكن إذا تأكد المحب أن حبيبه لا يحبه ولا يقدر أن يحبه ولا سبيل للوصول إليه. أما كان من الحكمة أن ينساه ويسلوه؟».

فتنهد سعيد وقال: «لي عقل يحل المشكلات، ورأي يرد السيل الجارف، وعزم يهد الجبال، وقد تغلبت على كل أنواع المشاق، فلم تعرض لي مشكلة إلا حللتها، ولا أردت أمراً إلا قدرت عليه. إلا الحب، فإنه غلبني على أمري، وذهب بعزيمتي، وقضى على عقلي وحكمتي!».

فقالت: «فماذا يفعل المحب إذن ولا سبيل له إلى حبيبه؟».

فمدّ سعيد يده إلى جيبه وقال: «إذا تأكد يأسه من حبيبه فقد تأكد أنه مائت، إذ لا حياة للمحبين بغير الحب، وإذا عاشوا فعيشهم الشقاء، فما عليهم إلا الرحيل من هذه الدنيا». وقال ذلك وأخرج ورقة ملفوفة، ووجه كلامه إلى الزهراء وقال: «إني أموت فداء الحب». والتفت إلى عابدة وقال: «سامحيني يا عابدة فقد ظلمتك كثيراً». ونظر إلى الناصر وقال: «ليس لك عندي غير هذه الروح

عقاباً على جرائمي. خذها». والتقم ما في تلك الورقة.

عابدة وسالم

أدرك الناصر أن سعيداً تناول السم فصاح به قائلاً: «ويلك! أتقتل نفسك؟ تمهل.. إني أحب استبقاءك وأضن بحكيم مثلك أن يموت هكذا. قد كنت أحب أن أستبقيك، ماذا فعلت؟».

فقال: «أتستبقيني لأخدمك وأموت حسرة؟ كلا، قد يئست من حبيبتي، ولا حياة لي إلا بالزهراء».

قال: «أهديك مئات من الجواري أجمل منها».

قال: «الحب يا عبد الرحمن لا يستبدل، ولولا ذلك لكانت هذه (وأشار إلى عابدة) أَولى الجميع بالبدل، ولكن قلبي لا يرضى أحداً غير هذه (وأشار إلى الزهراء) فإني أحس كأنها شطر من قلبي، ولا يعيش الإنسان بنصف قلبه.. فاهنأ بها، إنها جوهرة جمعت بين الصدق والإخلاص ولكن لك وحدك».

فقال الناصر: «كيف تقتل نفسك بيدك؟».

فقال: «هذا خير من أن يقتلني الجلاد».

فصاحت عابدة: «إذا كان هذا دواء المحب إذا يئس من حبيبه فما أجدرني أن أقتل نفسي!». وأخذت تبكي فأدركت الزهراء مقصودها فاقتربت منها وأشارت إليها أن تسكت.

أما سعيد فلم تمض لحظات حتى بدأ الألم في أحشائه واسترخى، فأشار الناصر أن يحمل، وقد شق عليه أمره لأنه كان يحبه ويحترمه، ولو بقي حياً لاستخدمه في بعض أموره. فحملوا سعيداً وقد كاد يُغمى عليه، وبعد قليل مات فدفنوه.

وبعد خروج سعيد تراجع الناصر واعتبر، وزادت الزهراء رفعة

عنده، وازداد حباً لها، والتفت إليها وابتسم فرآها تنظر إلى الأرض كأنها تفكر فقال: «كل ذلك جرى لأجلك؟».

قالت: «إني حقيرة لا أستحق هذه العناية، ولكن الرجل قصير العمر رحمه الله».

قال: «نعم إنه دلنا على فضلك وصدق مودتك، فأنت اليوم أرقى منزلة عندنا من قبل. فاطلبي ما تشائين».

قالت: «إن نعم مولاي متوالية على جاريته، وقد تم حظي عن أخي هذا، وإنما أشارك هذه المسكينة يأسها لأنها قاست العذاب في أثناء مساعي ذلك الرجل الغريب، وكانت تحبه وهو لا يحبها، وهي تخدمه وهو يخادعها، فأحب أن تنال تعزية تنسيها ذلك».

فالتفت الناصر إلى سالم وقال: «يا سالم، أأنت متزوج؟».

قال: «كلا يا سيدي».

قال: «أتتزوج عابدة؟ إنها أديبة عاقلة».

فأشرق وجهه وحنى رأسه وقال: «ذلك حظ كبير لي، وكيف لا أختار نصيباً اختاره لي أمير المؤمنين؟».

فأمر الناصر أن تُزف عابدة إلى سالم، وأن يخصص لهما قصر يعيشان فيه.

فقالت الزهراء: «وهذا ساهر يكون في بطانة مولاي الناصر فإنه أهلٌ للمناصب الكبيرة».

قال: «جعلناه من خاصتنا». وانفضّ المجلس على تلك الحال.

obeikandl.com